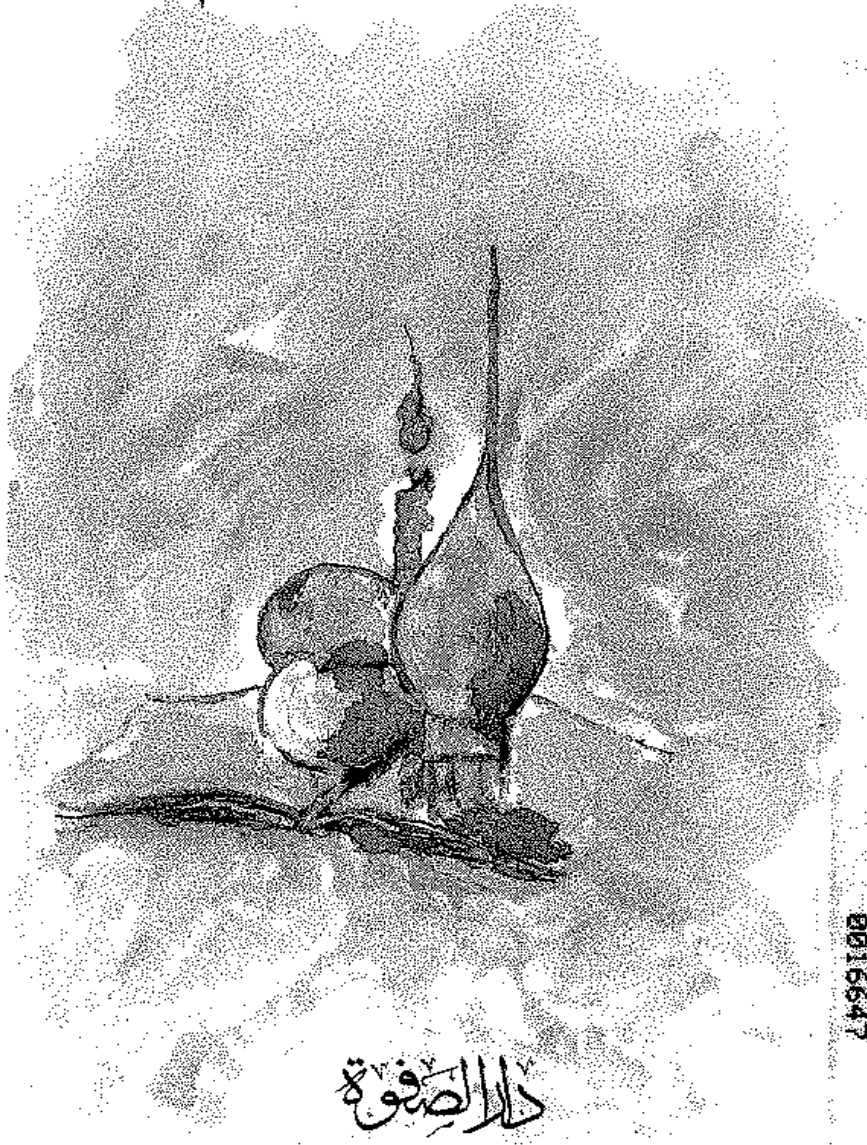


آية الله جوادى آملى

عَلِيٌّ بْنُ أَبِي رِثْوَةَ (ع)

والقرآن الحكيم



دلالة الصوفية

بكرت - لبنان



عَلِيٌّ بْنُ مُوَيْزٍ رَضِيَ
وَالْقَابِلُ الْحَكَمُ



آيَةُ اللَّهِ جَوَادِيَّ آمَلِيَّ

عَلِيٌّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا^(ع)

وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ

دَلَالَةُ الصِّفَةِ

بِسْمِ اللَّهِ - بَيْرُوت - لَبْنَان

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بيروت - بئر العبد - الصنوبرة - مقابل سمتر داعر - بناية دياب مهدي

Tel: 823518 - 822167 - 601002

Fax: 009611601019

P.o. Box: 36/24

ت: ٨٢٣٥١٨ - ٨٢٢١٦٧ - ٦٠١٠٠٢

فاكس: ٠٠٩٦١١٦٠١٠١٩

ص.ب: ٢٤ / ٦٣



مقدمة

الحمد لله الذى حمد في الكتاب نفسه وافتتح بالحمد كتابه وجعل الحمد آخر دعوى اهل جنته وصلى الله على من جعل لواء الحمد بيده وبعثه مقاما محمودا وعلى عترته الذين بهم يبين القرآن اذ عطفوا الهوى على الهدى حين عطف الناس الهدى على الهوى. واللعن على اعدائهم اجمعين من الآن الى يوم الدين. وبعد: فيقول العبد المفتاق الى مولاه الجواد عبدالله الجوادى الطبرى الاملى: هذه وجيزة حول القرآن الحكيم من وجهة نظر مولينا ثامن الحجج على ابن موسى الرضا عليها السلام رحبنا بالمشروع مهدفا استبانة مقامه السامى بها فى ضوء القرآن الكريم وان يبين معارفه الراقية ببيان القرآن الناطق، حيث ان مستقاهما واحد، كما وان مسيرتهما ومنتاهما ومعيتهما بالحق فارده فلن يفترقا ابدا ونهاثيا. حررتها للمؤتمر العالمى الثانى المنعقد بمناسبة ذكرى ميلاده (ع) ١١ ذى القعدة الحرام عام ١٤٠٦ فى جوار روضته المغسوسة بطوبى المعرفة التى «تسوق اكلها كسل حين باذن ربها». ونظمتها فى روضة وجنان:

اما الروضة: فليبان ما يتصل الى القرآن الكريم بالذات .

واما الجنان: فهي لبيان شرائط معرفة القرآن والموانع عنها وكذا بيان

المعارف المستفادة من القرآن، مقتصرًا في ذلك كله على ما صدر عن مولينا
الرضا (ع) عدا مواضع خاصه. وقد حان الآن الغوص في هذا البحر اللجج
معتدًا عليه سبحانه وثقةً به تعالى ومسانداً اليه ومسلماً له راجياً أن يكون فيضه
سبحانه قلبي الذي به اعقل ولساني الذي به انطق وبصري التي بها أبصرُ
وسمعي التي بها اسمع ويدي التي بها اكتب، ناثباً في ذلك كله عن بقية الله
- ارواح من سواه فداء- مهدياً ثواب هذه النيابة الى اهل بيت الوحي
والعصمة (ع) الذين هم اولى بحسناتنا منا اذ بولايتهم اكتمل نصاب ديشنا
وتمت نعمة ربنا ورضى الله الاسلام لنا ديناً فهولاء السادة القادة (ع) اولى بنا
من انفسنا فضلاً عن حسناتنا، لان الاحسن من الحسنة هو فاعلها حيث انها
اثر منه والموثر افضل وجوداً من الاثر، كما اوعز اليه امير المؤمنين (ع) بكلمته:

خبر من الخير فاعله^١

الفصل الاول

روضة: في العلوم التي تحوم حول القرآن نفسه

ان القرآن له وجود علمي ووجود عيني لم يفترقا قط ولن يفترقا بعد وكانا لدى الله سبحانه نورا واحدا صدرا من عنده تعالى، بان ارسل وجوده العيني وانزل معه وجوده العلمي لا «ليقوم الناس بالقسط»^١ فقط وليس الا، بل ليخرجوا «من الظلمات الى النور»^٢ ذاتا وصفةً وفعلا.

فتحقيق المقال في مقامين: احدهما حول القرآن العلمي والاخر حول القرآن العيني، فنقول:

المقام الاول: حول القرآن العلمي

ان القرآن كلام الله سبحانه وكتابه الذي تحيل لعباده فيه من غير ان يكونوا رأوه^٣ وحيل الله المتصل به تعالى الذي امر الناس بالاعتصام به^٤ فله طرفان احدهما بيد الله سبحانه والطرف الآخر بايدي الناس وله مراتب بعضها فوق بعض يتنزل من عال الى دان بالحق نزولا^٥ ويترقى من دان الى عال

١ - الحديد / ٢٥.

٢ - ابراهيم / ٥.

٣ - نوح البلاغة.

٤ - واعتصموا بحبل الله جميعا - آل عمران / ١٠٣.

٥ - بالحق انزلناه وبالحق نزل - بني اسرائيل (الاسراء) / ١٠٥.

كذلك صعودا كما قال سبحانه:

انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وانه في ام الكتاب
لعلني حكيم^١.

والمراتب الوسطى التي هي بين عالم الطبيعى وكسوة اللفظ وبين عالم
العقل والتجرد التام المعبر عنه بقوله تعالى = ام الكتاب =:
صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بايدي سفرة، كرام بررة^٢.

وحيث انه من مبتدأ ظهوره وصدوره حتى منتهى نزوله
وهبوطه مصاحب الحق ومحضوف به فطبيعى ان لا يتطرقه الضلال من
بين يديه ولا من خلفه ولا يتسرب اليه البطلان من يمينه ولا شماله، كما قال
قائله - سبحانه -:

عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا، الا من ارتضى من رسول فانه
يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا، ليعلم ان قد ابلفوا رسالات ربهم واحاط
بما لديهم واحصى كل شئ عددا^٣.

اذاً فهو معصوم عن الجهل والخطا حدوثا ومصون عن الضلال والبطلان
بقاءً، وهو الحق لا غير، وما ذا بعد الحق الا الضلال فالتقدم عليه كالتأخر عنه
ضلالة والانحراف عنه الى اليمين كالانحراف عنه الى الشمال مضلة، اذ الجادة
هي الوسطى لا جانبها والصراط هو سبيل القصد لا حاشيتها.
واليك بعض ما عن مولانا الرضا (ع) في ذلك كما يلي:

قال الريان بن الصلت للرضا (ع) يمانقول في القرآن؟ فقال (ع): كلام

١- الزخرف / ٤ - ٣.

٢- عبس / ١٢ - ١٦.

٣- الجن / ٢٨ - ٢٦.

الله لا تتجاوزوه ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوا^١.

يعنى الامام (ع): ان القرآن كلام الله وظهور فعله، فهو دون الذات المتكلم به وآية له فلا يصح التجاوز عن حده الوجودى كما انه هدى للناس وبصائر من الله فلا يجوز التعدى عنه وطلب الهدى والبصيرة في غيره، ولذا قال (ع) في شأنه:

هو جبل الله المتين وعروته الوثقى وطريقته المثل المودى الى الجنة والمنجى من النار لا يخلق على الازمنة ولا يفت على الالسنه لانه لم يجعل لزمان دون زمان بل جعل دليل البرهان والحجة على كل انسان لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد^٢.

فالقرآن حتى لا يطرئه الموت واليوار كما وانه حق لا يقتريه البطلان، لانه المظهر التام لله سبحانه الذى هو حياة لاموتة فيها وحق لا يحوم حوله البطلان لانه تعالى لم ينزله لزمان دون زمان ولا لاناس دون اناس فهو في كل زمن جديد عند كل قوم، غصص الى يوم القيمة^٣.

والعامل الأساسى في خلود حياته عدا ماتقدم من كونه مظهراً ومجلى للحى الذى لا يموت من ناحية مبدئه الفاعلى، هو كونه موافقاً لصميم الفطرة الانسانية وهادياً لها مركزاً اياها من حيث مبدئه القابلى كما وان الفطرة طالبة ومسوقة اياه مشتاقة له بلا تبديل ولا تغيير، كما قال فاطرها تعالى:

.... فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل

لخلق الله ذلك الدين القيم^٤

١- مسند الامام الرضا (ع) ٣٠٧/١، عن الشوحيد ٢٢٣ والامالى ٢٢٦.

٢- مسند الامام الرضا (ع) ٣٠٩/١، عن عيون الاخبار ٢/١٣٠.

٣- مسند الامام الرضا (ع) ٣٠٩/١، عن عيون الاخبار ٢/٨٧.

٤- الروم / ٣٠.

وحيث إنّ الرسالة العامة ضرورية لا محيص عنها، كما قال سبحانه:
ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا^١.

وقال سبحانه:

رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان
الله عزيزا حكيم^٢.

وقال تعالى:

إنا أنزلنا منذر ولكل قوم هاد^٣.

وقال سبحانه:

ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع
آياتك من قبل أن نذل ونغزى^٤.

وقال تعالى:

لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم
البينة، رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة فيها كتب قيمة^٥.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ضرورة النبوة وتداومها، وإن ذلك
سنة الهية لا تجدها تحويلا ولا تبديلا وأنه ليس لشيء من الاستكبار
والاستهزاء وقتل الأنبياء واضطهادهم ونحو ذلك أن يمسك فيضه سبحانه ويمانع
عن إرسال الرسل ويذر الناس على حالهم بلا حجة، كما قال سبحانه:
افنضرب عنكم الذكركم صفحا إن كنتم قوما مسرفين وكم أرسلنا من نبي

١ - الاسراء/١٥.

٢ - الباء/١٦٥.

٣ - الرعد/٧.

٤ - طه/١٣٤.

٥ - البينة/٣ - ١.

في الأولين وماياتهم من نبي الا كانوا به يستهزؤون^١.

وقد ثبت بالنص القطعي انه لاني بعد رسول الله (ص)، ولا كتاب بعد القرآن، وقد ارتحل الرسول العظيم (ص) بشخصه، حيث انه ميت ونحن ميتون وما جعل الله لبشر من قبله الخلد بل جعل كل نفس ذائقة الموت فلوجاز- والحال هذه- تطرق البطلان الى القرآن وتسرب الضلال الى محتواه ونفوذ التحريف الى شىء من معارفه لزم انقراض النبوة من رأس، وانقطاع الرسالة من اصل، مع انها ضرورية التحقق دائما كما مر مسبقا. وهذا هو البرهان العفلى على صيانة القرآن الكريم عن التحريف. ويمكن استنباطه ايضا من بيان مولينا الرضا (ع) في كلمته:

... لانه لم يجعل لزمان دون زمان بل جعل دليل البرهان والحجة على كل انسان لاياته الباطل من بين يديه ولا من خلفه...^٢

فلو امكن زواله بنفسه من ناحية فقدان المقتضى للبقاء بأن لا يكون صالحا له ورافعا لمشاكل الحياة الانسانية ومجيبا للشبهات العلمية وهاديا الى ما هو المقصد الأسنى الالهى، او أمكن زواله من ناحية وجود المانع عن البقاء بالدس والتصحيف والتحريف وما الى ذلك لما كان حبلنا متينا وعروة وثقى سببا افاده (ع) بل كان حبلنا موهونا وعروة مفصومة لامتانة ولا وثاقة لها اما لسبب في دخيلته هي فقد اقتضاء البقاء او لسبب خارج هو وجود المانع عن التخليد. كما وانه لو كان القرآن كذلك - اى لم يكن صالحا للبقاء الابدى، اما لفقد اقتضاء الخلود واما لوجود المانع عن التأييد- لما كان نورا ظاهرا على

١- الزخرف / ٥.

٢- فصلت / ٤٢.

الأديان كلها ولو كره المشركون، بل كان نورا ضعيفا منظمساً بنفسه او مظموسا بعاصفة الشرك وزوبعة الكفر ولو كره المؤمنون والتلازم بين وبطلان التالى كامتناع المقدم واضح حسباً افاده الله المتكلم بهذا الكلام سبحانه حيث قال -عزمن قائل- في غيرمورد:

يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون^١.

يعنى تعالى ان النور الإلهى الذى من اجلى مصاديقه القرآن الكريم كما قال سبحانه:

يا ايها الناس قد جئكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبيناً^٢.

ابدى البقاء بقاء الله، وذلك لوجود اقتضاء الخلود لأن الله الذى انزله يتمه و يمه ويمسكه ويفيض عليه فيض وجوده ويسلب المنع عنه، لأن أفواه الشرك والنفاق والكفر والعناد غير قادرة على اطفائه نهائيا لبالقاء الشبهات واطراح التشابهات ولا بإتيان المثلل وابعاد النظر، لعجزهم عن كل ذلك بتاتا كما قال سبحانه:

قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً^٣.

فاية شبهة او ائى شبيهه اطرحتها المشركون او ائى به كفره الانس والجن

١ - النوبة / ٣٣ - ٣٢.

٢ - النساء / ١٧٤.

٣ - الاسراء / ٨٨.

على بن موسى الرضا عليه السلام والقرآن الحكيم..... ١٣

يلقنه القرآن الكريم ويحطمه ويبقى وحده لا شريك له وبما أن العلة
التامة لبقائه متحققة فسان بقاءه يكون ضروريا وزواله ممتنعا، كما قال
سبحانه:

..... وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد^١.

و حيث انه موجود ممكن وكل ممكن فهو صلة وربط محض وفقر صرف الى
قومه المستقل المحض الغنى -ياكمل معنى كلمته- اذا فلا يكون خلوده بل شأن
من شئونه ذاتيا بل تبعا فيكون دوامه بادامة متكلمه المتجلى للناس فيه وبقائه
بإبقاء الله الذى انزله فلذا قال سبحانه:

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون^٢

اى يكون احتفاظه في عالم الطبيعية بايدى الناس مسانداً اليه سبحانه
لأبالات، كما وأنه محتفظ ايضا في اللوح المحفوظ عن اى تغير طبيعى بحفظ الله
الذى هو الحفيظ بالذات.

والسرفيه هو ان مقتضى التوحيد ان يكون وجود اى شىء وظهوره
مساندا إلى الهوية البحتة المطلقة بمعنى كلمتها حتى عن قيد الاطلاق الذى
يقابل التقييد، ولذلك قال مولينا الرضا(ع) في جواب سؤال ابن الصلت عن
رأيه في القرآن: «كلام الله لا تتجاوزوه...» اى لا تتجاوزوا عن حده الوجودى
ولا تعدوا عنه إذا الكلام قائم بمتكلمه باق ببقائه فالقرآن قائم بمتكلمه ودائم
بدوامه لا بذاته.

١- فصلت / ٤٢ - ٤١.

٢- الحجر/ ٩.

تنبيه:

ان الذى اسلفناه لا يثبت ازيد من ضرورة بقاء القرآن وخلوده واما ازدياد غضاظته ومزيد نضارته فى كل عصر وعند كل جيل بالنشر والدراسة، المراس فهذا مما لا يدلل به ما قدمناه. والذى يدل عليه هو ان رقى العلم وحاجة الناس الى المعارف العميقة يوجب استعدادا خاصا راقيا لاقتراح مسائل غضة لم تكن مسبقة فى الاعصار الغابرة، وبما أن السؤال بلسان الاستعداد يلزم الجواب، ضرورة ان المبدء الجواد «دائم الفضل على البرية» كما افاد سبحانه وآناكم من كل ما سألتموه!

فلا بد وان يكون القرآن الذى هو المرجع الفريد لكافة الناس ابديا دون غيره من الكتب كافلا لجميع ما يحوج اليه الانسان من المسائل والمشاكل. ولما كانت الاسئلة حادثة كانت الاجوبة - بطبيعتها - جديدة ناضرة طرية فالقرآن وان شبه فى بعض النصوص بالشمس والقمر الا انه من الجانب المبحوث عنه كالعين النضاجة والكوثر الفوار الذى ينبع منه كل يوم ماء طرى يظهر بعد ابطائه فكما ان اصل نظام الكون من السموات والارض كذلك بالنسبة اليه سبحانه بمعنى انه يسئله كل موجود فى كل لحظة وآونه ويحييه تعالى بافاضة بعدا فاضة فى كل حين وقد جمع بين هذين الامرين اى السؤال المستمر والجواب المواصل الدائم قوله تعالى:

يسئله من فى السموات والارض كل يوم هو فى شأن^١.

١ - ابراهيم / ٣٤.

٢ - الرحمن / ٢٩.

هكذا - بالذات - المجتمع البشرى فى ساحة القرآن الكريم، اى ان كل
مدارسة وحوار فانها تواجه سؤالاً جديداً ويستوجب - بطبيعته - جواباً طرياً يانعاً
لم يعهد من سابق فينبع ويشتر من كثر القرآن مطلب غض غير مستبق .
وهذا اصل عقلى يؤيده النقل فى غير مورد كما نقرئه فى مثل :
... يا من لا تزيد كثرة العطاء الاجودا وكرما^١ .
فان فضلك لا يفيض وان خزائنك لا تنقص بل تفيض^٢ .

لانه يعنى ازدياد الجود بكل عطية وسخاء لانه لا ينفذ فقط ، والفارق بين
عدم النفاذ بالاعطاء وبين ازدياد الجود والكرم بكل عطاء وافاضة جلى بين
وهذا المعنى المعقول المؤيد بالمنقول هو المستفاد مما نقله مولينا الرضا (ع) عن ابيه
موسى بن جعفر (ع) والحديث كالتالى :

ان رجلا سال ابا عبد الله (ع) ما بال القرآن لا يزداد عند النسر والدراسة الا
غضاضة ؟ فقال : لان الله لم ينرله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو فى
كل زمان جديد وعند كل قوم غض الى يوم القيمة^٣ .

لدلالته على انه غض فى كل عصر لانه باق فحسب كالحجر المتكثل
المتركد بل تابع كالكوثر النضاح فهو كل يوم فى شأن جديد ولا يشغله شأن عن
شأن لانه مظهر تام للمتكلم الذى بصفته كذلك بالذات فلا بد وان يكون مثالا
للظاهر فيه وآية تامة له تعالى فى هذه الجهة .

ثم ان فضيلة هذا الكلام السامى توجب ان تكون ظروفه الزمانية
والمكانية التى تحقق فيها هى ايضا افضل الظروف . ولذلك نقرء عنه انه نزل فى

١- دعاء الافتتاح . ٢- الصحبة السجادية، دعاء وداع شهر رمضان .

٣- مسند الامام الرضا (ع) ٣٠٩/١، عن عيون الاخبار ٨٧/٢ .

ليلة مباركة هي خير من ألف شهر^١ وفي جوار «أول بيت وضع للناس» وكفى في شرف ذلك البيت انتسابه الى الله المنزه عن المكانية المبرأ عن التزمّن وما اليها حيث قال تعالى:

...طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود^٢

وبنفس العلة توجب ان يكون مهبط نزوله قلبا هو خير القلوب لكونه صادقا امينا لا يكذب ما يرى ولا يخون ما اوثمن، كما قال سبحانه: «ما كذب الفؤاد ما رأى»^٣، بلا خصيصة له بما شاهده في المعراج، كما وان لسان غير واحد من الانبياء هو:

... انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون^٤

فلا مجال لكذبه (ص) فيما نزل به الروح الامين على قلبه، كما لا مورد لخيانته، اذا، فجميع ما ينزل في قلبه غيب الهى انبائه الله به وليس هو (ص) على شىء من الغيب بضنين حتى يكتّم ما وحي اليه، كما ان جميع ما ينطق -مما يرجع الى الدين- وحي الهى، فهو (ص) لا يكتّم شيئا مما امر بابلاغه كما لا ينطق بشىء لم يوح اليه، وعليه يكون القرآن وحيا محضا لا يحوم حوله الريب اصلا، لذلك فلا تصح لمارة فيما رأى فواده ونطق لسانه كما قال سبحانه:

افتخارونه على ما يرى^٥،

اذا لشاهد يرى ما لا يراه الغائب، والرسول يسمع ما لا يسمعه غيره فلا يجوز المراء فيما شاهده معاينة وأخبر الناس به وهذا هو الذى يفيدنا كلمة مولينا الرضا (ع):

١ - القدر/ ٣-١.

٢ - البقرة/ ١٢٥.

٣ - النجم/ ١١.

٤ - الشعراء/ ١٠٧.

٥ - الحم/ ١٢.

المراء في كتاب الله كفرًا.

لأن الجدل في الحق المحض بعدما تبين رشده عن غبيّ مقابله كفر له
والحاد عنه، إذ ماذا بعد الحق الا الضلال، فلذا قال (ع): ولا تطلبوا الهدى
في غيره فتضلوا.

تذكرة. ان للقرآن من حيث نفسه علوما جمة لا مجال للبحث عنها هنا، لأن
هدفنا ليس الا التعرض لخصوص ما وصل اليها من النصوص الرضوية. على من
صدع بها وافاضها آلاف السلام والتحية - مع انّ لنا رسالة اخرى حول تلك
العلوم القرآنية قنابها حسب الطاقة الضعيفة والبضاعة المزجاة وعليه فلا وجه
للتكرار، ولذلك نعطف المقال عن هذا المقام الباحث حول القرآن العلمى الى
المقام الباحث حول القرآن العيى بمايلى.

المقام الثانى: فيما يتصل بالقرآن العيى

ان للشئ وجودا اعتباريا ووجودا حقيقيا (اما الاول) فكالوجود اللفظى
والكتبى للاشياء حيث إنه يختلف باختلاف اللغات والامم ونحو ذلك. (واما
الثانى) فكالوجود الخارجى الاعم من الطبيعى والمثالى والعقلى لأنه لا يختلف
باختلاف الألسن والألوان والملل وما الى ذلك ولكل واحد من الوجودين
- الاعتبارى والحقيقى - حكم يخصه كما ان لكل قسم من اقسام النوعين ايضا
حكما يختص به واثرا يترتب عليه والقرآن - ايضا - له وجود لفظى يتلى باللسن
وجود كتبى يضبط فى المصاحف، ولكل منها حكم فقهى وغير فقهى يخصه.
كما وان له ايضا وجودا خارجيا، من فضاء الطبيعة الى عنان عالم العقل يتحقق

كل من ذلك في موطنه وله حكم يخصه.

وحيث ان المراد من الوجود الخارجى هو الوجود الحقيقى المترتب عليه الآثار سواء أكان فى موطن النفس الانسانية كالعلوم والاوصاف النفسانية او فى موطن آخر فلا بد وان يكون الوجود الخارجى لكل شىء بحسبه، مثلا ان للشجر وجودا خارجيا وللعلم ايضا وجودا خارجيا والممايز بينها هو أن العلم أمر خارجى يتحقق فى موطن النفس الانسانية وراء الوجود الذهنى المقابل للوجود الخارجى الفاقد لأثر عيى، وان الشجر امر خارجى متحقق فى الخارج عن النفس.

وبما أن القرآن مشتمل على العقائد والاخلاق والاعمال وكل ذلك متعلق بالانسان بحيث لولا الانسان لما كان للعقيدة وجود ولا للخلق تحقق ولا للعمل بالقرآن حصول ومعنى، وعليه فالوجود الخارجى لمضامين القرآن انما يتحصل فى موطن النفس الانسانية التى هى فى وحدتها كل القوى المدركة والمحركة فن علم بظاهر القرآن وباطنه وعرف تفسيره وتاويله واطلع على متشابهه ومحكمه ورّد المتشابه منه الى محكمه وعمل بعزائمه وفرائضه وبسنته ورخصه وكان مؤمنا بجميع حججه واحكامه معتقدا بأن كله من عند الله فهو القرآن الناطق، اى القرآن التكوينى المتحقق خارجا كالعتره الطاهرة (سلام الله عليهم اجمعين) لأن علوم القرآن ومعارفه قد تحققت فى نفوسهم الشريفة اذا لايان قد خالطهم من القرن حتى القدم، فالانسان الكامل - اى الامام المعصوم (ع) - قرآن ممثل، كما وانه صراط مستقيم وميزان قسط، كل ذلك على منهج الحق لا المجاز.

ويشهد لذلك ما رواه مولىنا الرضا (ع) عن آبائه (ع) عن الحسين بن على (ع) انه قال:

اتفق فى بعض سنى اميرالمومنين (صلوات الله عليه) الجمعة والغدير

فصعد المنبر.. فحمد الله وأثنى عليه حمدا لم يسمع بمثله وأثنى عليه ثناء لم يتوجه اليه غيره فكان مما حفظ من ذلك قوله، الحمد لله الذي جعل الحمد من غير حاجة منه الى حامديه طريقا من طرق الاعتراف بلاهوته وصمدانيته وريانيته... هذا يوم النصوص على اهل الخصوص هذا يوم تبيت هذا يوم ادريس هذا يوم يوشع هذا يوم الأمن المأمون هذا يوم اظهار المصون من المكنون هذا يوم ابراء السرائر الى ان قال (ع): «أفتشدرون الاستكبار ما هو هوترك الطاعة لمن امروا بطاعته والترفع على من ندبوا الى متابعتة والقرآن ينطق من هذا عن كثير ان تدبره متدبر. واعلموا انها المؤمنون ان الله عزوجل قال: «ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص». أتدرون ما سبيل الله ومن سبيله ومن صراط الله ومن طريقه. انا صراط الله الذي من لم يسلكه بطاعة الله فيه هوى به الى النار، وانا سبيله الذي نصبتى للاتباع بعد نبيه، انا قسم الجنة والنار، وانا حجة الله عزوجل على الفجار والابرار، وانا نور الانوار، فانتبهوا من رقدة الغفلة وبادروا بالعمل قبل حلول الاجل... الحديث^١.

نلاحظ انه (ع) عرّف نفسه النفيس بالصراط والسبيل، يعنى (ع) ان الصراط العلمى هو الدين الالهى والصراط العينى هو الامام المعصوم (ع)، وهكذا في غيره من المعارف كالميزان القسط، حسبها ورد في نصوص اخر. والسرفى ذلك هو ان الحركة والمسافة والمتحرك في الحركة الجوهرية متحدة في العين وان كانت حسب تحلل الذهن متغايرة، والانسان وان كان نوعا اخيرا عند الجمهور لكنه نوع متوسط تحته انواع حقيقية كثيرة عند اصحاب الحكمة المتعالية، فالنفس في بادى الامر بمنزلة المادة للكمالات الوجودية فاذا رسخت تلك الكمالات فيها وصارت ملكة تصورت تلك النفس بها وصارت اياها حقيقة بعد ما كانت مستعدة لها واجدة اياها بالقوة.

والانسان سالك بكل وجوده وذاته الى الله سبحانه وكادح اليه فيلاقيه
كما قال سبحانه:

يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فلاقه^١.

فان سار على الصراط المستقيم وانتجاه وصار صراطا مستقيما فهو يلاق
جمال رحمة ربه، كما قال تعالى:

وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة^٢،

وان انحرف عنه وبناه عوجا وصار بنفسه سبيلا غيا ووقودا للنار او حطبا
لها فطبيعي ان يلاق جلال قهر ربه، كما قال سبحانه: حاكيا عن هولاء الذين
ينادون من مكان بعيد^٣. ربنا ابصرنا وسمعنا^٤.
مع انهم يحشرون عُميا. كما قال تعالى:
ونحشرهم يوم القيمة اعمى^٥.

لانهم اعمى عن مشاهدة الجمال والرحمة لاعن شهود الجلال والقهر
(تدبر).

وحيث إنّ القرآن صراط مستقيم يسير عليه السالك فاذا تلاه حق تلاوته
وآمن بجميع ما فيه وعرف ذلك كله وعمل به ولم يبخس منه شيئا يصير هو بذاته
صراطا مستقيما وميزانا قسطا يوزن بعقيدته عقائد الناس وبخلقه العظيم اخلاق
الناس وباعماله الصالحة اعمال الناس، فهو القرآن الممثل بجميع ما فيه
من المعارف فيصير قرانا عينيا تجاه القرآن العلمي ولا ينفك عنه، كمال يفترق
القرآن العلمي عنه ابدا. فالمعية - المتسالم عليها بين القرآن والعترة - تكون حقيقة

١- الانشقاق / ٦.

٢- القيامة / ٢٣ - ٢٢.

٤- فصلت / ٤٤.

٥- طه / ١٢٤.

٣- السجدة / ١٢.

ذات مراتب حذاء مراتب الوجود الخارجى، فى عالم الطبيعة بنحو تقضيته الكثرة العينية ويستلزمها. وفى عالم المثال ايضا على كيفية مقتضاها، لكن بلا تراحم مادى وتطارد عينية وفى عالم العقل والتجرد التام على نحو يقتضى الوحدة العينية ويلازمها وان كان التغاير التحليلى منحفظا مادام هناك ذهن ومفهوم وتحليل مفهومي او ماهوي.

ولعله الى ذلك يوعز الامام الصادق (ع) حين سئله المفضل بن عمر عن الصراط فقال (ع):

هو الطريق الى معرفة الله - عز وجل - وهما صراطان صراط فى الدنيا وصراط فى الآخرة واما الصراط الذى فى الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة من عرفه فى الدنيا واقتدى بهداه مرعى الصراط الذى هو جسر جهنم فى الآخرة ومن لم يعرفه فى الدنيا زلت قدمه عن الصراط فى الآخرة فتردى فى نار جهنم^١.

وبما ان القرآن كلام الهى مصون عن تعرض الشيطان فى شئ منه بالزيادة او النقص او التصحيف او التحريف على ما مر مسبقا، وعليه فاذا تكلم السالك الى الله به وباشره بروحه وجسمه قلبا وقالبا ولم ينفك عن هداية ولم يعطف هداية على هوى نفسه بل عاكسه وعطف هواه على هداية يصير هو بنفسه قرآنا ممتلا مصونا عن وسوسة الشيطان وترادده فلا يطمع فيه بالضلالة ولا بالغواية ولا باتباع الهوى ولا بالزيف والطفى، وهذا هو المستفاد مما رواه مولانا الرضا (ع) عن آباءه المعصومين (ع) انه قال النبى (ص) لعل (ع):

ما سلكت طريقا ولا فتجا الا سلك الشيطان غير طريقك وفتجت^٢.

وحيث ان اهتداء الله سبحانه بذاته وهدايته لغيره من اوصافه الفعلية

١ - معانى الاخبار باب معنى الصراط.

٢ - عيون اخبار الرضا (ع) ١/٦٤.

وكل صفة فعلية فإنما ينتزع من مقام الفعل المستند الى الذات لا من نفس الذات فلا بد للهداية - اذاً - من مظهر خارجي، فكما ان القرآن الكريم مظهر لله سبحانه في هذين الاسمين - اى كونه مهتديا بنفسه وهاديا لغيره - كذلك الانسان الكامل المعصوم (ع) العالم به والعامل بمقتضاء مظهر لله سبحانه في دينك الاسمين وهذا هو الفاد من حديث مولينا الرضا (ع) في الامامة حيث قال (ع):

ان الانبياء والائمة (صلوات الله عليهم) يوفقههم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتاه غيرهم فيكون علمهم فوق علم اهل الزمان في قوله تعالى: فمن يهدي الى الحق احق ان يتبع آمن لا يهتدي الا ان يهدي فالحكم كيف تحكمون^١.

يعنى ان الانسان المتكامل المعصوم (ع) مهتد بنفسه لاجابة له الى هداية غيره من اتى موجود إمكانى آخر، وذلك لانه مظهر تام لله الذي فعله هو نفس الصراط المستقيم، كما قال:

... ان رقى على صراط مستقيم^٢.

فلا ينتزع الاهتداء الا من متن فعله الخارجى بلا حاجة الى هداية غيره فهو الحرى بان يكون هاديا لغيره، فمن عدا المعصوم (ع) بحاجة في هداه اليه كما وان جميع الكتب التى دونتها ايدي الناس للهداية الى الحق بحاجة ماسة الى كتاب الله سبحانه لانه المظهر لله، المهتدى بالذات، الهادى لما سواه. فالقرآن العيني كالقرآن العلمى - ذاتاً - مظهر له تعالى في هذين الاسمين. والسر هو ما تمسبنا من أن الانسان الكامل قرآن مثل، كما ان القرآن انسان كامل

١ - يونس / ٣٥.

٢ - هود / ٥٦.

مدون.

وبما أنّ الشفاء ومقابلته من الاوصاف الفعلية لله سبحانه وينتزع من مقام فعله لامن الذات لتعالیه عن ذلك فمن الممكن ان يكون فعل واحد خارجي نوراً لقوم وعمى لآخرين او شفاء لطائفة وسقماً لآخرى، بلا محذور في الجمع بينهما، لتعدد الاضافة. لذلك فقد ورد في حق القرآن العلمي انه نور لبعض وعمى لبعض آخر وشفاء لقوم ومرضى وبوار لآخرين، كما قال سبحانه: ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً^١.

وقال تعالى:

... قل هولاء الذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقروهم
عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد^٢.

وهكذا ورد في حق القرآن العيني -اي الانسان الكامل المعصوم- أنه مظهر جمال الله لقوم ومظهر جلاله لقوم آخرين، كما قال مولينا الرضا (ع):

... الامام المطهر من الذنوب والمبرأ عن العيوب المخصوص بالعلم الموسوم
بالحلم نظام الدين وعز المسلمين وغيظ الكافرين وبوار الكافرين^٣.

وقد سبق البرهنة على ذلك وهو: ان الانسان الكامل هو الوجود الخارجي للقرآن حقيقةً فجميع ما يترتب على القرآن العلمي يترتب على القرآن العيني بلا ارتياب وقد مضى نبذة من ذلك، وسياق جانب منه.

فمن تلك الاثار المشتركة بين القرآن العلمي والعيني هو: ان القرآن العلمي مظهر علمي لله الذي لا شريك له وليس كمثله شيء. لذلك فانه

١- الاسراء / ٨٢.

٢- فصلت / ٤٤.

٣- مسند الإمام الرضا (ع) ١/ ٩٨.

لا يعادله شيء ولا يتمكن من الاتيان بمثيله حتى وان اجتمع الانس والجن وكان بعضهم مظاهراً لبعض ولا ينال كنهه لباب الناس كما هو المستفاد من غير موضع من القرآن في شان نفسه، كذلك القرآن العيني، اي الانسان الكامل المعصوم (ع) فانه مظهر عيني لله الذي ليس كمثلته شيء ولا شريك له في ملكه ولا شبيه له في خلقه، فلذا لا يشاركه احد ولا يكون له كفوف في صعيد الموجودات الامكانية من آحاد الناس. كما افاده مولينا الرضا (ع) بقوله :

... 'الامام واحد دهره لا يدانيه احد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب بل اختصاص من المفضل الوهاب فمن ذا الذي يبلغ معرفة الامام او يمكنه اختياره هيات هيات ضلت العقول وتاهت الخلوم وحارت الالباب وخست العيون وتصاغرت العظاء وتغيرت الحكماء وتقاصرت الخلاء وحصرت الخطباء وجهلت الالباء وكلت الشعراء وعجزت الادباء وعيت البلغاء عن وصف شأن من شأنه او فضيلة من فضائله واقرت بالعجز والتقصير وكيف يوصف بكله او ينعت بكنهه او يفهم شيء من أمره او يوجد من يقوم مقامه ويغني غناه = لا كيف واتى وهو بحيث النجم من ابدى المتناولين ووصف الواصفين فاين الاختيار من هذا واين العقول عن هذا واين يوجد مثل هذا'.

فالذي يفيدنا هذا البيان الجامع عجز الناس بكافتهم عن معرفة مكتنة الانسان الكامل المعصوم (ع) وعجزهم نهائياً عن اختياره ونصبه وانتخابه وتوكيله حتى تكون الامامة بالوكالة دون الولاية. بل الامام المعصوم (ع) بمنزلة النجم الفائق الذي لا تناوشه ايدي المتناولين لكي يرشحوه وينصبوه لهم سراجاً منيراً. بل الله سبحانه هو الذي ينصب بالذات الامام المعصوم (ع) لهم سراجاً منيراً وهذه الميزات والمؤهلات كما مر مسبقاً مشتركة بين القرآنيين

العلمى والعينى المعبر عنها بالثقلين.

ومنها - اى من تلك الآثار المشتركة بينهما-: أن انكار القرآن العلمى والاعراض عنه والتعرض له جاهلية جهلاء مبتعد عن نطاق العقل والعدل كما اوعز اليه سبحانه:

أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون^١.

وقال تعالى:

اذجعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينه على رسوله وعلى المؤمنين والنمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها واهلها وكان الله بكل شئ عليم^٢.

اذ العقل هو ما يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان فما لا يعبد به الرحمن فليس بعقل بل جهل وسفاهة كما قال -عزمن قائل-: ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه. فالحيوة المفتقدة لرشد العقل جهالة وسفالة سواء اصطحبها الرقى الصناعى كما هو المشهود المألوف فى الملل الراقية فى الصناعة الطغاة الظلامه دولة اولم يكونوا كذلك كما فى الملل التابعة لهم القائلة يوم القيمة:

انا اطعننا سادتنا وكبرائنا فاضلونا السبيلا^٣.

فالمنكر للقرآن والمعرض عنه والمتعرض له جاهل سفيه سافل وحيوته جاهلية، يحمل فى قلبه تعصبا باطلا جاهليا ولا مجال لانزال السكينة والطمأنينة فيه كما لا مجال لاعطاء التقوى مع الطغوى اذ التقوى عبودية حقة وتذلل فى

١ - المائدة / ٥٠.

٢ - الفتح / ٢٦.

٣ - الاحزاب / ٦٧.

ساحة قدس الله سبحانه والطغوى ربوبية باطلة وتمرد واستكبار في قبال الله تعالى كمتقدم نقله عن مولينا علىّ الرضا (ع) عن جده الامام المرتضى (ع) فانه قال :

أفتدرون الاستكبار ماهو؟ هونرك الطاعة لمن امروا بطاعته والترفع على من ندنوا الى متابعتة^١.

فحيوة منكر القرآن العلمى والمعرض عنه جاهلية جهلاء كذلك حبة منكر القرآن العيى والمعرض عنه جاهلية. كما نقل محمد بن اسماعيل عن مولينا الرضا (ع) انه قال :

من مات وليس له امام مات ميتة جاهلية، فقلت له: كل من مات وليس له امام مات ميتة جاهلية؟ قال، قال: نعم، والواقف كافر والناسب مشرك^٢.

فان هذا البياك وان كان يفيدنا ويتحفنا بأن ذلك الموت هوالموت الجاهلى، بيد ان الموت لما كان على وزان الحيوه اذ الناس كما يعيشون يموتون فاذا كان الموت جاهلية يكشف عن كون الحيوه كانت جاهلية تطورت بالميتة الجاهلية، اذ الحيوه العقلية تستعقب موتا عقليا لان الذى ينتقل من الدنيا الى روضة من رياض الجنة فهو عاقل قطعاً لأنه عبد ربه واكتسب جنته وكل من كان كذلك فهو عاقل اذ العقل ما يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان. وزبدة المخض: ان الموت الجاهلى انما هو بظهور الحياه الجاهلية، فاذا كان موت منكر الامام المعصوم (ع) ميتة جاهلية يلزمه ان تكون حياته ايضا كذلك ليس الا. والسبب فيه ان القرآن بوجوده العلمى او العيى حيوه طوى عقلية كما افاده

١- مسند الامام الرضا (ع) ٢/ ٢٥.

٢- مسند الامام الرضا (ع) ١/ ٩١، عن كمال الدين ٦٦٨ .

سبحانه بقوله:

... يا ايها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم^١...

و بقوله:

لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين^٢.

... والقرآن العيني لا ينفك عن القرآن العلمى فى اى وصف من الاوصاف الكمالية الوجودية اصلا، لان دعوة القرآن العيني هو دعوة القرآن العلمى بالذات، لذلك افرد الضمير فى قوله تعالى: ... لله وللرسول اذا دعاكم ... ولم يثن، اذا الرسول الذى هو من اظهر مصاديق القرآن العيني لا يدعو الا بما دعا الله الناس اليه فاذا كان القرآن بوجوده العلمى او العيني ممثلا للحياة الطيبة العقلية فن فقد - اى واحد منها - فقد فقدناها وصار ميتا جاهليا يؤخذ بما عمل فى الجاهلية والاسلام اى لا يغفر شىء من ذنبه، سواء ما تقدم منه وما تأخر. كما هو المستفاد مما رواه مولينا الرضا (ع) عن آبائه (ع) عن امير المؤمنين (ع) انه قال:

قال رسول الله (ص): من مات وليس له امام من ولدى مات ميتة الجاهلية يؤخذ بما عمل فى الجاهلية والاسلام^٣.

حيث انه لم يعقل ولم يثب ولم يسلم حتى يجب الاسلام ما قبله ويعفو الله عما سلف منه، بل اذا بعثت القبور علمت نفس هولاء الجهلاء ما قدمت من

١- الافال / ٢٤.

٢- يس / ٧٠.

٣- مسند الإمام الرضا (ع) ٩١/١، عن كنز الفوائد ١٥١.

ذنب وما اخرت، ومن اعظم تلك الذنوب انكار الامام (ع) ومن تلك الاثار المشتركة بين القرآن العلمى والعينى هو: ان القرآن العلمى مظهر تام للاسم المهيمن، لأن المهيمن من الاسماء الحسنى لله سبحانه ومن الاوصاف الكمالية للقرآن الكريم. قال سبحانه:

... الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن^١

وقال تعالى:

وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه^٢.

والهيمنة الوجودية انما هو يكون المهيمن واجدا لجميع الكمالات التى هى لما فى حوزة هيئته وسيطرته ونفوذه، كما ان الله سبحانه كذلك بالذات، مقيساً الى جميع ماسواه. والقرآن الكريم ايضا مسيطر بالقياس الى جميع الكتب السماوية، اذ له عدى التصديق والتأييد هيمنة على تلك الكتب وحیطة على المعارف السامية التى لم يحتوت تلك الكتب عليها، بحيث ليس فى وسع الانسان المتكامل النيل الى مرتبة وجودية بالعلم الا وقد اشتمل عليها القرآن، والا لما كان خاتم الكتب ولما كان خالدا بجيله ابدى، اذ فرض ان هناك مقاما وجوديا لا يهدى اليه القرآن لعدم احتوائه فيلزم اتيان كتاب آخر وهو محال بعد افتراض ختم الكتب بالقرآن، اذاً فالقرآن العلمى مظهر تام لله سبحانه من حيث كونه مهيمنا على غيره من الكتب، كما وان للاسم المهيمن ايضا هيمنة على غيره من الاسماء الجزئية المحاطة به لان بعض الاسماء الحسنى محيط ببعض

١- الحشر/٢٣.

٢- المائدة/٤٨.

حتى ينتهى الى ام الاسماء المحيط بها وهو الاسم الله جل جلاله وان احتمل بعض اصحاب المعرفة ان الاسم الرحمن ايضا كذلك لقوله تعالى:
قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن اياما تدعوا فله الاسماء الحسنی^١.

يعنى فلكل واحد من هذين الاسمين اللذين احدهما هو الله والآخر هو الرحمن سائر الاسماء الحسنی الجزئية مقيسا اليها وان كان بعضها بالنسبة الى بعضها الآخر كلياً محيطاً. ولعله لذلك قال الفاضل الهندي (ره) في تقدمته على كشف اللثام: «... فالحققون على ان الرحمن ايضا اسم للذات كالله وان لفظه هنا (بسم الله الرحمن الرحيم) بدل من الله ولذا قدم على الرحيم لكونه صفة فاندفع السؤال عن جهة تقديمه مع انه ابلغ» (انتهى)^٢.

ولبعض اهل التحقيق مقال آخر، فأنه بعد نقل كون الرحمن جامعاً كالله، قال: هذا وان كان حقاً من وجه، لكن كون الرحمن تحت حیطة الاسم الله يقضى بتغايير المرتبتين ولولا وجه المغايرة بينهما ما كان تابعا للاسم الله في «بسم الله الرحمن الرحيم». ومهما كان الامر فان الاسم المهيمن له احاطة وجودية على غير واحد من الاسماء الكائنة تحت حیطته والقرآن العلمى ايضا لكونه مظهراً لذلك الاسم فله احاطة علمية بغيره من الكتب السماوية فضلا عن غيرها، وهكذا القرآن العینى المحاذى له، فان له هيمنة على غيره من الكتب العينية، كالانبياء والاوصياء الماضين (ع) كما وان له سيطرة وحیطة علمية بمعارف جميع تلك الكتب السماوية، حيث قال مولينا الرضا (ع):

يا نوفلى تحب ان تعلم متى يندم المامون؟ قلت: نعم، قال: اذا سمع

١- الاسراء/ ١١٠.

٢- كشف اللثام، ٥/١.

احتجاجي على اهل التوراة بتوراتهم وعلى اهل الانجيل باجيلهم وعلى اهل الزبور بزبورهم وعلى الصابئين بعبرانيتهم وعلى الهرايذة بفارسيتهم وعلى اهل الروم بروميتهم وعلى اصحاب المقالات بلغاتهم فاذا قطعت كل صنف ودحضت حجته وترك مقالته ورجع الى قولي علم المأمون ان الموضوع الذي هو بسبيله ليس هو بمستحق له فعند ذلك تكون الندامة منه ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم^١.

وما يؤيد ذلك اقتداء الانبياء (ع) بخاتمهم (ص) ليلة الاسراء في المسجد الاقصى وكذا اقتداء الاولياء بخاتمهم (ع) ببقية الله - ارواحنا فداء - عند ظهوره حيث ان ذلك يشعر بكون رتبة كل قرآن وكتاب عيني على وزان رتبة كل قرآن وكتاب علمي، فكما انهما في اصل الوجود متكافئان لا ينفك احدهما عن الاخر كذلك في رتبة الوجود ايضا لا يفترق احدهما عن الاخر فعند ثبوت وصف كمالى لاحدهما تطابقيا يحكم بشبوت ذلك الوصف للاخر التزاميا. مثلا عند ثبوت تعدد انحاء الدعوة للقرآن العلمي وانه يدعو الناس الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي احسن يحزر بان انحاء دعوة القرآن العيني ايضا كذلك، وكما ان القرآن العلمي يهدي للتي هي اقوم هكذا القرآن العيني، - اي الامام المعصوم (ع) - فانه يهدي للطريقة المثلى التي هي اقوم الطرق والمعروفة الوثقى التي هي اوثق العرى وهذا هو الذي يعطيه كلمة مولينا الرضا (ع):

... ان الامامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين ان الامامة اسّ الاسلام النامي وفرعه السامي... الامام يحل حلال الله وعمر حرامه ويقم حدود الله ويذب عن دين الله ويدعو الى سبيل ربه بالحكمة

والموعظة الحسنة والحجة البالغة^١.

وحيث ان حقيقة القرآن العيني - اى الانسان الكامل المعصوم (ع) - هي حقيقة القرآن العلمى بلا انفكاك احدهما عن الآخر فلذا تفسر الامانة المعروضة على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها... (تارة) بالولاية (واخرى) بالقرآن، وكما ورد فى شان القرآن العلمى بانه: لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشما متصدعا من خشية الله^٢.

كذلك قال مولينا على المرتضى (عليه افضل صلوات المصلين) عند بلوغ خبر ارتحال سهل بن حنيف الانصارى اليه: لواحيى جبل لتهافت^٣.

يعنى كما ان الجبل لا يطيق لحمل القرآن العلمى كذلك لا يقتدر على احتمال الولاية للقرآن العينى، وكفى له من اشباه ونظائر فى النصوص الدالة على ان الانسان الكامل المعصوم (ع) - اى الامام - قرآن عينى كما وان القرآن امام علمى، فلذلك يهتف كل واحد منها الناس الى صاحبه. يعنى ان القرآن يدعوهم الى امامة الامام واطاعته كما قال سبحانه:

اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم^٤.
وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا^٥

١ - مسد الامام الرضا (ع) ٩٨/١، عن الكافى ١٩٨/١.

٢ - الحشر/٢١.

٣ - الغرر والدرر لآمدى ١١٤/٥، ذان سرحد الشريف الرضى قده وكذا المحقق الخونسارى ره بوجه آخر، نهج البلاغة، قصار الحكم ١١١.

٤ - النساء/٥٩.

٥ - الحشر/٧.

وانما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة
وهم راكعون^١.

والامام ايضا بالذات- يدعوهم الى القرآن كما اوعز اليه مولينا الرضا (ع)
بقوله:

... لا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوا^٢.

وبما ان الامام (ع) قرآن ممثل يوجد في بين كلماته محكمات ومتشابهات
كما قال مولينا الرضا (ع):

من ركة متشابه القرآن الى محكمه هدى الى طريق مستقيم، ثم قال (ع): إن
في اخبارنا متشابهات كمتشابه القرآن ومحكمات كمتشابه القرآن فردوا متشابهها الى
محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا^٣.

وحيث ان المحكمات هي ام الكتاب وبها ترتفع المتشابهات وتنمو وتخرج
عن حد التشابه وتندرج في حوزة المحكمات فعلى المتدبر في القرآن والحديث عرفان
المحكم من كل منها وعرفان المتشابه حتى يعرف كيفية واسلوب رفع التشابه في
ضوء المحكم.

ومن تلك الآثار المشتركة بين القرآن العلمي والقرآن العيني هو: ان كل
واحد منها نور الهى منتزل من لدى الله الى عالم الطبيعة لم يتخلله الظلام اصلا
لا في حدوثه ولا في بقاءه ولم تظلم مرتبة من مراتب نزوله فلم
يتطرق الجهل او الابهام او التعمية او الغفلة او النسيان وما الى ذلك مما يناق
نورانية القرآن العلمي والعيني في حريم شئ منها في آية درجة من درجاتها.

١- المائدة/٥٥.

٢- مستند الامام الرضا (ع) ٣٠٧/١، عن التوحيد ٢٢٣ والامالى ٢٢٦.

٣- مستند الامام الرضا (ع) ٣٠٨، عن عيون الاخبار ٢٩٠/١.

(أما) في القرآن العلمي فلما مرمسبقا من قوله تعالى:

يا أيها الناس قد جئكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً^١.

لأنه يدل على أن الذي نزل من عند الله هو برهان لا خفاء فيه ونور لا ظلام له أصلاً، ولا مجال لتطرق شيء من ذلك إليه في مرتبة من مراتب تنزلاته لقوله تعالى:

... في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة^٢

لدلالته على كرامة القرآن العلمي في جميع مراتب تنزلاته عن أي نقص وطهارته عن أي رجس ونزاهته عن أي رجز و...

(وأما) في القرآن العيني- أي الإنسان الكامل المعصوم (ع)- فلقول مولينا الرضا (ع) وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة فسأله بعضهم فقال له:

يا بن رسول الله بأي شيء تصح الإمامة لمدعيها؟ قال (ع): بالنص والدليل. قال له: فدلالة الإمام فيما هي؟ قال: في العلم واستجابة الدعوة، قال: فما وجه اخباركم بما يكون؟ قال (ع): ذلك بعهد معهود اليينا من رسول الله (ص)، قال فما وجه اخباركم بما في قلوب الناس؟ قال (ع) له: أما بلغك قول الرسول (ص) اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله. قال: بلى قال (ع): وما من مؤمن الا وله فراسة بنور الله على قدر ايمانه ومبلغ استبصاره وعلمه وقد جمع الله للائمة منا ما فرقه في جميع المؤمنين. وقال عز وجل في محكم كتابه: ان في ذلك لايات للمتوسمين، فاول المتوسمين رسول الله (ص) ثم امير المؤمنين (ع) من بعده ثم الحسن والحسين والائمة من ولد الحسين (ع) الى يوم القيمة. قال: فنظر اليه المأمون فقال له: يا ابا الحسن زدنا مما جعل الله لكم

١- النساء/ ١٧٤.

٢- عبس/ ١٦- ١٣.

اهل البيت. فقال الرضا (ع): ان الله عزوجل قد ايدنا بروح منه مقدسة مظهرة ليست بملك لم تكن مع احد من مضي الا مع رسول الله (ص)، وهي مع الائمة منا تسددهم وتوفقهم وهو عمود من نور بيننا وبين الله عزوجل^١.

حيث يدلنا على أن الامامة محفوفة بعمود من نور دائم فائض متصل من الله سبحانه إلى عالم الطبيعة الذي يعيش فيه الامام (ع) بوجوده العنصري، فجميع ما يظهر او يصدر من الله ويستنزى إلى عالم الطبيعة في قوس النزول معلوم للامام (ع)، وهكذا جميع ما يصعد اليه من الكلم الطيب، وجميع ما يرفعه اليه من العمل الصالح من ائمة معتقدين وائمة عاملين في قوس الصعود مشهود له (ع) اذ العمود النورى عبارة عن وصف كمالى وجودى مقدس عن شوب المادة منزّه عن مزج الحجاب والغيبه وما الى ذلك، والامام (ع) متصف بذلك الوصف الوجودى من لدى الله سبحانه الى الطبيعة نزولا ومنها اليه تعالى صعودا فلا يختفى عليه شئى فى الارض ولا فى السماء كل ذلك فى اطار العالم الامكانى وبإذن الله الذى ليس كمثله شئى.

وحيث ان حلقات النظام الفاعلى نزولا وكذا حلقات النظام الغائى صعوداً مترتبة وان بعضها فوق بعض فالتالى يستفيض من المتلو وهو مفيض عليه فلاغرو فى حاجة بعض مراتب وجود الامام (ع) الى بعضها الآخر، كما وان الأمر فى نفس العمود النورى ايضاً كذلك فلولم يعلم الامام (ع) بوجوده العنصرى امراً فان بامكانه ان يستفيدة من باطن وجوده كما فى غيره (ع) من المجردات المستكفية بباطن ذاتها، وليس الامام (ع) منحصر فى اطار وجوده العنصرى حتى يوجب جهله بوجوده العنصرى جهله باطلاقه، لان العمود

١- مسند الامام الرضا (ع) ١٣٣/٢، عن عيون الأخبار ٨٧/٢.

النورى ايضا كذلك لانه رغم كونه نورا بتمام مراتبه لكنه - فى ذات الوقت - غير خلى عن شوب الجهل اذ مراتبه النازلة جاهلة بما فى مراتبه العالية، وان كان ذلك العمود النورى فى متنته معصوما عن الخطاء ومصونا عن الجهل والغية وما الى ذلك . وليس ذلك التسديد والتوفيق على صفة تزول حيناً وتعود حيناً آخر، بل على نحو الملكة الحاضرة دائماً، فلا حجاب بين الامام (ع) وبين الله سبحانه، اذ لا حجاب بين ذلك العمود النورى وبين منوره الذى هو الله سبحانه، فلا حجاب - ايضاً - بين الامام (ع) وبين العالم الخارج، لان ذلك العمود النورى قد ابان له كل شئ، وبه يضيئ له كل شئ باذن الله، وهذا العمود النورى يكون الغيب مشهوداً له (ع).

ومما يشهد لذلك انه لما قال مولينا الرضا (ع) لابن هذاب:

ان انا اخبرتكَ انك ستبتلى فى هذه الايام بذى رحم لك لكنك مصدقاً لى؟ قال: لا، فان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى. قال (ع): أوليس انه تعالى يقول: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول»، فرسول الله مرتضى ونحن ورثة ذلك الرسول الذى اخلفه الله على ما يشاء من غيبه فعل ما كان وما يكون الى يوم القيمة^١.

لان انقسام الموجود الى الغيب والشهادة انقسام نسبي لانفسى لان الموجود المجرد الغائب عن عالم الطبيعة فهو مشهود لنفسه ولعلاء العالية. ومعنى كون الله تعالى عالماً بالغيب والشهادة هو الارشاد الى نفي الغيب مقيساً اليه تعالى اذ العلم عبارة عن الشهود وهو يباين الغيب فليس معناه ان هناك غيباً وهو مع انه غيب معلوم لله سبحانه، فاذا كان العمود النورى المرتبط بالله العالم بالغيب والشهادة، مع الامام المعصوم (ع) يسدده ويوقفه فهو ايضاً

يعلم الغيب لكن لا بالذات والاصالة بل بالعرض والتبع في خصوص ما ظهر من الله في العالم دون ما استأثره الله لنفسه من الغيب المحض الذي لم يظهر ولن يظهر، لخروجه عن العالم كخروجه عن موضوع البحث. وإلى هذا العمود النوري أشار مولينا الرضا (ع) في قوله:

الاثمة علماء خلّاء صادقون مفهّمون محدّثون^١

وقوله (ع):

لنا عين لا تشبه عين الناس وفيها نور ليس للشيطان فيها نصيب^٢.

وليس المراد من العين هنا هي التي ترى الاجسام وتحس الالوان، بل هي العين التي في الصدور والتي ترى الآيات الالهية وما فوقها. كما قال امير المؤمنين (ع):

لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بجقائق الايمان^٣.

وهذه العين مختصة للمؤمنين على ما لهم من الدرجات دون غيرهم، لانهم عمى لا يبصرون، كما قال سبحانه:

فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

والسر في قداسة تلك العين عن الشيطان هو اخلاصها، لان تلك العين هي القلوب الواهية المحببة اليه المخلصة له، وقد اعترف الشيطان بعجزه النهائي عن اغواء المخلصين واضلالهم واحتناكهم وما الى ذلك من شروره ووساوسه

١ - مسند الامام الرضا (ع) ١/١٠٢، عن ابي الطوسي ٢٥٠.

٢ - مسند الامام الرضا (ع) ١/١٠٣، عن ابي الطوسي ٢٥٠.

٣ - نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩. ٤١ - الحج/٤٦.

ودسائسه وحبائله واشراكه، لان اقصى مقامه هو التجرد الخيالى والوهمى ولا مجال له فى التجرد العقلى التام، اذا فهو يعلم ما يريد من المخلص حتى يسول له ويدس فيما يرومه كما وان جميع ذنائبه وزخارفه معرض عنها للعبد الذى استخلصه الله لنفسه فلا نصيب للشيطان فى علمه وعمله. وهذا العمود النورى المسدد والموفق يعلم الامام المعصوم (ع) ما فى الصدور من الايمان والنفاق لان الباطن قد اضاء له بذلك النور واصبح كالظاهرة لا حجاب له، فلذا كتب مولينا الرضا (ع) رسالة الى بعض اصحابه. جاء فيها:

انا نعرف الرجل اذا رأينا بحقيقة الايمان وبحقيقة النفاق^١.

لان قلوب العباد كقواهم مكشوفة لمن له عمود نورى من تخوم عالم الطبيعة الى عنان عالم الغيب فلا استتار هناك ... ويشهد له مارواه حمزة بن عبد المطلب بن عبد الله الجعفى قال:

دخلت على الرضا (ع) ومعى صحيفة او قرطاس فيه عن جعفر (ع) ان الدنيا مثلت لصاحب هذا الامر فى مثل فلق الجوز فقال يا حمزة ذا والله حق فانقلوه الى اديم^٢.

والذى يفيدنا هذا الحديث الشريف هو ان الدنيا وان كانت بالنسبة الى غير الامام كالجوز الذى لم يفلق فلا يعلم ما فى جوفه وباطنته، الا انها بالنسبة اليه (ع) كالجوز المفلوق الذى فلقه فالق الحب والنوى فيعلم ما فى جوفه كما يعلم قشره وما فى ظاهره من الخطوط والنقوش وما الى ذلك. فلذا لا يمكن للدنيا ان تغر الامام (ع) رغم كونها غرورا للناس. كما وان المستفاد من هذا

١- عيون اخبار الرضا (ع) ٢/٢٢٧.

٢- مسند الامام الرضا (ع) ١/١٠٩، عن بصائر الدرجات ٤٠٨.

البيان النورى هو الاهتمام بالتعلم (اولا) و كتابة العلم (ثانيا) وضبط
 خصوص مايتصل الى الامامة وعلم الامام وحيطة علمه (ع) بجميع الدنيا وعدم
 احتجاب شىء منها عن علمه (ع) (ثالثا) وهذا من غرر الاحاديث الباعثة
 على التعلم وتدوين الحديث ومعرفة شأن الامام (ع)، لظهوره فى اهتمام مولينا
 'الرضا' (ع) بضبط الحديث فى اديم حتى يصاب عن الخرق والاندراس، لان الاديم
 احفظ من القرطاس الذى يسارع اليه البلى ويبادر اليه الدروس ويستبق اليه
 العفا ويقترب منه الانمحاء.

فاذا تبين لنا ان بين الامام المعصوم (ع) وبين الله سبحانه عمودا من نور
 يتضح بجلاء ما روى عن مولينا ابى جعفر الباقر (ع):

... ما احد اكذب على الله وعلى رسوله ممن كذبنا اهل البيت وكذب
 علينا لانه اذا كذبنا او كذب علينا فقد كذب الله ورسوله لانا انما نحدث عن
 الله تبارك وتعالى وعن رسوله...^١

فكما ان الامام (ع) لاجابة له فى نقل شىء عن رسول الله (ص) الى راوٍ
 وناقل، بل يكون مرسله خيرا من مسند غيره للارتباط النورى بينهما، كذلك
 لاجابة للامام المعصوم (ع) فى نقل شىء عن الله سبحانه فيما لا يتصل الى
 التشريع وبيان الاحكام العملية الى رواية راو او نقل حاك .
 ويشهد له ما رواه المفيد (ره) عن سالم بن ابى حفصة، قال:

لما هلك ابو جعفر محمد بن على الباقر (ع) قلت لأصحابي: انتظرونى حتى
 ادخل على ابى عبد الله جعفر بن محمد (ع) فاعزبه فدخلت عليه فعزبه ثم قلت
 انا لله وانا اليه راجعون ذهب والله من كان يقول: قال رسول الله (ص) فلا يسأل
 عمن بينه وبين رسول الله (ص) لا والله لا يرى مثله ابدا قال فسكت

ابوعبدالله (ع) ساعة ثم قال: قال الله عز وجل: ان من عبادى من يتصدق بتق
تمرّة فاربيها له فيها كما يرى احدكم فلوّة حتى اجعلها له مثل احد^١.

والسبب فى ذلك هو ان الامام المعصوم يسمع ما يسمعه رسول الله (ص)
ويرى ما يراه الا انه لس بنى كما قاله رسول الله (ص) لعل (ع) حين قال (ع):
ولقد سمعت رثة الشيطان حين نزل الوحي عليه (ص) فقلنا يا رسول
الله (ص) ماهذه الرثة فقال (ص) هذا الشيطان فدائس من عبادته انك تسمع
ما اسمع وترى ما ارى الا انك لست بنى ولكنك لوزير وانك لعل خير...^٢

وحصيلة الكلام: ان القرآن العيني - اى الانسان الكامل المعصوم (ع) -
كالقرآن العلمى متشور بعمود نورى بينه وبين الله سبحانه وتعالى فهو يرى
مالا يراه غيره، بعين لا تشبه عين غيره ليس للشيطان فيها نصيب ولا تغفل تلك
العين ولا تجهل ولا تاخذها سنة ولا نوم، لا بالذات والاصالة بل بالعرض والتبع،
لكون تلك العين النورية مظهراً لله الذى لا تاخذه سنة ولا نوم بالذات. ولذلك
يكون منام الامام المعصوم (ع) ويقظته واحدة. وهذا ما يعطيه كلمة مولينا
الرضا (ع) لحسن بن على بن بنت اليباس ابتداء:

ان ابي كان عندي البارحة قلت: ابوك؟ قال (ع): ابي، قلت: ابوك؟
قال (ع): ابي، قلت: ابوك؟ قال: فى المنام ان جعفرا (ع) كان يحى الى ابي فيقول
يا بنى افعل كذا يا بنى افعل كذا، قال: فدخلت عليه بعد ذلك فقال (ع):
يا حسن ان منامنا ويقظتنا واحدة^٣.

والسرفى ذلك هوكون ذلك العمود النورى قائماً بمن هونور السموات
والارض وعلى صلة بمن لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء

١ - امالى المفيد، المجلس الثانى والاربعون.

٢ - نهج البلاغة، الخطبة الفاصعة ١٩٢. ٣ - قرب الاسناد ٢٠٢ - ١٩٨.

وعلى رباط بمن لا يكون نسياً، وعلى سنادٍ بمن لا تأخذه سنة ولا نوم. كما وأن القرآن العلمي ايضاً لا يخرج عن هذه الحال رغم كونه موجوداً ممكنًا فائضاً من لدنه تعالى فاذا كان ذلك العمود النورى المطهر عن رجس الجهل ورجز الغفلة وماليه موفقاً للامام ومسداً له (ع) فطبيعى ان لا يكون بين نوم ذلك الانسان الكامل المعصوم (ع) ويقظته فرق اذ تنام عينه الظاهرة ولا تنام عينه البطينة التى لا تشبه عين الناس. وهذا هو الاصل الذى يترتب عليه غير واحد من الفروع التى مر بعضها مسبقاً، ومن ذلك قول مولينا الرضا (ع) لمن حضر عنده من علماء الكوفة ومتكلميها:

افى اريد ان اجعل لكم حظاً من نفسى كما جعلت لاهل البصرة وان
الله قد اعلمنى بكل كتاب انزله^١...

وللكلام تنمة سياقى بيانها.

تبصرة: فى بطلان الفرق بين القرآن العلمى والعينى كامتناع افتراق احدهما عن الآخر

واذ تبين ان الامام (ع) قرآن عينى وانه لا يفترق عن القرآن العلمى كما لا يفترق القرآن العلمى عنه لكون كل واحد منها داعياً الى صاحبه^٢ فلا يسوغ الفرق بان يتمسك باحدهما دون الآخر اذ ان اخذ كل واحد منها بدون صاحبه ليس الا بمثابة ترك كليهما معاً، فلا يجوز الاكتفاء باحدهما وحده لا بالتفريط ولا بالافراط فلا مجال للغلو فى القرآن العلمى بالتفريط فى القرآن العينى بان يقال حسبنا كتاب الله، كما ولا مجال ايضاً - بذات الدليل - للتغالى فى القرآن العينى

١- الخرائج ٤٠٦.

٢- معانى الاخبار، باب معنى عصمة الامام.

بالتفريط في القرآن العلمي بان يقال حسبنا ما جاء عن العترة الطاهرة، اذ كل واحد من جانبي الافراط والتفريط جاهلية جهلاء، لما مر مسبقا: ان انكار القرآن العلمي جاهلية والاعراض عن الامام المعصوم (ع) ايضا جاهلية كذلك، فالحياة العقلية لا تقضى سوى الاتباع لما رواه الفريقان عن العقل الاول خاتم الرسل (ص):

اى تارك فيكم الثقلين احدهما اكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي اهل بيتي فانظروني كيف تخلفوني فيها^١

ومنشاء الاكتفاء باحدهما رافضا للآخر هو توهم عدم صيانة ذلك الآخر، مثلا: ان القول بكفاية القرآن العلمي نابع عن توهم عدم عصمة العترة الطاهرة عن الخطاء في العلم وعن الخطيئة في العمل وان القول بكفاية القرآن العيني - اى العترة الطاهرة - ناش عن حسابان عدم عصمة القرآن العلمي عن لوث التحريف ورجس التصحيف ... وكما ان القول بعدم عصمة العترة الطاهرة يورث الشلطة المفجعة في الاسلام لا يسدها شئ كذلك القول بعدم عصمة القرآن العلمي عن التحريف يلزم ثلمة فيه يالها من خسارة كبيرة غير متداركة. وعحققوا الامامية براء من ذلك، لان الله الذى قال في حق القرآن العلمي:

انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون^٢

وقال في شأن القرآن العيني:

انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويظهركم تطهيرا^٣

١ - العيون ٢/ ٣٠.

٢ - الحجر/ ٩.

٣ - الاحزاب / ٣٣.

منه برئى وكذا رسوله الاعظم الذى قال فى القرآنين - العلمى والعينى - «انى تارك فيكم الثقلين».

فالإمامية - اى الفرقة الناجية - تعتقد وتدعن بأن القرآن والعتره من عند ربنا تؤمن بها ولا تفرق بينهما لانها لن يفترقا حتى يردا على رسول الله الذى خلفهما فى امته عند الحوض، والافراط فى حق العتره بعينه تفريط فى حق القرآن وموجب حرمان المجتمعات بل الحوزات العلمية عن علومه، اذ القول بعدم حجية ظواهره لكونه - معاذ الله - محرفا يوجب ان لا يجعل القرآن مدارا للمدارسة والبحث والحوار فى المدارس والاوساط العلمية المعتبرة ويلازم خروجه عن قطب التحليل والتفسير، كما وان الافراط فى حقه - بالذات - تفريط فى حق العتره الطاهرة وموجب حرمان الامه الاسلاميه عن زعامتهم وهدايتهم وحكومتهم وقيادتهم لأن المصير بعدم عصمتهم - معاذ الله - يلازم ان لا تكون سيرتهم وسنتهم التى هى سيرة النبي (ص) وسنته (ص) اسوة للامة الاسلاميه ويوجب الحكم بسواسيرتهم مع سائر الناس، بينما الامام الرضا (ع) يصارح و يقول: «نحن سادة فى الدنيا وملوك فى الارض»^١.

كما و كتب مولينا امير المؤمنين (ع) الى معاوية:

... ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة...
فانا صنائع ربنا والناس بعد صنائع لنا...^٢

فاين الثرى من الثريا، لانهم (ع) مجارى فيض الله ووسائط لطفه وان كان الكل مخلوقا لله الخالق كل شئى، الا ان قبول بعض الاشياء للفيض يتوقف على سبق فيض آخر. وهذا لا يعنى ان افاضته تعالى تكون كذلك

١- العيون ٥٧/٢.

٢- نهج البلاغة، الكتاب ٢٨.

إذا القبول والاستفاضة هي المقيدة دون الفعل والإفاضة، فلذا تكون الائمة (ع) صنائع الله بلا وساطة والناس صنائع الله تعالى مع الوساطة، وعليه: فلا يتمكن لهم ان يستفيضوا من الله سبحانه الا بوساطة الائمة (ع)، لانه تعالى لا يقتدر على الافاضة الا بوساطتهم، وكم فرق بين الامرين، وحيث انهم (ع) وسائط الفيض للناس فيجب عليهم -لزاما- طاعة الائمة (ع)، كما اوعز اليه موليا الرضا (ع) -في جواب من سئله:

«طاعتكم مفترضة»:- نعم، فقال: مثل طاعة علي بن ابي طالب؟ قال (ع) نعم^١ وقال (ع) عند التطبيع لقوله تعالى: ... «والى الجبال كيف خلقت»^٢ انها الاوصياء^٣

يعنى (ع) انهم جبال دين الله ورواسيه المنيعه له عن المبدان والاضطراب.

كما قال امير المؤمنين (ع) في حقهم (ع):

هم (ع) موضع سره... وكهوف كتبه وجبال دينه بهم اقام انحاء ظهره و اذهب ارتعاد فرائضه^٤.

ولولا عصمتهم عن الخطاء وصيانتهم عن الخطيئة لما كانوا جبلاً ورواسى ولما كانوا قديرين على اقامة انحاء ظهر الدين وإذهاب ارتعاد فرائضه وما الى ذلك من الشئون المتوقفة على العصمة. وعلى الجملة فلو ضل الامام في مجال علمى اوزل في شأن عملى اوسهى في حكم الهى اونسى وحيأ سماويا اوفسره بها جس نفسانى -والعباذ بالله- لافترق في ذلك عن القرآن المصون عن ذلك

٣- مناقب ابن شهر آشوب ١/ ٢٢٠.

١- الاختصاص، ٢٧٨.

٤- نهج البلاغة، الخطبة ٢.

٢- الغاسية/ ١٩.

كله، مع ان الصادق المصدق الامين على وحى الله اعلن وصارح بانها لن يفترقا...

كما وان الزعم الزائف في تحريف القرآن - معاذ الله - ليس الا حكما بافتراقه عن العترة المعصومة المصونة من حيث لا يحتسب، رزقنا الله التمسك التام بها ولا يفرق بيننا وبينها ابدا ووقفنا لان لا نفرق بين احد من هولاء السادة لانهم من نور واحد.

كما قال مولينا الرضا (ع) لابن ابي سعيد المكارى لما قال له (ع):

أبلغ من قدرك ان تدعى ما ادعى ابوك.. قال له: مالك اطفاء الله نورك وادخل الفقريتك ما علمت ان الله اوحى الى عمران انى واهب لك ذكرا فوهب له مريم ووهب لمريم عيسى فعيسى من مريم ومريم وعيسى شئى واحد وانا من ابي واني منى وانا واني شئى واحد^١.

والسرفى ذلك ان حقيقة الولاية والامامة والخلافة ومالى ذلك من الحقايق الانسانية امر نورى واحد لا تعدد فيه هناك رغم جلالة بصور متعددة في موطن الكثرة، فلذا يكون الاولياء الكُمل بعضهم من بعضهم لا تفاوت بينهم في ذلك الا في مقام الظهور والبروز لا في اصل التحقق والحصول. ومن اظهر مصاديقه ما اشتهر نقله عن رسول الله (ص) انه قال (ص): «حسين منى وانا من حسين»، وبما أن ملاك الاتحاد هو اخلاصهم لله الواحد القهار وفنائهم في فناءه سبحانه، لذلك فان بعضهم من بعض، وكلام كل واحد منهم كلام الآخر - بالذات - وكلام الكل هو كلام خالقهم وبارئهم ومعلمهم وهو الله تعالى.

كما نقل هشام وحاد وغيرهما عن ابي عبد الله (ع) انه قال:

حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدى وحديث جدى حديث
الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين
وحديث أمير المؤمنين (ع) حديث رسول الله (ص) وحديث رسول الله (ص)
قول الله عز وجل^١.

فوزان الاولياء هو وزان الانبياء (ع) فمن غلب عليه حكم الوحدة قال
لا تفرّق بين احد منهم، ومن تغلب عليه حكم الكثرة قال: «تلك الرسل فضلنا
بعضهم على بعض» - هكذا قيل - وعليه تكون الوحدة باعتبار والكثرة باعتبار
آخر بلا تناف بينهما، والفارق انما هو في سلوك السائر الى الله وان كان هذا
الفرق امرا حقيقيا لان شهود السالك الذي يسير على الصراط السوى يطابق
الخارج من حيث، وان لا يخرج من حيطة نفسه ودرجات سيره من حيث آخر
وليس الفرق المذكور فارقا اعتباريا كما في العلوم الاعتبارية.

الفصل الثاني

الجنة الاولى: في بيان ماهو طريق معرفة القرآن

قد تقدم في الروضة ان القرآن نور وبيان الهى وحيث ان النور لاظلامه له وان البيان لا ايهام فيه، اذاً فهو بريئ عن أية ظلمة وخليص عن شوب اى ايهام فهو في تبين جميع مايتصل اليه، نور وضياء، فلا يمكن ان يسكت في تحديد طريق الوصول اليه، لان من اظهر خواص النور هو توضيح السبيل المنتهية اليه وتعرفة المانع عن التطرق اليه، فالقرآن نور في بيان شرائط معرفته ونور في بيان الموانع عنها. فلنأت بشرط من ذلك ولنهد قبله مقدمة وجيزة هي مايلي:

ان المعرفة والمعروف من سنخ واحد فإن كان المعروف محسوسا يكفيه المعرفة الحسية وان كان متخيلا او موهوما كفته المعرفة الخيالية والوهمية، وان كان معقولا لا يكفيه سوى المعرفة العقلية مع الانتفاع المقدمى من المعرفة الحسية والخيالية والوهمية، واما ان كان المعروف فوق ذلك فلا يكفيه شئ منه اصلا بل لابد من الشهود القلبي والخروج عن اطار الحس ومحس الخيال وقيد الوهم وحجاب العلم الحصى العقلى وما الى ذلك من الحجب الظلمانية والنورانية حتى اذا خرقت ابصار القلوب حجب النور تصل الى معدن العظمة وتصير الارواح العتيقة عن عبودية اى مولى من الموالى الباطلة الداخلة والخارجة معلقة بعز قدس الله سبحانه ملحقة بنور عزه الابهج من كل بهيج فتكون له سبحانه عارفة وعن سواء منحرفة ومنه تعالى خائفة مراقبة خوفا عن التلوث بالنظر الى

الغير وعن التلطف برجس من سواه.

(والمحصل) ان معرفة كل شئى فانما هى من سنخه ليس الا... وحيث ان القرآن حبل متصل من تخوم عالم الحس الى عنان عالم العقل ثم من عرش العقل الى قاب قوسين او ادنى فلا يمكن الاعتصام بائى حد من حدوده الا بيد المعرفة المسانحة لذلك الحد من ادنى انحائها وهو الحسى حتى اعلاها وهو الشهود المحض الايمانى لمن كان له قلب لا يكذب مارأى وبصر لا يزيف ولا يطفى و ذاك هو رسول الله (ص) وعترته الطاهرة الذين هم من نور واحد ولا مايز بينه (ص) وبينهم (ع) الا فى النبوة والرسالة دون الولاية التى هى الباطنة لائى مقام وهى المشتركة بينه (ص) وبينهم (ع) كما مر.

اضف الى كل ذلك : ان القرآن الكريم له الفاظ دالة على المعانى، فلاحالة يشتمل على حقول كثيرة وسبعة من العلوم الادبية كالنحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والبديع وما اليها من العلوم الاعتبارية التى وضعها يد الاعتبار وان كانت لتلك العلوم ايضا صلات رقيقة الى الحالات النفسانية من البعث والزجر والبسط والقبض والتهيج والتسكين والفرح والهم والنزوع والانعزال والشهرة والخمول ونحو ذلك من الامور الحقيقية - على الجملة - الا ان اس تلك العلوم الادبية انما هى الاعتبارات العقلانية الدائرة مدارها وجودا وعدما وهكذا سعة وضيقا ودرجات تلك القواعد الاعتبارية - ايضا - تختلف - فى نفس الوقت - باختلاف اعتبارها فى مرتبة الحس والخيال والوهم حتى ينتهى الى موقف منزه عن الاعتبار مجرد عن قيد الوضع . ومهما يكن من امر فإن المعروف الحقيقى لا يناله الا المعرفة الحقيقية وان المعروف الاعتبارى تكفيه المعرفة الاعتبارية فكلّ بحiale.

وبعد تمهيد هذه المقدمة نقول : إن القرآن قدين شرائط معرفة نفسه من

ادناها الى اعلاها واهمها وحث الناس لتحصيلها و ابان عن موانع معرفته من ارقها الى اغلظها واكشفها وحذرهم عنها. فتمام المقال في مقامين: احدهما فيما يرجع الى شرائط المعرفة وثانيها فيما يرجع الى موانعها:

المقام الاول: في شرائط معرفة القرآن

وحيث ان القرآن كلام بلسان خاص وكتاب بلغة مخصوصة فلا بد لسامعه وقارئه من الاطلاع على كلماته وحروفه ومفرداته وتراكيبه حتى يتيسر له قرائته واستماعه وانصاته له. فغير العارف بالعربي والذي لا يميزه عن غيره ولا يعرف هذا اللسان المخصوص لا يقتدر على تلاوته التي هي اقل درجات الصلة به، وقد امر الناس بذلك في غير مورد، كما قال سبحانه:

... فافروا ما تيسر من القرآن^١.

وقد كان مولينا الرضا (ع) يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن فاذا مرآية فيها ذكر جنة اونا ربكى وسئل الله الجنة وتعوذ به من النار...^٢.

كما وان الشرط البدئي للتدبر فيه هو معرفة قواعد هذا اللسان وعلومه الخاصة به، حيث قال سبحانه:

انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون؟
كتاب فصلب آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون؟
قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون^٣.

ومعنى كونه غير ذى عوج هو ان القرآن بلفظه ومعناه صراط سوى

١- المزمل/ ٢٠.

٢- عيون الاخبار، ٢/ ١٨٠.

٤- فصلت/ ٢٨.

٣- يوسف/ ٢.

٥- الزمر/ ٢٨.

لا اعوجاج له ولا يمكن تعويجه بالعلاج، لان التعبير بغير ذى عوج انما هو كالتعبير بغير ذى زرع في الدلالة على انه لا يتمكن من تغييره بالعلاج الصناعي، لانه ليس بمزروع بالفعل وبما ان القرآن بلسان عرى غير ذى عوج فانه يلزم الاطلاع التام على قواعده لكي ينال لفظه بادئا ومعناه ثانيا. وقد وصف الله سبحانه هذا اللسان مرة بانه غير ذى عوج وتارة اخرى بانه عرى مبين اى يبين الالسة و لا تبينه الالسة. فلهذا اللسان خصيصة لا توجد في غيره كما اوعز اليه سبحانه بقوله:

لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عرى مبن^١.

فكما ان معانى القرآن معارف عالية الرفوف لا تناوشها الا العقول الراقية الرفيعة عن صعيد الحس والخيال والوهم حيث ان تلك المعارف كتب مرفوعة شأنها وصحف مطهرة ذاتا، كذلك الفاظه فانها جعلت بلسان عرى مبين لا تنال قواعده الا الادباء والفصحاء والبلغاء فيما يتصل الى علومها الادبية التى هى فى بادى الامر فاذا تحصل الشرط البدئى- اى التطلع على قواعد العرى المبين- تصل النوبة الى معرفة معانى القرآن وشرائط تلك المعرفة، فكما ان الله سبحانه امر بتلاوته ورغب الناس اليها وبين لها آدابا من الاستعاذة عند القراءة حدوثا وبقاء حيث قال تعالى:

فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم^٢

اى استعذ بالله الذى لا ملجأ الا اليه. ولن تجد من دونه ملتحدا^٣ لكى

١ - النحل / ١٠٣.

٢ - النحل / ٩٨.

٣ - الكهف / ٢٧.

لايسلّط عليك الشيطان:

انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون انما سلطانه على
الذين يتولونه والذين هم به مشركون^١.

فادب التلاوة هو الالتجاء بالله حال القراءة لافى خصوص حدوثها بل فى
تمام مدتها حدوثا وبقاء، ومن تلك الاداب الترتيل حيث قال سبحانه:
ورتل القرآن ترتيلا^٢

ونحو ذلك من السنن التى تذكر للتلاوة، كذلك قد امر بالتدبر فيه وحث
الناس اليه وبين له آدابا وسننا وجعل ذلك هو التكليف الهام الالهى حيث
قال تعالى:

كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوالالباب^٣
افلم يدبروا القول ام جائهم ما لم يات آبائهم الاولين^٤.
افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً^٥.

وقال سبحانه:

افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفاها^٦.

الى غير ذلك من الآيات الحاثّة للتفكر والتحقل والتعلم لمعارف القرآن وبما
انها ليست محسوسة ولا متخيلة ولا موهومة كما وانها ليست امورا اعتبارية
امستسا يدا الاعتبار، بل امور وجودية حقيقية فلذا لا تدركها الحواس ولا تناوشها

١- النحل/ ١٠٠.

٤- المؤمنون/ ٦٨.

٢- الزمل/ ٤.

٥- النساء/ ٨٢.

٣- ص/ ٢٩.

٦- محمد(ص)/ ٢٤.

المخيلات والالوهام، لان الله سبحانه و وحدته وعلمه المحيط بكل شئى وقدرته المسيطرة على كل شئى وحياته المطلقة التى لا يناله الموت... ومالى ذلك من الاوصاف الحقيقية التى يتنها القرآن فى حقل الالهيات... منزهة عن منال الوهم والخيال فضلا عن الحس وهكذا الوحي والنبوة والرسالة والامامة والخلافة والعصمة والملائكة واليوم الاخر بماله من المواقف.

فان كل هذه مما لا امكان لنيلها باطار الحس الظاهرى وان لمكن تخيل بعضها وتوهم بعضها الآخر، بيد ان معرفتها الصحيحة انما هى بالعقل المحض او الشهود التام ليس الا... ولذلك لا تكون علوم القرآن كالعلوم الطبيعية او التعليمية او الادبية مما يمكن ان ينال بالحس والتجربة او الاعتبار وان كان معيار جميع العلوم والادراكات هو العقل عند التحليل لاستناد جميعها اليه، الا ان لتلك العلوم مبادئ محسوسة ينالها الحس او مبادئ اعتبارية تنالها يد الاعتبار. اما العلوم الالهية المشار اليها فهى فوق الحس والاعتبار فلا تكون متحدة المساق مع العلوم التجريبية وغيرها مما له اساس بالمادة ذهنا وخارجا او خارجا فقط، وذلك لان تلك العلوم الالهية منزهة عنها مطلقا وبمعنى الكلمة بحيث يكون التعلق بها مانعا عن ادراك تلك العلوم حسبا ياقى بيانه عند التعرض لذكر الموانع عن معرفة القرآن.

واما الكلام -الآن- فى شرائطها: فمنها الطهارة عن اى رجس والنزاهة عن اى رجس. قال سبحانه:

انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمته الا المطهرون^١.

اى الذى ينال ما فى الكتاب المكنون عن الاجنبى المستور عن الغير انما هو

الانسان المطهر عما ينجسه وذلك الكتاب المكنون هو وعاء لهذا القرآن الكريم ومحيط به وبباطنته ومعناه ومقصده ولا تدركه الخواس.

(ثم) انه تعالى بعد عرض هذا الشرط الهام بين واجديه وما يتصل بهم وعرفهم للناس حيث قال:

انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا^١.

ولما كان التطهير انما هو لازالة الآثار الباقية بعد زوال العين، فقد ذكره الله بعد الاذهاب فعناه انه لا مجال لعين الرجس ولا لآثره نهائيا في اهل البيت (ع) وهذا في مقام دفع الرجس رأساً لا في مقام رفعه بعد الوجود ومقتضى الحصر في قوله تعالى لا يمسّه الا المطهرون هو ان النيل بكنه القرآن الذي هو الكتاب المكنون يختص باهل البيت (ع) وهذا هو المعية المتحققة بين الثقلين التي افادها وتفوه بها الرسول الأعظم (ص).

فالقرآن ينادى بانه لا يدركه حق الادراك ولا يناول مكتنه الا اهل بيت الوحى والعصمة (ع)، كما وانهم (ع) يدعون حق الدعوى بانه لا يناوش كنه القرآن ولا يعلم تاويله الا الراسخون في العلم وان العترة الطاهرة هم الراسخون فيه، وقد عقد له باب في الجوامع الروائية كما في بصائر الدرجات وغيرها^٢ وانهم عالمون بظاهرة القرآن وبباطنه وانه ماحج القرآن كله غير الاوصياء^٣ فمن كان طاهرا بانحاء الطهارة التي اصفهاها هي الطهارة عن رؤية الاخلاص كما قيل: «فمن رزق الطهارة حتى عن الاخلاص فقد منيح الخلاص»، فهو الحرى بالعلم بالكتاب المكنون ومن لم يطهر بجميع انحائها بل تطهر ببعضها فقط فهو العالم

١- الاحزاب/ ٣٣.

٢- البصائر، ٤ - ٢٢٠.

٣- البصائر، ٤ - ١٩٣.

بالقرآن على قدر طهارته، وحيث ان النبل بكنه القرآن مشروط بالطهارة التامة المعبر عنها بالعصمة وان العترة الطاهرة هم المعصومون بعصمة الهية، فلذا جعل الله سبحانه رسوله مبيّنا لكتابه ومفسرا له كما قال تعالى:

وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم^١

وقد مر مسبقا ان الائمة (ع) والرسول (ص) نور واحد لا اختلاف بينهم في الولاية وان امتياز الرسول (ص) عنهم (ع) بالنبوة والرسالة، فهم العالمون بتفسير القرآن وتأويله وظاهرته وباطنته كما هو قضية اطلاق المعية وعدم انفكاك احد الثقلين عن الآخر في مرتبة من المراتب الوجودية أصلا، ولا يمكن النبل الى جميع الحدود الالهية الا بالمراجعة الى العترة الطاهرة، كما لا امكان للاعتماد على ما نقل عنهم الا بعد عرضه على القرآن سواء في ذلك الاخبار المتعارضة وغيرها حسبما تواتر نقله عنهم (ع). وهذا - ايضا - مقتضى اطلاق المعية بينها والعارف بأسلوب الثقلين يعلم انه كيف يتوقف فهم كل منها على الآخر كى لا يلزم محذور الدور، بل انما يترتب عليه اثر التلازم وامتناع افتراق احدهما عن صاحبه.

والى ما ذكرنا من ان العلم ببطن القرآن وكذا تأويله عند العترة الطاهرة اشار مولينا الرضا (ع) لما قاله (ع) على بن محمد بن الجهم:

يا بن رسول الله (ص) أتقول بعصمة الانبياء؟ قال (ع): بلى، قال: فاعمل في قول الله عزوجل وعصى آدم ربه فغوى و... حيث قال (ع): وعك يا على اتق الله ولا تنسب الى انبياء الله الفواحش ولا تأول كتاب الله عزوجل برأيك فانّ الله عزوجل يقول وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم...^٢

١- النحل / ٤٤.

٢- امالى الصدوق، المجلس العشرون.

فالمحصل: ان القرآن من الصحف المطهرة كما قال سبحانه:

... في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة^١

وقال ايضا:

رسول من الله يتلو صحفا مطهرة^٢.

وقد اوغرنا مسبقا الى ان معرفة كل شئ فانها مساتحة مع ذلك الشئ، اذا فعرفة الصحيفة المطهرة لا بد وان تكون مطهرة عن رهن الوهم ورين الخيال وصداء الغفلة. ومن البين ان المتوهم والخيال وذلك المبطل بصداء الغفلة لا ينال المعرفة المطهرة ولا تجعل هي نصيبه وقد عرف الله سبحانه المطهرين وهم العترة المعصومة (ع). ثم انه تعالى حث الناس في تحصيل الطهارة فقال:

ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين^٣

والله يحب المتطهرين^٤

لان الحكم بمحبوبة الانسان المتطهر لله سبحانه ترغيب لهم في تحصيل ملاك المحبة وقد بين سبحانه طرق التطهير فنها بالانفاق في سبيل الله كما قال تعالى خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم بها^٥

ومن ذلك رعاية الحجاب والعفاف كما قال تعالى:

... واذا سألتموهن متاعا فسلوهن من وراء حجاب ذلكم اطهر

لقلوبكم وقلوبهن^٦.

١- عبس/ ١٤.

٢- البينة/ ٢

٣- البقرة/ ٢٢٢.

٤- التوبة/ ١٠٨.

٥- التوبة/ ١٠٣.

٦- الاحزاب/ ٥٣.

ومنها الطهارة المائية و الترابية لما يشترط بها كالصلوة، قال تعالى:

... وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا... ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم... .

اذ المراد من الطهارة في هذه الاية ليس هو مجرد النظافة والا لما اعتبر فيها القربة (اولا) ولما كانت حاصلة بالتراب كما في التيمم (ثانيا) اذ ليس ترتيب الوجه واليدين تطهيرا لصاحبه، بل المراد منها الطهارة عن دنس الهوى و النزاهة عن رجس الغرور وما الى ذلك وان يصحبها النظافة الظاهرية في الجملة ايضا ومن طريقه: التردد الى المساجد المؤسسة على التقوى لاقامة الصلاة ونحوها كقوله تعالى:

... فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهّرين^١

وما اليها من الشواهد التي يدلنا على ان اساس الطهارة هو العبادة لله سبحانه فيما امر به او نهى عنه فمن كان اعبد واطوع له تعالى فهو اطهر وازكى ويحظى من الصحف المطهرة باكثر و اوفر واما المستكف والمستكبر عن عبادته فهو عنصر متدنس بـرجس الطغيان و بـرجز العَمّة في سكرة الطبيعة فلانصيب له من تلك الصحف المطهرة لفقدان شريطة المعرفة وهي الطهارة، كما قال تعالى: ... ومن يرد الله فتنة فلن نملك له من الله شيئا اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم^٢.

والمراد من الارادة في هذه الاية هي التكوينية منها دون التشريعية

١- المائدة /٦.

٢- التوبة /١٠٨.

٣- المائدة /٤١.

لاطلاقها وسعتها بالنسبة الى جميع المكلفين، حيث انه تعالى اراد بارادة
تشريعية عامة ان يطهر جميع العباد ويزكيهم، ولذلك جعلهم تجاه التكليف
المطهرة لهم الزكية اياهم سواسيه، ولكن قد اعرض طائفة منهم عنها وغرتهم
الحياة الدنيا واشتروها بالحياة الآخرة فاولئك الذين لم يرد الله تكويننا ان يطهر
قلوبهم كما وان الارادة في آية التطهير هي التكوينية منها لانها هي المختصة
بالعبرة الطاهرة. واما ارادة التطهير بارادة تشريعية فهي عامة لغيرهم ايضا.
ومن الشواهد على ان الطهارة في هذه الآيات هي الطهارة المعنوية
قوله تعالى: ... لم يرد الله ان يطهر قلوبهم... حيث انه جعل متعلق
التطهير قلوب هؤلاء وبواطنهم لا بواطنهم والظواهر منهم، وهذا
بـالذات. كما ان الله سبحانه قد اراد بارادة تشريعية عامة ان يرتفع
جميع العباد من حضيض عالم الطبيعة لكي يرتقوا الى ماوراهها لذلك كلفهم
بامور عبادية يتقربون بها الى الله الذي هو الكمال المحض اى يرتفعون اليه ولم
يخص بعضهم دون بعض بما يوجب الرفع بل اذن لهم جميعا ان يتكاملوا وجعل
جميع الامكنة والازمنة في ذلك سواء بالاذن التشريعي العام. بيد انه تعالى جعل
المساجد والمشاهد المشرفة بيوتا خاصة واراد واذن تكويننا ان ترتفع تلك الاماكن
بحيث لا يمكن ان يمانعه شئ. حيث قال تعالى:

... في بيوت اذن الله ان ترفع^١

فالآتيان الى المساجد والتراتد الى المشاهد المشرفة يوجب الترفع الممدوح
كما قال تعالى:

... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات^٢.

فاذا اصبح الانسان المتعبد بامره الثقلان رفيعا باذن الله تنال يد عقله
صحفا مرفوعة عن نشأة الحس والخيال والوهم وعن موطن الطبيعة.
ومما ذكره بان يظهر لنا: ان هنا شرطا آخر لمعرفة القرآن هو الرفعة عن
حضيض الطبيعة وان العترة الطاهرة (ع) واوليائهم وتابعيهم هم المرفوعون من
عند الله. وان طريق تحصيل تلك الرفعة اتيان المساجد والمشاهد الرفيعة والتعبد
بها امره الكتاب والعترة وان المعرضين عن تلك البيوت الرفيعة والذين لم يتعبدوا
بمآقي الكتاب والسنة، اولئك لم يرد الله ان يرفعهم عن حضيض الطبيعة
تكوينيا وان اراد رفعهم عنها تشريعا، كما قال تعالى:

... ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه^١

حيث إنه تعالى اراد رفعه تشريعا وآتاه من آياته، الا انه بالذات انسلخ
منها ومال الى الارض ولم يحصل شريطة ارادته التكوينية لرفعته، فلذا لم يرد الله
ان يرفعه تكوينيا، وقد انصرح ان استنباط هذا الشرط انما هو من توصيف الله
سبحانه تلك الصحف الالهية بالرفعة ومسبقا ان معرفة كل شئ فأنما هي
من سنخه وعليه فلا بد في معرفة الصحيفة الرفيعة من رفعه عارفها، حسبما تقرر
في شرطية الطهارة للمعرفة اذ توصيف الصحيفة بالرفعة بمثابة ان يقال... لا يمسه
الا الذين رفعهم الله مكانا عليا.

ومن هنا يظهر- ايضا- ان من شرائط معرفة القرآن الكرامة عن كل دنيسة
لان من اوصاف الصحف الالهية التي يكون القرآن من اشرفها هو التكرم
الالهي، كما قال تعالى:

في صحف مكرمة... بايدي سفرة كرام بررة^٢

١- الاعراف / ٧

٢- الواقعة / ٧٧.

كما وانه تعالى وصف القرآن ذاتيا- بالكرامة، حيث قال: «انه لقرآن كريم»^١ فالاستفاد منه ان القرآن مظهر للاسم الكريم حيث انه من الاسماء الحسنی الالهية لقوله تعالى:

... قال هذا من فضل ربي ليبلوني الشكرام اكفرومن شكر فاعلموا ينكر
لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم^٢.

وغير خفي للقارئ الكريم ان توصيف كتاب بوصف خاص يرشدنا بطبيعته الى لزوم تحصيل مايرتبط منه الى من يباشره ويزاوله في معرفة ذلك الكتاب.خذ مثالا ان توصيف القرآن بانه عرني مبين يدلنا على ان العارف بالقواعد العربية هوالذي يقتدر على عرفانه، فكذلك توصيفه بالكرامة يدلنا على ان الانسان الكريم هوالذي يتيسر له معرفته، لان الرسول الكريم وكذلك القرآن الكريم لاينطقان الا بالكرامة فن لاحظ له منها كيف يقتدر على عرفانها. وقدبين الله سبحانه مدار الكرامة وانها هي التقوى ليس الا. اذبحدوثة تحدث الكرامة وببقائه تبقى وبشدته وقوته تشتد الكرامة وتقوى حيث قال تعالى:

... ان اكرمكم عندالله اتقاكم^٣.

وبزواله تزول وتنتفى رأسا اذ لو زال التقوى بالطفوى لزال الكرامة بالإهانة كماقال تعالى:

١- الواقعة/٧٧.

٢- النحل / ٤٠.

٣- الحجرات / ١٣.

... ومن بين الله قاله من مكرم^١

لان الله تعالى لا يكرم الا المتقين فمن انسلخ عن التقوى بالطغيان فقد تبدل كرامته بالهوان بسوء اختياره فلانصيب له من كتاب يحوم حول الكرامة وتحوم حوله الكرامة، فعليه تكون الكرامة عن الدنائة الدنياوية شرطا هاما لمعرفة القرآن الكريم لان توصيفه بالكرامة في قوة القول يانه لا يمسها الا من اكرمه الله عن عَرَض هذا الادنى فالنتيجة المنطقية والطبيعية هي ان من غرته الدنيا وباع حفظه بالارذل الادنى وشري آخرته بالثمن الاوكس وتغطرس وتردى في هواه لا يرث من الكتاب الكريم شيئا وان تلاه وقبله وجعله على راسه احيانا والسر هو ما او عزنا اليه مسبقاً.

ومن تلك الشرائط: معرفة الغيب والايمان به في الجملة، اذ القرآن كما تقدم يخبر عن الغيب وباطن العالم فالذى يرى ان الوجود يساوق ويساوى للمادة وان كل موجود فهو مادي ليس الا. وان مالا مادة له فهو غير موجود حقيقى بل خرافى ابداعه الوهم ونسجته يد الخيال فلا حظ له عن كتاب يقسم الموجود الى الغيب والشهادة وان بعض الموجودات ليس بمادى وان معيار المعرفة ليس هو الحس وحده بل له وللتجربة عون لما هو المعيار الاصيل في المعرفة الذى هو العقل او الشهود وان منشاء اعتبار الحس والشهادة هو العقل المجرد الذى هو بنفسه غيب عن عالم الطبيعة. ولقد بين الله سبحانه سر عدم انتفاع من حصر الوجود في المادة بقوله تعالى:

... ولكن اكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن

الآخرة هم غافلون^٢.

١- الحج / ١٨.

٢- الروم / ٧.

يعنى انهم لا يعلمون باطنة الحياة الدنيا وهى الآخرة وهى مع انها موجودة لا تكون مورداً لالتفاتهم بل هم عنها غافلون ولذا امر رسوله (ص) بالاعراض عنهم لعدم بلوغ علمهم النصاب اللازم لمعرفة القرآن، كما قال تعالى:
فاعرض عن من تول عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو اعلم بمن ضل سبيله وهو اعلم بمن اهتدى^١.

والذى يصحح هذا الإعراض ويوجب الهجر الجميل هو ان القرآن وان انزل هدى للناس فى اتى مصرو عصر الا ان معارفه المبتنية على الغيب لا تشر لمن ينادى بانه لا يؤمن بشئ حتى يحسه ويراه جهرة، فلذا قال تعالى:
... هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب^٢

وهذا الشرط ايضا كغيره من الشرايط القادمة والغابرة يحمل درجات فن كان واجدا لها جميعا فانتفعا به بالقرآن اكثروا اكثر... ومن كان واجدا لبعض درجاته فانتفعا منه بذلك المقدار ايضا، كما وان القرآن العيى -وهو الرسول (ص)- قد ارسل للناس اجمع، كما قال تعالى:
وما ارسلناك الا كافة للناس بسيرا ونذيرا^٣.

لكن الذى ينتفع منه هو خصوص المؤمن بالغيب، فلذا قال تعالى:
لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا^٤

والمطالع الخبير الفطن يقف على اهمية هذه الشريطة مقيسا الى غيرها من الشرائط، ولوقيل بانه اهمها لم يجزف فى القول، وذلك لان الشرائط التى تتصل

١- النجم ٣٠-٢٩. ٢- البقرة ٣-٢.
٣- سبأ ٢٨. ٤- آل عمران ١٦٤.

الى العقل العملى ليست فى رتبة الشرائط الراجعة الى العقل النظرى، كما وان العقل العملى -ايضا- ليس فى مرتبة العقل النظرى، مثلا ان الطهارة عن دنس التعلق بالعرض الادنى وكذا الكرامة عن هذه الدنيا الدنيئة والرفعة عن حضيض التعلق بالمادة وزخرفها وزبرجها وزهرتها وما اليها من الاوصاف النفسانية الراجعة الى العقل الذى يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان من شئون العقل العلمى، واما اساس المعرفة ومعيارها العقلى المذعن بان الموجود على قسمين احدهما غيب والاخر شهادة وان الله ووجدانيته وسائر اوصافه الذاتية غيب عن موطن الطبيعة ومنزه عن رجسها ومطهر عن رجسها، وكذا الملائكة والوحى والنبوة والرسالة والخلافة الالهية والعصمة والعلم بالمغيبات والاخبار عنها وما الى ذلك من المعارف القرآنية، ترجع - كل ذلك - الى عالم الغيب الذى لا تدركه الحواس ولا تناوش فى اطار التجربة، ولا تناله يد الاعتبار الاجتماعى، ولا يمس كرامته نسيج الخيال والوهم الشعري فاساس العلوم القرآنية على المجردات الغائبة عن الاوهام فضلا عن الحواس فاهم الشرايط اللازمة لمعرفة القرآن انما هو جعل معيار المعرفة العقل المنزه عن الطبيعة وتسلم انّ الوجود باطلاق كلمته ليس منحصرا فيها بل هو ينقسم اليها والى ماورائها وعندئذ: يتمكن من التدبر فى القرآن والاستنباط منه والاعتماد عليه والسناد اليه والاستدلال به والانتفاع بهداه وذلك بعد احراز سائر الشرائط ايضا.

ولنأت -الآن- بنماذج من المعارف الغيبية التى افادها القرآن الكريم وانه كيف انكرها الملاحدة متعجبين ومشمئزين منها وكيف عبروا عنها بالاساطير.. وذلك لانهم لما تغلب على اوهامهم ان الموجود هو المحسوس ليس الا، وان ما لا يناله الحس بجوهره فان فرض وجوده محال، وان مالا يتخصص بمكان ولا تحيز ولا يوضع بذاته كالجسم او بسبب ما هو فيه كاحوال الجسم...

فلا حظ له من الوجود نهائيا^١. فكانوا يقولون:

... وما يهلكنا الا الدهر^٢

وكذا يقولون:

لن نؤمن لك... او تاتي بالله والملائكة قبيلا^٣

اي: تاتي بالله حتى نراه مقابلا وكفاحا ماديا وكذا تأتي بالملائكة حتى نراهم مقابلين لنا ومن البين ان من يحمل من العلم هذا القدر الزهيد التافه كيف يتيسر له ان يدرك الله الذي لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ومن اين يتمكن من عرفان النشأة الغائبة التي لا ترى الملائكة الا في تلك النشأة اوفى تلك الحالة لمن لم ينتقل بعد الى تلك النشأة، كما قال تعالى:

يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ ويقولون حجرا محجورا^٤

وكذا كانوا يقولون:

لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم^٥.

لانهم قد اخلدوا الى الارض وظنوا ان الاصاله للمادة وان الواجد لزخارفها وزبارجها هو العظيم وأن النبوة شأن مادي له عظمة فلا بد وان يختص لمن يكون عظيما. ومن الواضح ان من حظى بهذا العلم الأتفه الايسر كيف يتيسر له ادراك ان النبوة شأن الهى هام يحمل قداسة معنوية عظيمة لا يناها الا

١- الاشارات، النقط الرابع، الفصل الاول.

٢- الفرقان/ ٢٢.

٣- الجاثية/ ٢٤.

٤- الزخرف/ ٣٦.

٥- الاسراء/ ٩٢.

صاحب الخلق العظيم والملكات النفسانية المعظمة كالعصمة وماليها، ولذلك نراه يتهوس ويبدى بانه. «لن يؤمن حتى يؤق مثل ما أوقى رسل الله». على حدما حكاه عنهم

قوله تعالى:

بل يريد كل امرئ منهم ان يؤق صحفا منشرة^١.

وكذلك كانوا يقولون:

ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين^٢

ويقولون:

أأدامنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد^٣

اى بعيد عن الامكان ومستبعد عن الدليل العقلى المزعوم. فكان من الطبيعى لهم ان يستوحشوا من المعاد ويتعجبوا منه بقولهم:
هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزق كل ممزق انكم لى خلق جديد^٤

ومن اللائح ان الذى نطاق علمه بهذا الضيق كيف يتمكن ان يدرك ان الانسان لا يفوت بالموت بل يتوفى وانه لا يفضل فى الارض بل ينتقل من دار الى اخرى.

فهذه نماذج مما يرجع الى المبدء والمعاد والوحى والنبوة المبتنية - بكلها - على ان الحس ليس هو المعيار الوحيد فى المعرفة وانّ الموجود ليس منحصرأ فى

١- المذتر / ٥٢.

٣- ق / ٣.

٢- المؤمنون / ٣٧.

٤- سبأ / ٧.

المحسوس. لذلك نرى الملحدين المتغلب على اوهامهم ان مالايناله الحس فهو
ممتنع الوجود يتفوهون حول المعارف الغيبية بانها ليست:
الا اساطير الاولين^١.

وحيث ان تلك المعارف الغيبية من مشتركات النبوة بلا اختصاص لها
بنبي دون نبي كذلك هذه الاقاويل ايضا من مشتركات الجاهلية المادية من
دون خصيصه لها بملحد دون آخر، فلذا نرى هذا القول الباطل في غير مورد
من القرآن الكريم ناقلا له عن ملاحظة كل قوم وعصر قبال كل نبي ورسول.
ولا يبلغ اقصى شبهات الماديين اليوم رغبا لرقى الصنائع والحرف ولا يتعدى
اعضل مشاكلهم الاعتقادية عما ابداه اسلافهم الملاحظة، لأن قلوبهم متشابهة
متسائخة وان اختلفت السنتهم والوانهم وسائر خصائصاتهم. فكما ان السلف
الصاّد عن سبيل الله كان يقول بمثل:
يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول^٢

كذلك الخلف الطالح يعبر عن ما وراء الطبيعة بالتحجر والارتجاع ومالى
ذلك من الافك كالقول بان الدين مخدر وافيون للشعوب و
الى هنا انتهى الكلام فى المقام الاول الباحث عن شرائط معرفة القرآن،
ويمكن ان نتعرض لما لم يبحث عنه هنا فى المقام الثانى المعقود حول موانع معرفته
كما وانه قد تعرضنا لبعض تلك الموانع فى ثنايا البحث عن الشرائط لان كل
ما يكون شرطها ينتزع من مقابله المنع عنها، لذلك فقد يذكر وصف كمالى
شرطها وقديذ كر مقابله مانعا عنها حسبما يظهر من الآى المبحوث عنها فى

١- الانعام / ٢٥.

٢- هود / ٩١.

المقامين، وعليه: فلنعطف المقال الى المقام الثاني.

المقام الثاني: في موانع معرفة القرآن

كما ان للعين شرائط خاصة يقتضيها ويصححها وموانع يمنعها ويبطلها كذلك للعلم شرائط يوجبها وموانع يمنعه، وذلك لان النظام العلى لا اختصاص له بالعين بل يعم كل موجود لا يكون وجوده عين ذاته حسب افاده مولينا الرضا (ع):

كل قائم في سواء معلول^١.

وقد مر مسبقا بيان الشرائط الهامة لمعرفة القرآن واستفد في ضوئها الموانع عنها بنحو الاجمال، بيد ان القرآن الكريم لم يكتف في عرض تلك الموانع بالبيان الاجمالى والضمنى بل تعرض لها بالتفصيل وحذر عنها بصراح، وكما ان الشرائط كانت على قسمين: احدهما ما يتصل الى العقل النظرى والاخر الى العقل العملى، كذلك الموانع على صنفين: احدهما يتصل الى الجهل المقابل للعلم والاخر الى الجهل المقابل للعقل المستعمل في لسان الثقيلين بمعنى ما يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان اى العقل العملى الموجب لعقال الغرائز الجموحه والاهواء الطاعية. فلنأت بتلك الموانع بلا استيعاب الفرق بين الصنفين منها وان امكن الاشارة الى ذلك اجمالا على وزان ماتقدم في الشرائط.

فمن تلك الموانع بل اهمها هو الجهل بان الوجود على قسمين احدهما غيب والاخر شهادة بزعم انحصاره في الطبيعة المشهودة بالحواس كان هذا هو السبب في أنهم لما سمعوا المعارف الغيبية ساء المعاد زعموا انها امور طبيعية تدرك

١ - التوحيد، ص ٣٥، عيون الاخبار الرضا (ع) ١/١٥١.

٦٦ المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام

بالحواس، فلما لم يجدوها في نشأة الدنيا المحسوسة انكروها، كما اوعز اليه سبحانه بقوله:

واذا نتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا ان قالوا اثنا بآبائنا ان كنتم صادقين قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيمة لا ريب فيه ولكن اكثر الناس لا يعلمون^١

اذ الجهل بان القيامة غيب لا تنال بالحس الدنياوى وانما تظهر بعد تبدل النشأة الدنياوية هو الذى حداهم لذلك الاحتجاج الداحض عند ربهم وهذا هو الجهل المقابل للعلم حسب ذيل الآية به وهو قوله تعالى: ...ولكن اكثر الناس لا يعلمون.

وهذا المانع هو الداء العضال الموجب للإلحاد سيما عند رقى الصنائع ومشاهدة آثارها الطبيعية في الفضاء والبرارى وفي البحار و... حيث ان وليد التفكير المادى ونتائج الحاصر للوجود في المحسوس هو ان الشئى اذا وسم بالموجود فلا بد وان يتطلع عليه بالحاسة سواء في الارض ام في السماء، فاذا لم يحس به في الموضوعين يحكم جزميا بانه معدوم ليس الا... وان الاعتقاد به اسطورة، كما قال فرعون:

يا هامان ابن لى صرحا لعل ابلى الاسباب، اسباب السموات فاطلع الى اله موسى وانى لاظنه كاذبا...^٢.

غافلا عن كون وجود الله سبحانه غيبا لا تدركه الاوهام فضلا عن الحواس وجاهلا عن كونه تعالى:

١- الجائبة / ٦ - ٢٥.

٢- الغافر/ ٣٦.

هو الذي في السماء اله وفي الارض اله^١

فكما انه سبحانه اله في الارض لا يرى بالحس كذلك هو اله في السماء لا يرى بالحاسة فلا يجدى ولا يعالجه الصرح الرفيع، كما لا تنفع المراصد وما اليها من الادوات وجهازات العلوم المادية لان الذي فيضه تعالى داخل في كل شئ حتى الصرح لا بالمجازة وخارج عنه لا بالمزايلة كيف يمكن ان يحيط به الحس المسلح او غيره....!

وحصيلة الكلام: ان الجهل بأن الله سبحانه غيب عن الحواس هو الموجب لتفوه فرعون بمقائمه الشافهة وهو المانع عن معرفة القرآن المنادى بانه تعالى لا تدركه الابصار فشريطة المعرفة عند المنكر المادى الملحد هو- بالذات- رادع عن عرفان الله واسمائه الحسنى الغيبية، كما افاد مولينا الرضا (ع) في جواب من سئله...

«كيف هو اين هو؟» فقال (ع): «ويلك ان الذي ذهبت اليه غلط هو آين الاين بلاين وكيف وكيف بلا كيف فلا يعرف بالكيفية ولا بآينوية ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشئ، فقال الرجل: فاذا انه لاشئ اذالم يدرك بحاسة من الحواس، فقال ابو الحسن (ع): «ويلك لما عجزت حواسك عن ادراكه انكرت ربوبيته ونحن اذا عجزت حواسنا عن ادراكه ابقنا انه ربنا بخلاف شئ من الاشياء»^٢....

نرى الامام (ع) يصارح بان عجز الحواس عن ادراك الله الذي هو غيب منزّه عن اطار الطبيعة هو الذي اوجب انكار القائل باصالته وان معيار المعرفة هو الحس، ولكن العقل المحض لما تبين له ضرورة وجود الحق سبحانه وضرورة

١- زخرف / ٨٤.

٢- الكافي، باب حدوث العالم.

تنزهه عن المادة ولواحقها ولوازمها و ضرورة تجرده عن الطبيعة واحكامها ايقن انه تعالى لا يماثله شئ، واكثر معارف القرآن يحوم حول وجود الرب تعالى واسمائيه الحسنى وجميع ذلك مما تعجز الحاسة عن ادراكها، اذا فن اين يتيسر لذلك المتفكر المادى الذى اقتطع معرفته على الحس القاصر عن عرفانها ان يعرفها ويعترف بها، ومن اين يتمكن ادراك ما قال فى شأنه مولينا الرضا (ع):

...عجزت دونه العبارة وكلت دونه الابصار وضل فيه تصاريف الصفات. احتجب بغير حجاب محجوب واستر بغير ستر مستور عرف بغير رؤية ووصف بغير صورة ونعت بغير جسم لا اله الا الله الكبير المتعال^١.

فتبين بذلك ان الفكرة المادية والجهل بان مقتطع المعرفة ليس هو الحس وحده وان الموجود لا ينحصر فى المحسوس وان الغيب ليس اسطورة نسيجة يد الخيال، هو المانع له عن استماع هتاف النبوة وشهود جمال الوحي واستنشاق رائحة الرسالة وذوق طعم الدين.

ومنها - اى من تلك الموانع - الذنب الملازم لا تباع الهوى وطول الامل، المعبر عنه بالرجس تارة وبالرجز اخرى، الموجب لضيق القلب وختمه ولرين الصدر وطبعه ولزيع الروح وقفله، وذلك لان الذنب حجاب بين الانسان المبطل به وبين الحق الذى من اظهر مصاديقه القرآن، الذى بالحق انزله الله وبالحق نزل، ولانه مقابل للطهارة ومناف للكرامة ومباين للتقوى ومضاد للرفعة ومخالف لاي وصف كمالى قد مر مسبقا فى المقام الاول كونه شريطة معرفة القرآن، فيكون الذنب رادعا عنها، اذ الرجس لامساس له بالطاهر، وكذا اللثامة لاثوم حول الكرامة، والطفوى لا يصاحب التقوى والضعة لا تلائم

١ - الكافي، باب النهى عن الجسم والصور.

الرفعة... وبالجمله: الناقص لا يمس كرامة الكامل مادام ناقصاً، فلذا قال سبحانه:

افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفاها^١

والذى تفيدنا وتحفنا هذه الآية الكريمة، عدا حجية ظواهر القرآن وامكان استنباط المعارف منه وعدا التحريض والترغيب الى التدبر والتأمل فيه، هو ان التدبر فيه انما هو القلب الخلبص المجرد دون الغالب وهو الحس المادى وان له بابا يتفتح تارة ويقفل ويغلق اخرى، وان للقلب قفلا خاصا به يفل، وان الكفر والنفاق وما الى ذلك من الحجب الظلمانية اقفال للقلب مانعة له عن التدبر فى القرآن، وان الايمان والخلوص وما يناظره من الاوصاف الوجودية الكمالية مفاتيح للقلب شارحة له ومصححة لان يتدبر فى القرآن ومااله من الامور المستنبطة منها لولا الذنب الحاجب المعداد قفلا للقلب، ولكن المذنب اذالم يتبل بالجهل المتقدم المقابل للعلم ولم يعتقد بان المعيار الفريد للمعرفة هو الحس وان الوجود ينحصر فى المحسوس وان الغيب اسطورة وخرافة لا وجود وحقيقة له وتدبر هذا المذنب فى القرآن... يعرف المقدار اللازم من المعارف القرآنية، وتم عليه الحجة وان لا يوفق لنبل المعارف العالية منه ولا يتفتح له باب الغيب لكى يشاهده كفاحا بالقلب، وذلك لان الذنب بما هو ذنب لو كان مانعا عن ادراك النصاب اللازم لما قامت الحجة على الكفار والمنافقين اذ المفروض انهم لذنبهم لم يعرفوا مودى ما يحتاج به القرآن على التوحيد ونفى الشرك وما اليهما. ولو فرض توقف العلم بالحق على الايمان به وترك الذنب لدار الامر.

وعليه فالمراد من مانعية الذنب هوان المذنب لما ولى وجهه شطر الباطل واشتاق اليه واغتربه لايميل طبعاً الى التدبر في القرآن الهادى له الى الحق والابتهاج به والاتقاء عن الباطل والغروره، ولعل ذلك هوالموجب لبعض المذنبين ان يجعل اصبعه فى اذنه ويستغشى ثوبه حتى لا يسمع دعوة نبيه، كما حكاه الله عن قوم نوح فى قوله تعالى:

...والى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا استكباراً^١.

ومن هذا القبيل قوله تعالى:

الا انهم يشنون صدورهم ليستخفوا منه الا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون انه علم بذات الصدور^٢.

لان منشأ هذا الاختفاء (تارة) الجهل بان الوجود ليس منحصراً فى المحسوس وان الغيب ليس باسطورة (وتارة) اخرى الاشتمزازو الانزجار عن استماع الحق كانهقباض المزكوم من رائحة المسك . والى بعض ما ذكر يوعز كلمة الامام الرضا (ع) فى الذين رغبوا عن اختيار الله واختبار رسول الله (ص) واهل بيته الى اختيارهم: والقرآن يناديهم:

وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون^٣.

وقال تعالى:

افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفاها^٤

١- نوح/٧.

٢- هود/ ٥.

٣- قصص/ ٦٨.

٤- الكافى، باب نادر جامع فى فضل الامام وصفاته ٢٠١/١.

حيث انه (ع) استدل بان اقفال القلوب وذنوبها هي التي منعتهم عن التدبر في الايات الدالة على ان تعيين الامام ونصبه ليس بايديهم واختيارهم ولو انهم تدبروا فيها لعلموا ان تعيينه (ع) انما هو بخيرة الله سبحانه. وكما ان الذنب والرجس والرجز والدنس وما الى ذلك من العناوين الدارجة في لسان الثقلين تمنع عن التأمل في نظام الكيان والتفكر في الايات التكوينية، كذلك تحجب عن التدبر في فحاوى الايات التدوينية والاستنباط منها، كما قال مولينا الرضا (ع) في جواب من قال:

... فلم احتجب؟ - اى الله سبحانه -: ان الاحتجاب عن الخلق لكثرة ذنوبهم فاما هو فلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار.

يعنى (ع) ان الذنب حجاب عن المشاهدة الفكرية لقوم والمشاهدة القلبية لقوم آخرين اذ الفطرة التي فطر الله الناس عليها شاهدة للمحق حاكبة اياه، والذنب غبار على هذه المرأة الصافية فهو - اى الذنب - حجاب مانع عن المعرفة الفطرية من جهة وعن المعرفة الفكرية من جهة اخرى وعن المعرفة الشهودية الكاملة من جهة ثالثة، فلذا يصح استناد الحجب اليه في مباحث شتى. ويمكن الفرق بين الجهل والذنب بان الجهل مانع عن المعرفة والذنب مانع عن الاعتراف. والجهل حاجب عن التعليم والذنب حاجب عن التزكية. والجهل مغلاق القلب عن الحكمة والذنب قفل له عن العظة وداع الى الغفلة... وما الى ذلك، مما يرجع احدهما الى العقل النظري والاخر الى العقل العملي مع ماله من المساس التام والتلازم في غير مورد، وبما ان القرآن: يدعوا الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل الناس بالتي هي احسن مع الصلة الانبثق بين هذه الطرق، فلكل منها شريطة تصحح تحققه ومانع

يصد عنه ويمتنعه فالجهل اشد منعا عن العلم والحكمة النظرية والذنب اغلظ حجبا عن العظة والحكمة العملية، كما وان الحمية الجاهلية هي الخالقة للدين المانعة عن الجدال الاحسن اشد منعا، وكما أن الصمم مانع عن استماع الهاتف والاصوات وان العمى حاجب عن النظر في المصحف وان الخرس مانع عن القراءة، كذلك صمم الصدر وعمى القلب وخرس النفس مانع عن الادراك حاجب عن الاذعان وصاد عن الاتعاظ والتزكية وما الى ذلك من الاهداف العالية للرسالة.

والى ذلك يشير كلمة مولينا الرضا (ع):

...ولكن القوم تاهوا وعموا وصموا عن الحق من حيث لا يعلمون وذلك قوله عز وجل «ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا» يعنى اعمى عن الحقائق الموجودة الى ان قال (ع) وانما اختلف الناس في هذا الباب حتى تاهوا وتحيروا وطلبوا الخلاص من الظلمة بالظلمة في وصفهم الله بصفة انفسهم فازدادوا من الحق بعدا ولو وصفوا الله عز وجل بصفاته ووصفوا المخلوقين بصفاتهم لقالوا بالفهم واليقين ولما اختلفوا لما طلبوا من ذلك ما تحيروا فيه ارتبكوا والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم^١.

لأن الذى يفيدنا ويتحفنا بيانه الاثنيق هو: ان التيه والعمى والصمم كما يعترض السمع والبصر وغيرهما من الحواس الظاهرة كذلك يعترض للقلب والبصيرة ونحوهما من المشاعر الباطنية وأن الجهل بما هو معيار المعرفة موجب للتحير والتبعد من الحق فى معرفة ان الله تعالى موجود مطلق محيط بالدنيا والاخرة، وانه ليس كمثله شئ وانه واحد لا شريك له ولا ثانى

له حتى يقيمه او يعضده ويمسكه اذ الخلق يحتاج الى من يقيمه ويمسكه دون الخالق الغنى المحض. والغرض هو ان لمعرفة القرآن الباحث عن الغيب شرطا يصححه ومانعا يصدعنه وهؤلاء الجهال لما اخلوا بالشرط تاهوا وعموا وصموا ولوانهم لم يخلوا به لوصولوا الى الفهم واليقين. وليبانه (ع) فوائد جمة نشير اليها في المباحث المقبلة انشاء الله تعالى.

وكل ما افاده (ع) يستفاد من القرآن الدال على ان نزول البركات العينية والعلمية مشروط بالتقوى واخلاص العمل لله وممنوع بالذنوب والاعراض عن ذكر الله ونحو ذلك، فكما أن التقوى شريطة انفتاح ابواب الرزق العيني، حيث قال سبحانه:

ولوان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض
ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون^١

كذلك شريطة لانفتاح ابواب الرزق العلمى كما قال تعالى:
ان تقوا الله يجعل لكم فرقا^٢....

وكما ان التكذيب والطغيان يمانع عن انفتاح ابواب الرزق الغينى،
حيث قال تعالى:

.... ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون .

كذلك يمانع عن تفتح ابواب الرزق العلمى التى من اهمها وانفعها
هو معرفة القرآن، كما قال تعالى:

سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وان يروا كل

آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بانهم كذبوا باياتنا وكانوا غافلين^١.

وقال ايضا:

.... صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون^٢

وهذا هو قفل القلب الرادع عن التدبر في القرآن على حد استدلال مولينا الرضا (ع): لبيان كون الامامة بالنصب والتعيين لا الاختيار والتوكيل بقوله تعالى:
افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفاها^٣.

لظهوره في ان للقلب قفلا يمنعه عن إدراك الحق وعرفان القرآن، ومن الممكن ان يستفاد من هذه الكريمة ان الحرمان عن الرزق العلمي مساند الى قفل القلب وانغلاقه لا الى غلق باب الرحمة الالهية لانه مفتوح على الدوام ومنه نزول الفيض العلمي كالعيني دائما ابداء، وانما التفاوت من ناحية القابل دون الفاعل، فهو سبحانه دائم الفيض على البرية وان كان المذنب مقفول القلب محروما منه، فهو وان فرح بما عنده من العلم وحسب انه يحسن صنعا، بيد انه في حجاب وكنان لا يشعر هو به وهذا الكنان من القابل بسوء اختياره ونوافي بيانه فيما يلي:

تبصرة: في بيان كيفية استناد ختم القلوب الى الله سبحانه

ان لكل موجود لا يكون وجوده عين ذاته سببا به يتحقق ويمتنع دونه وان كل سبب فهو مفتاح مسببه، به ينفتح وبدونه لا انفتاح له بل لا يزال على غلقه

١- الاعراف / ١٤٦.

٢- التوبة / ١٢٧.

٣- محمد (ص) / ٢٤.

وان سلسلة الاسباب تنتهى الى مسببها الذى هو الله سبحانه وان بيده تعالى مفاتيح السموات والارض ومقاليدها فاذا اراد امرا اجراه بسببه الذى هو مفتاحه الخاص واذا لم يرد شيئا لا يفتح باب سببه المخصوص ولا مرّة لارادته بالفتح ولا راد لعدم ارادته به، كما قال سبحانه:

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو^١.

يعنى تعالى ان المخازن وكذا مفاتيحها الغيبية مشهودة عنده ومقدورة له لانه:

هو الفتح العليم^٢.

فيهدف تعالى انه عالم بالمخزون ومفتاحه ومورد لزوم فتحه وموارد عدم اللزّام لفتحته، كما قال تعالى:

له مقاليد السموات والارض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شىء عليم^٣.

وقال تعالى:

ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا يرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم^٤.

لظهوره فى ان ارادته تعالى نافذة باطلاقها بلا مرّة لها اصلا وان الفتح امر وجودى يوجب ارسال الرحمة الخاصة وان الذى يقابله امر سلبى يعبر عنه بالامساك ، اى عدم الارسال لا ارسال العدم وما اليه وهذه الامور مستفادة من

٣- التورى / ١٢.

٤- فاطر / ٢.

١- الانعام / ٥٩.

٢- ساء / ٢٦.

نطاق القرآن الكريم في غير محل، كما ويمكن ان نتعرض لها في المواضيع المقبلة.
والغرض ههنا هوان القلب بما له من الاوصاف الخاصة امر ممكن مسبب
فله سبب خاص به ينفتح ويستفيض من الخبرات وبدونه لا ينفتح وينحرم منها،
وذلك السبب الذي هو مفتاح القلب ومفتاح اوصافه الكمالية انما هو بيده
سبحانه، فلواراد ان يفتحه فتحه وشرحه وقذف فيه العلم والايمان وما الى ذلك
وان لم يردان يفتحه اغلقه وختم عليه واقفله وصرفه عن معرفه الآيات...
ونحوها، كل ذلك بمشيته التي هي عين الحكمة والصواب بلا جزاف وظلم
اصلا.

فالمذنب رغم حجبه والكنان في قلبه... باعتراف منهم - كما نقره
في الآية:

وقالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقرا^١.

لكن ذلك الكنان يجعل الهى، كما قال تعالى:

وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا^٢

وكذا قلبه، فانه رغم ختمه، انما هو مختوم بختم الهى، كما قال تعالى:

افرايت من اتخذاه هواه واصله الله على علم وختم على سمعه وقلبه^٣

لانه ينختم بذاته او يكون العامل في الختم هو المذنب بنفسه او غيره من سائر
الموجودات الامكانية اذ الفرض الاول - اى كون الانختم قد حصل بنفسه من
دون سبب اصلا - يصادمه النظام العلى الحاكم بان كل شى لا يكون وجوده
ولا عدمه عين ذاته - بمعنى انه لا يكون واجب الوجود بالضرورة الازلية ولا ممتنع

١- فصلت / ٥.

٢- الانعام / ٢٥.

٣- الجاثية / ٢٥.

الوجود كذلك - فهو مساند في كلا طرفي وجوده وعدمه الى السبب ليس الا، وعليه: فكما انه لا يكون انفتاح القلب وانسراح الصدر بلا سبب، كذلك لا يكون الختامه وتضييقه بدون سبب.

(واما) الافتراض الثاني - اى استناد الختم الى المذهب ذاتيا اوالى غيره من الموجودات الامكانية بلانتهاء الى الله سبحانه - فهذا ايضا يطارده الاصل المبرهن عليه في النظام العلى، من لزوم انتهاء سلسلة العلل الوجودية الى مسبب الاسباب بالذات ولزوم انقطاع سلسلة العلل الفاعلية العدمية اليه تعالى بالعرض اذ لا يمكن ان يكون وجود شئى مساندا الى علله الطولية المنتهية اليه تعالى ولا يكون عدمه مستندا الى فقد علله المنتهى فقداها الى امساك الفيض وعدم صدوره منه تعالى، لان لكل شئى سببا خاصا هو مفتاحه وجميع الاسباب والمقاليده بيده سبحانه، فيكون الفتح بافاضته تعالى والختم بامساكه عنها و كل ذلك بمشيئته الحكيمة المقتضية لان لا يضل احدا ولا يختم على قلبه اصلا ولا يجعل قلبه فى كنان تباتا الا مجازاة ومعاقبة لا بدثيا، وهذا على خلاف من هدايته وشرحه للمصدر وما الى ذلك من المن الإلهية لأنها كماتكون بعنوان الجزاء الحسن كذلك تكون بعنوان المنه البهائية واللفظ الغير المستبق بالعمل وان كانت جميع نعمه ومنته بدائيا.

وهذا البيان يعلم بوضوح معنى قوله تعالى:

فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره صيقا حرجا كما انما يضيق في الساء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون^١.

لأن ظاهرتة ان تضيق الصدر كشرحه - بالذات - بيده سبحانه، كما وان ظهوره في ان شرح الصدر نعمة الهية مطلقة غير مقيدة بالاستحقاق لامكانه تارة بعد الارتياض والهمل الصالح وتارة اخرى قبله. واما تضيق الصدر فهو عقوبة الهية مقيدة بالعمل السيئ فالمعرض عن ذكر الله بعد قيام الحجة البالغة عليه وامهاله سبحانه اياه ليتوب ويراجع الى مبدأه الفاطر البديع والمصر على ذلك الاعراض بسوء اختياره، فسانه الذي يجعل صدره ضيقا حرجا ويجعل عليه هذا الرجس لانه هو ذلك الغير المؤمن بالآيات. كما قال سبحانه:

... كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

يعنى تعالى ان ضيق الصدر وكذا الضلال المترتب عليه رجس يجعله بيده تعالى، بيد ان الله لا يجعله الا على الذين لا يؤمنون، فهو تعقيب لعلمهم السيئ وعقوبة لهم ومعنى جعل الرجس على احد وكذا معنى جعل صدره ضيقا ومعنى الاضلال ليس الا عدم ارسال الرحمة وعدم فتح باب النعمة... كما بينه قوله تعالى:

... وما يسلك فلا مرسل^٢

لانه امر وجودى يفيضه الله، ومجرد اسناد الفعل الى هذه العناوين لادلالة له على انها حقائق وجودية لان كون شئى خاص امرا وجوديا او عدميا - اى انه موجود فى العالم او ليس بموجود بل ينتزع من فقد امر وجودى - انما هو واقعية عقلية لا بدله من برهان عقلى يدل على كل واحد من الطرفين.

فمثلا: الجهل الذى يقابل العلم امر عدمى هو عدم العلم بشئى فلو قيل فى

١- الانعام/ ١٢٥

٢- فاطر/ ٢.

العرف الدارج «زيد جاهل» او اصابه جهل او ابتلى بالجهل وما الى ذلك فانه لا يمكن ان يستظهر منه ان الجهل امر وجودي لان المطلوب عقلي لالفظي، مضافا الى ان العرف ايضا بعد عتوره على عدمية غير واحدة من الصفات يعامل معها معاملة السلبيات ويجعل السلب مضمنا فيها فعندئذ تكون قضية زيد جاهل -عند العرف- قضية موجبة معدولة المحمول لانها موجبة محصلة وان كانت على مصاغها (تدبر) فاذا تبين لك ايها القارئ العزيز ان لفقه القرآن شرطاً يصححه ومانعا يحجب عنه واستبان لك ان الجهل والذنب وما يؤول ويتصل اليهما يمانع عن التدبر في القرآن ويحجب عن فقهه فقد ظهر لك اذا معنى قوله تعالى:

فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً!

وقوله سبحانه :

لهم قلوب لا يفقهون بها!

وقوله تعالى :

ولكن المنافقين لا يفقهون^١.

وكذا معنى قوله عز من قائل :

وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون^٢.

حيث استدلل ببعض هذه الايات وما يضاهاها مولينا الرضا (ع) : في احتجاجه حسباً مرثقه مسبقاً^٣.

١- النساء/ ٧٨.

٢- الاعراف/ ١٧٩.

٤- التوبة/ ٨٧.

٣- المائفون/ ٧.

٥- الكافي.

وكذا يظهر ان كل ما يمنع الانسان عن اصل التدبر في القرآن ويجعله فاراً منه منزجراً عنه، او يمانعه عن الفقه وان تدبره، واستمع القرآن وانصت اليه فهو رجس، وان كل من بلى بمقدار منه فهو بذلك القدر بالذات محجوب عن التدبر والتفقه... وكل من برء منه رأساً وتنزه من جميع انحائه واقسامه التي تتصل الى العلم او العمل فهو الحرى بان يتدبر في القرآن ويتفقهه، وأن العنة الظاهرة -سلام الله عليهم اجمعين- هم الذين اذهب الله عنهم الرجس على اطلاق الكلمة، وطهرهم تطهيراً تاماً لا يشوبه شئ من الرجس ابداً.

حيث انه تعالى عبر عن هذا الفيض المتواصل بصيغة المضارع الدالة على انه تعالى دائماً وابداً يشرح صدور هولاء السادة ويفتح قلوب هولاء القادة ويرسل فضله الواصب على هولاء الساسة ويذهب الرجس عنهم ويطهرهم تطهيراً وان المعصومين (ع) هم الذين تحلوا بحلّة جمع شرايط معرفة القرآن وتحلوا نهائياً عن جميع موانعها، فهم العارفون للقرآن حق معرفته والمتدبرون فيه حق تدبره والذين يمسونه حق مساسه والراسخون في العلم وابواب الحكم وانوار الظلم، وهم عبث العلم وموت الجهل وهم اساس الدين وعماد اليقين وكرائم الايمان وكنوز الرحمن وامناء الله على عبادته ومقيموا الحق في بلاده والشهداء على الخلق وقوام الله وعرفاؤه على عبادته وهم اقاموا عمود الحق وهزموا جيوش الباطل^١.

كما نقل مولينا الرضا (ع) عن جده ابي عبد الله (ع) انه (ع) قال:

انا من الذين قال الله في كتابه : اولئك الذين هدىهم الله فبهم

اقتد^٢.

١ - الفرر والدرر للآمدى، ٧/٣-٢١.

٢ - مسند الامام الرضا (ع)، ١/٣٣١.

وقال الامام الرضا (ع):

اذا نزلت بكم شدة فاستعينوا بنا على الله وهو قول الله ولله الاسماء
الحسنى فادعوه بها^١...

وقال (ع) في قوله تعالى:

يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا
مع الصادقين، الصادقون هم الائمة والصادقون يطاعتهم^٢.

وقال (ع) في قوله تعالى:

وعلامات وبالنجم هم يهتدون، نحن العلامات والنجم رسول
الله (ص)^٣.

الجنة الثانية: في بيان المائزتين التدبر في القرآن وبين استنطاقه

قد استبان للمطالع الكريم في الجنة الاولى ما هو شريطة معرفة القرآن
وما هو المانع عنها وقد لاح مسبقا ان القرآن جبل الله الذي احد طرفيه بيده
سبحانه والطرف الاخر بيد الناس فلا حجة محتواه ولا انقطاع لنطاقه، ومن المعلوم
ان معرفة كتاب مثل هذه لها درجات تجاه مراتبه نفسه. فالقدير عليه هو من
اجتمع فيه الشرايط العامة وزال عنه الموانع وهو التدبر فيه واستنباط العقائد
الحقة الموافقة للبراهين العقلية منه، وكذا استظهار الاحكام العملية ونحوها منه.
واما الملاحم والاخبار الغيبية والتاويل وما الى ذلك من العلوم القرآنية

١- مسند الامام الرضا (ع)، ١/٣٣٥.

٢- مسند الامام الرضا (ع)، ١/٣٣٩.

٣- مسند الامام الرضا (ع)، ١/١٤١.

التي لا تستنبط من الالفاظ ولا تستظهر من الاقوال ولا تحكيه العبارة ولا ترشد اليه الاشارة فلا يتمكن من استفادتها بمجرد التدبر فيه، اذ المتدبر لا يستغل منه الا على قدر ما يدل عليه ظاهرتة وان ضم بعضه ببعض وجعله مفسرا لذلك البعض الآخر، واما ما هو خارج عن نطاق الظاهرة اللفظية فلا يتمكن من استنباطه منه اذ المتدبر انما يغور فيما نطق به القرآن، واما فيما اضمره ولم ينطق به فلبس في وسعه ان يتأمل فيه، ومثله في عمله هذا كمثل انسان لبيب يحمل اسراراً شتية لا يفشيها الا للخواص من اصحاب سره ولا يتكلم للناس الا ببعض الامور المثمرة لهم ولا يستفيدون منه الا على قدر ما يتكلم وهم غافلون عن سره ولبه، جاهلون عما في خزانة صدره.

واما اصحاب سره فهم العريفون بانه حامل لأسرار لذلك فانهم يستنطقونه بكثير وعلى التواصل لكي يبرز ما في ضميره ويخرجه من الغيب الى الشهادة او يهدي اصحابه الى باطنه ويسايرهم من الظاهرة الى الباطن ويعرجهم من اطار الشهادة الى صعيد الغيب حتى يقفوا على مكنون ضميره، ثم يستمدون مما اطلعوا عليه لبسائله مرة اخرى ويجعلوا ما وقفوا عليه مدرجا لما لم يعثروا عليه وهكذا... الى ان يتطلعوا على باطنه كطلعهم على ظاهرتة وعلى سيرته كصورته وعلى قلبه كقالبه وعلى تاويله كالتفسير وعلى متشابهه كالحكم وعلى غيبه كالشهادة... وهذا هو المايز الرئيسى بين فقه القرآن بالتدبر فيه وبين فقهه باستنطاقه. لان المتدبر الذى لا يستطيع استنطاقه كالعطشان الغير المقتدر الا على التروى من خصوص الماء النابع الجارى من العين على وجه الارض دون سائر المياه المختزنة فى المنبع، وهذا على خلاف من المستنطق لانه ذلك المتعطش العليم المتطلع بما فى خزانة الارض القدير على انطاقها بالحفر واطهار ما فى باطنها على ظهرها واجراء ما كان راكدا وسقى العجاوات به... وما الى ذلك.

وبما إن بين الظاهرة الجارية والباطنة المختزنة صلة تامة فلا يتمكن المتدبر الفاقد لطوق الاستنطاق ان يكتفى بنفسه ويحيد عن القادر على الاستنطاق في استنباط البطين كما يظهر بعد. والاصل في هذا الفارق هو ان القرآن ندب الناس الى التدبر فيه وحثهم اليه ووبخهم على تركه وعيّرهم على هجره، حيث قال سبحانه:

افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفاها^١

فبيدنا ذلك ان القلب النزيه عن الجهل والذنب وما اليه من الاقفال قدبر على التدبر فيه كما مر معنا... لكن القرآن العيني -اي الامام المعصوم (ع) الذي لا يفترق عنه كما لا يفترق القرآن العلمى عنه وهو امير المؤمنين (ع)- نطق: بان القرآن لا ينطق مع الناس وليسوا قديرين على استنطاقه والذي يقدر على ذلك والقرآن ايضا ينطق معه انحصاريا هو الامام المعصوم (ع)، حيث قال (ع):
ارسله (ص) على حين فترة من الرسل وطول هجمة من الامم وانتفاض من المبرم فجاءهم بتصديق الذي بين يديه والنور المقتدى به ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن اخبركم عنه الا ان فيه علم ما ياتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم^٢.

لأن ظاهرة كلامه يعطى ان القرآن رغم كونه نورا وقدوة يقتدى به بلا ظلام، لكنه في ذات الوقت في غاية من الشدة والاشراق بحيث لا يقتدر احد على النظرة الكاملة اليه، سوى الانسان الكامل المعصوم (ع) الذي بينه وبين الله سبحانه عمود نورى كما مر مسبقا. واما سائر الناس فليس في وسعهم الا النظر اليه من وراء حجاب الالفاظ والمفاهيم والصور الذهنية ونحوها... لذلك

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

١- محمد (ص) / ٢٤.

فلا يصلون الى ما في سره من الملاحم وما في بطنه من الانباء الغيبية اذ العثور بها يتوقف على العبور والنزوع من التدبر الى الاستنطاق وآتى لهم ذلك .
وكذا يتوقف على تنزل القرآن من مقام السرا الى منصة العلن بان ينطق عما في مكنونه وهيات له ذلك بالنسبة الى من يؤهل له ومرجع الحجاب هنا الى شدة نورانية القرآن وضلالة عقول الناس الذين اقصى حظهم هو التدبر فيه دون استنطاقه المتوقف على كمال الطهارة، وذلك لان القرآن له ظاهرة اتيق يفهم بالتدبر وباطنة عميق لا ينال به بل لا بد من نطقه به ولا يمانع عمق بطونه عن التدبر في ظاهرته الانيقة والاستدلال به كما اوعزاله امير المؤمنين (ع) بكلمته:

فانظر ايها السائل فاذلك القرآن عليه من صفته تعالى قائم به واستضيئ بنور هدايته^١

اذا لاثتمام بمدلول القرآن اماره حجية ظاهرته وامكان التدبر فيه واستنباط ظواهره منه... لذلك فقد ندب الناس الى التفقه فيه حيث قال (ع):
... وتعلموا القرآن فانه احسن الحديث وتفقهوا فيه فانه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فانه شفاء الصدور واحسنوا تلاوته فانه اتفع القصص^٢.

وهكذا رغبهم في الانتفاع بنصحه والاهتداء بهداه واستماع حديثه الصدق، حيث قال (ع):

واعلموا ان هذا القرآن هو الناصح الذي لا يفسد والهادي الذي لا يضل واخذت الذي لا يكذب وما جالس هذا القرآن احد الا قام عنه بزيادة او نقصان زيادة في هدى او نقصان من عمى...^٣.

١- نهج البلاغة، الخطبة، ٩١/.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١١٠. . ٣- نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

وبما أن التدبر في القرآن مرغوب فيه واستنباط الاحكام منه ميسور للناس مطلوب منهم اوصى (ع) الحسن والحسين وجميع ولده واهله ومن بلغه كتابه بتقوى الله ونظم امرهم وصلاح ذات بينهم... وبالعمل بالقرآن المتوقف على التدبر والاستنباط منه كما قال (ع):
... الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم^١.

والغرض ان فقه التدبر في القرآن هو مادون فقه الاستنباط منه اذ التدبر انما يستفيد منه مانبع وبرز من الغيب الى الشهادة دون الزائد عليه. واما المستنطق فهو يقتدر على الاستنباط واستغلال ما في مخزن غيبه واخراجه الى الشهادة بحيث يراه هو ولا يراه غيره، لان القرآن انما ينطق سرا ويناجي خفية مع من استطاع ان ينطقه ويستمع منطق له غيره فهو وان كان مقيسا الى ظاهراته الانيقة ناطقا للواجد لشرائط التدبر والمحتفظ عن موانعه، لكنه صامت بالنسبة الى باطنه العميق، لا ينطق بمقال ولا يحدث بحديث الا عند استنطاقه فمن اقتدر على ذلك وصلح له فهو ينطق -حينئذ- معه من بطينه المكنون ويحدث من ضميره المستور، لذلك فقد وصفه امير المؤمنين (ع) بقوله:
... فالقرآن أمر زاجر وصامت ناطق حجة الله على خلقه^٢...

ومن المعلوم ان مستنطق القرآن العلمي لا بد وان يكون بنفسه قرآنا عينيا كما امر معنا غير مرة، لكي يتيسر له الانطاق ويتمكن من سماع نجواته واستماع حديث نفسه وهم العترة الطاهرة الذين عطفوا الهوى على الهدى لما عطف الناس الهدى على الهوى، والعاطفون للرأى على القرآن لما عطف الناس القرآن

١- نهج البلاغة، الخطبة ٤٧.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.

على الراى.

وحيت ان القرآن فى عين كونه ناطقا بظواهره لتدبريه وتكون تلك الظواهر حجة عليهم، هو فى ذات الوقت صامت ببواطنه بالنسبة اليهم فلا بد له من ترجان يستنطقه ويخرج باطنته من المغيب الى الشهادة، لذلك فقد قال . على (ع):

هذا القرآن انما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجان وانما ينطق عنه الرجال^١...

اذليس مراده (ع) سلب حجية ظاهرة القرآن والالسقط الاحتجاج به على الخصم ولكن نفس هذا القول مخالفا للقرآن الذى يهتف بامكان التدبر فيه والاستنباط منه ومن المعلوم ان الخبر المخالف للقرآن مردود، كما ياتى عن مولينا الرضا (ع)، بل مراده (ع) ان بعض مطالب ومواضع القرآن ظاهر يتمكن من نبه بالتدبر فيه، وجانب منه لبس مما ينال ويظهر منه بل مبطن فيه لا يتمكن من نبه الا بانطاقه، وليس ذلك الانطاق الا فى وسع الترجان الالهى وهو الانسان الكامل المعصوم حسبا تقدم نقله حيث قال (ع):

... ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن احبركم عنه^٢.

وبما ان العترة الطاهرة هم القديرون على انطاق القرآن واستماع نجواه والعتور لما فى مستكن ضميره وهم الترجان له، فلزام على الناس ان يراجعوا اليهم كما يلزم لهم - بالذات - الرجوع والاتصال الى القرآن، لانها لن يفترقا، لذلك نراه (ع) يقول:

١- نهج البلاغة، الخطبة ١٢٥.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

فاين تذهبون، وانى تعرفكون والاعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة، فاين يتاه بكم وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم، وهم ازمة الحق واعلام الدين والسنة الصدق، فانزلوهم باحسن منازل القرآن وردوهم ورد الهيم العطاش^١.

والسبب في كونهم (ع) هم الترحان للقرآن المستنطقون له دون ماعداهم هو ان منزلتهم هي احسن منازل القرآن، لان جميع مدارجه ومنازله من لدن حكيم عليم إلى ان يتنزل إلى عالم اللفظ والعبارة العربية وان كانت حسنة جميلة الا ان في بينها امتيازاً لا محالة بما يكون اعلاها احسنها لانه أقرب إلى العليم الحكيم، ولما كان منازل العترة الطاهرة احسن منازل القرآن، لذلك فهم يعلمون اسراره وضمائره قديرون على انطاقه واخراج ما في غيبه الى الشهادة.

وبما مر معنا من الميزبين فقه القرآن تدبراً وفقهه استنطاقاً يلوح للمطالع الكريم معنى قوله مولينا الرضا (ع) حينما سأله المامون يقوله:

اخبروني عن معنى هذه الاية: «ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا»... الاية- فقالت العلماء اراد الله الامة كلها فقال المامون ماتقول يا ابا الحسن فقال الرضا (ع):

لا اقول كما قالوا ولكن اقول اراد الله تبارك وتعالى بذلك العترة الطاهرة وقال المامون وكيف عني العترة دون الامة فقال الرضا (ع): لو اراد الامة لكانت باجمعها في الجنة لقول الله، فمن ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير جعلهم في الجنة فقال عز وجل جنات عدن يدخلونها فصارت الورثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم ثم قال الرضا (ع): هم الذين وصفهم الله في كتابه فقال: انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا. وهم الذين قال رسول الله (ص): انى تخلف فيكم الثقلين

كتاب الله وعترتي اهل بيتي لن يفترقا حتى يردا على الحوض انظروا كيف
تختلفون فيها يا ايها الناس لا تعلمونهم فاهم اعلم منكم...

الى ان قال الرضاء (ع): ان الله العزيز الجبار فضل العترة على سائر الناس
في محكم كتابه قال المامون: اين ذلك من كتاب الله، فقال الرضاء (ع): في قوله تعالى
ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها
من بعض.

وقد استدل (ع) بغير واحدة من الايات على ان العترة الطاهرة هم ورثة
الكتاب وصفوة الله وهم الذين قرنهم الله سبحانه بنفسه وبرسوله في سهم
الغنيمة

انما غنمتم من شئى فان لله خمسة ورسوله ولدى القرى.

وفي الطاعة

... اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم .

وفي الولاية

انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة
وهم راکعون...

فتبارك الله ما اعظم نعمته على اهل هذا البيت فلما جاءت قصة الصدقة
نزه نفسه - عز ذكره - ونزه رسول الله (ص) ونزه اهل بيته منها، فقال:
انما الصدقات للفقراء^١

فليكن ما قدمنا من البحث شرحا لهذه الكلمات النورية الرضوية - على

الناطق بها صلوات الله وملائكته..

وحيث امتاز تدبر القرآن عن استنطاقه وتبين جلياً ان المتدبر فيه بمنزلة المستمع فقط فلا يقتدر على التكلم مع القرآن وانطقه وان المستنطق ليس مستمعاً فحسب بل هو في حوار معه يحاوره ويشاوره وينطقه ويسئله ويستجيبه ويعارض المشاكل عليه ويستدعيه حلها ويسئله من فضله ويعتصم به فيرقى معه درجة بعد درجة حتى يرجع الى ماصدرا منه ويصعدا اليه سبحانه ويختفيا فيما ظهرا منه كما هو قضية المعية المطلقة الآتية عن الانفكاك في مرتبة من المراتب نزولاً وصعوداً وأن سائر الناس وإن امكن لهم التدبر في القرآن لكنه في ذات الوقت لا يتيسر لهم استنطاقه وان المستنطق هو الانسان الكامل المعصوم (ع).

فبعد ذلك ب كله... يتبين بالضرورة حاجة الناس اليه وان العترة الطاهرة الذين هم كُمل الانسانية وورثة الكتاب العزيز واهل الذكر الذين يجب على الناس سؤالهم وهم السابقون بالخيرات وما الى ذلك من المسامات الكاملة التي قررها الله في كتابه للاوحدى من الناس. وقد بين مولينا الرضا (ع) مصاديق ذلك في قوله (ع):

نحن اهل الذكر ونحن المسؤولون. قال الوشاء: قلت له (ع): فانتم المسؤولون ونحن السائلون؟ قال (ع): نعم قلت: حقاً علينا ان نسألكم؟ قال (ع): نعم قلت: حقاً عليكم ان تجيبونا قال (ع): لا ذلك البنا ان نشأ فعلنا وان لم نشأ لم نفعل، اما تسمع قول الله تبارك وتعالى: هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب^١.

ومعنى قوله (ع): «ان شئنا فعلنا و ان لم نشأ لم نفعل»

١- الكافي، باب آت اهل الذكر الذين امر الله الخلق بسؤالهم هم الائمة (ع).

هلالتخسير فى غير مسورد ببيان الحكم وتبيين التكليف والا فلا مجال هناك للتخير مع افتراض لزوم التعليم او الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وما الى ذلك ، كما يلىح ذلك من الاستشهاد بقوله تعالى هذا عطاؤنا... الناظر الى العطايا المندوبة، اذ هناك يكون النبو فى خبرة بين المن والاعطاء وبين عدم المن بالامساك لافى اصل الحكم وبيان الرسالة، وهكذا بين مولينا الرضا (ع) مصاديق ما تقدم من الاوصاف الكمالبة فى قوله (ع):

لما ساله احدى بن عمر عن قول الله عز وجل: ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادى - الآية.

فأنه قال (ع):

ولدفاطمة (ع) والسابق بالخيرات الامام والمقتصد العارف بالامام والظالم لنفسه الذى لا يعرف الامام^١.

وحيث استبان المايز الجوهرى بين التدبر فى القرآن وبين استنطاقه يظهر التمايز بين تفسير المتدبر فيه وتفسير الامام المعصوم (ع) المستنطق له، لان المتدبر انما يعرفه باسمه ورسمه ووساماته الدالة على محتواه بالظن الغالبى والمستنطق انما يعرفه بحده ومقومات فاعليته وعلله المفيضة اياه جزميا وبالقطع، كما قال الحسن بن على (ع):

نحن حزب الله الغالبون وعتره رسول الله الاقربون واهل بيته الطيبون الطاهرون وأخذ الثقلين الذين خلفها رسول الله (ص) فى امته ثانى كتاب الله الذى فيه تفصيل كل شىء لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فالعول علينا فى تفسيره لانتظن تاويله بل نتيقن حقايقه فاطيعونا فان طاعتنا مفروضة

١ - الكافى، باب ان من اصطفاه الله من عبادى واورثهم كتابه هم الائمة (ع).

اذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة^١...

واما سرصيانة القرآن عن تطرق الباطل من الامام والخلف هو ان الله تعالى سلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم ان قد ابلاغوا رسالات ربه كَمَا تَقْدَمُ فِي الرُّوضَةِ وَسَرِيقِينَ الْعَتَرَةَ الطَّاهِرَةَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الْمَعْيَةُ الْمَطْلُوقَةُ الْمُقْتَضِيَةُ لِأَنَّهُ لَا يَنْفَكُ الْقُرْآنُ عَنْهُمْ فِي دَرَجَةٍ مِنْ مَدَارِجِهِ وَلَا يَنْفَكُ وَاعْنَهُ فِي مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِ... لذلك فهم يعلمون جميع ما فيه علم عيان ويخبرون عن ذلك خبرا لا يراب فيه، فلا بد اذًا من الاعتماد عليهم في فقهه والركون اليهم في تفسيره والثقة بهم في تاويله وسؤالهم عن باطنه وقضية هذه المعية هو التعامل مع سنة العترة الطاهرة معاملة القرآن الكريم في جميع الشؤون بأن يراجع في فقه مآثرهم الى القرآن وتعرض عليه حتى لا تكون مخالفة له مباينة اياه ولا تتعدى طور التبيين والتاويل والتفسير الى المخالفة والبيّنونة اذ المبادئ للقرآن باطل محض لا يتفوه به ذلك الذي يدور مع الحق حيث دار لبداهة كون الباطل مضادا للحق^٢.

والى بعض لوازم معية القرآن والعترة الطاهرة اشار مولينا الرضا (ع) حيث قال (ع):

من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدى إلى صراط مستقيم. ثم قال: ان في اخبارنا متشابهها كمتشابه القرآن ومحكمها كمحكم القرآن فردوا متسابهها الى محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا^٣.

وحيت إن اشتمال القرآن على المتشابه في ضوء المحكمات التي هي ام

١ - صلح الحسن ٥٩، عن البحار ١٠/٩٩.

٢ - الدرر والدرر للآمدى، ٣٥/٧.

٣ - عبود الاخبار، ١/٢٩٠.

الكتاب انما هو لحكمة خفيت على غير واحد، ومفترضنا ان العترة الطاهرة وسنتهم مع القرآن فلا بد وان تكون اخبارهم واجدة لتلك الحكمة ايضا، وكما ان لفقه القرآن شرايط تصححه وموانع تردع عنه، كذلك لمعرفة السنة اسباب تقتضيه وقواطع تصد عنه، ويعبر عن تلك القواطع باقفال القلب، وكما ان القرآن يفسر بعضه بعضا وينطبق بعضه ببعض، كذلك السنة يصدق بعضها بعضا، وكما ان السنة تفسر القرآن وتبينه كذلك القرآن يؤيدها ويسددها ويمضيها وذلك بعد عرضها عليه لانه الميزان القسط الذي سلك الله من بين يديه ومن خلفه رسدا، فلذا لا يتطرق اليه الجهل والافتراء والتحريف لانه لم يكن حديثا يفترى من دون الله بخلاف السنة التي يتطرق اليها ذلك .

كما اوعز اليه الرسول الاعظم (ص) في خطبته بمنى حيث قال :

ايها الناس ماجائكم عنى يوافق كتاب الله فانا قلته وما جائكم بخالف كتاب الله فلم اقله^١.

لان ظاهرته امكان الجعل والتحريف في السنة دون القرآن، والدليل على ان المخالف للقرآن المبين له ليس مقولا له (ص) ولا لاحد من العترة الطاهرة هو أنه يوجب ويلزم افتراقهم عن القرآن وافتراقه عنهم مع انها - اى العترة والقرآن - لن يفترقا ابدا اذ المبين للحق باطل لا محالة، كما قال سبحانه :

ماذا بعد الحق الا الضلال^٢.

ومن البين ان القرآن حق من مبدء نزوله الى منتهاه كما اكذبه تعالى :

بالحق انزلناه وبالحق نزل^٣.

١- الكافي، ج ١، باب الاخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

٢- يونس / ٣٢.

٣- الكافي، ج ١، باب الاخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

والباطل مفترق عن الحق بالضرورة فالخصيلة: انه لو صدر من العترة ما يباين القرآن فانه يعنى لزوم اقترافهم عنه وبطلان اللازم واضح كضرورة اصل التلازم وبطلانه مستلزم لبطلان المقدم فلذا قال مولينا الرضا (ع):
اذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبها!

حين قال له (ع) ابوقرة في حوار معه حول امتناع رؤية الله، فتكذب بالروايات بلا علم له ولا من هو مثله ان عدل القرآن وزميله هو الانسان الكامل المعصوم (ع) اى العترة الطاهرة (ع) لا الرواية حيث انها ليست معصومة كالقرآن حتى تصلح لان تكون عديلة له لأن غير المعصوم لا يكون مع المعصوم اذ المعية لا بد وان تكون بملاك يصححها وجامع يجمع المعين فيه فاذا لم تكن الرواية مصونة عن الدس والتحريف فكيف يمكن مصايرته مع القرآن المصون عن ذلك كله.

واما العترة الطاهرة فللعصمتهم عن الجهل والزيف والطفيلان والسهو والنسيان وما الى ذلك من انحاء الرجز واقسام الرجز وطهارتهم عنها بعناية من الله سبحانه فهم الاخرى بان يكونوا كفوا للقرآن، كما أن القرآن عدل لهم ولا يصدر عنهم ما يبيانه اصلا، لان المعصوم (ع) لا ينطق في بيان الاحكام الالهية بالهوى ولا يميل اليه، فلذا صرح مولينا الرضا (ع) بتكذيب الروايات المخالفة للقرآن بكونها مفسوسة وموضوعة.

وكما ان الدس والوضع لا يتطرقان الى القرآن العلمى، كذلك لا ينفذان الى القرآن العينى - وهو الامام المعصوم (ع) - اذ المبين للقرآن مبين للعترة الطاهرة جزميا لان ضدا حد المعين مضاد للمع الاخر، وذلك لوحدة الملاك في

المعية والتضاد ولا مجال لان يكون شيئ مضادا لأحد الأمرين المندرجين تحت جامع واحد حقيقى ولا يكون ضدا للمندرج الاخر مع الحفاظ وحدة الملاك .

الجنة الثالثة: في تخصيص القرآن الى التحقيق وطرد الامنية

بعد ما تبين للقارئ الكريم شرائط معرفة القرآن وان الموانع عنها ما هي؟ وان الماثريين التدبر في القرآن وبين استنطاقه ماذا؟ قلزام لان يتدبرفه مستمدا من مستنطقه - وهو الانسان الكامل المعصوم (ع) - معترفا بأن الكل من الله - سبحانه وتعالى - فتقول:

إن مضامين القرآن رغم ابتناء بعضها على التعبد المحض فان معارفه الاولى قد اسست على اليقين الجامع لمراتبه ومدارجه من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وإن كان هو اقل ما قسم بين الناس ولم يرزقوا بشيئ احسن منه كما صرح به مولينا الرضا (ع):

إن الايمان افضل من الاسلام بدرجة، والتقوى افضل من الايمان بدرجة، ولم يعط بنو آدم افضل من اليقين^١.

والمستفاد من القرآن الكريم ان من اظهر مصاديق الطريقة التي هي اقوم التي يهدى القرآن لها هو تاسيس مسيرة الحياة على التحقيق والاتقاء عن آية امنية كاذبة خاطئة لا تساند الى العقل او النقل القطعى، اذ الانسان فى أى موقف كان فان له عقلاً يهده الى سواء السبيل ووحيا يرشده الى الصراط

١ - مسند الامام الرضا (ع) ٢٥٧/١، عن قرب الاسناد ٢٠٨ والكافي ٥٢/٢.

السوى، فهو أذا لا بد وأن يكون محققا في دوره سواء أكان تابعا مطيعا او متبوعا مطاعا، كما قال سبحانه:

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد^١.

لظهوره في ان الجاهل المقلد في جهله يجادل في الله عن جهل تقليدى ويتبع ويقلد ويطيع كل شيطان قاده واستعلى عليه وتملك زمامه فلا يحصى للتابع من التحقيق ليصون عن طاعة كل قائد شيطاني متمرد عن الله وليس للجاهل ان يقلد في تقليده مقلدا آخر مثله، بل لا بد في ان يحقق في تقليده ليساند اطاعته الى علم تحقيق دون الظن التقليدى فانه لا يغنى من الحق شيئا، فعلى التابع المطيع ان يحقق لكيلا يقع في تيه طاعة الشيطان المارد الذى كتب عليه انه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه الى عذاب السعير. هذا فيما يتصل الى لزوم التحقيق فى الاطاعة. واما لزامه فى المتبوع المطاع فللقوله تعالى:

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير تانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزي ونذيقه يوم القيمة عذاب الحريق^٢.

حيث انه ظاهر في ان الجاهل القائد لغيره يجادل في الله بغير علم عقلى ولا وحى سماوى يشئى راسه وعطفه كأن ليس هناك حق يعتد به ووحى يخضع لديه ليصير متبوعا يطيعه الجهال ويضلهم عن الصراط السوى. وليس للقائد والمطاع ان يصير راسا يتبعه الاذناب الا بعد علم وهدى، وذلك لا يتحصل الا بالتحقيق الذى يهدى القرآن المجتمع الانسانى اليه: أفن

١- الحج / ٣.

٢- الحج / ٨ و ٩.

اسس بنيانه في ائى موقف كان على التحقيق خيرا من اسس بنيانه على التقليد الذى هو شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم كما اوعده الله في كلتا الآيتين فلا الجاهل المطيع باقتداره ان ينجو من النار والهلكة ولا الجاهل المطاع ان يتخلص منها بل كل فيها يختصمون ويتبرء بعضهم من بعض كما اوعزاليه سبحانه بكلمته:

يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبرائنا فاضلونا السبيلا ربنا آثم ضعفين من العذاب و العنهم لعنا كبيرا^١.

لكن لا يجديهم هذا التنى بعد ان قامت الحجة عليهم في الدنيا على لزوم التحقيق مع امكانه وانتاجه وانهم وان يتمنوا ان يضاعف الله عذاب سادتهم وكبرائهم، لكنه لا ينفعهم هذا التنى ايضا حيث أن لهم كهولاء السادة ضعفين من العذاب، كما قال سبحانه:

قال ادخلوا في امم قد دخلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا اذركوا فيها جميعا قالت اخرهم لاوليهم ربنا هولاء اضلونا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت اوليهم لاخرهم فاكان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون^٢.

والسر في استحقاق كل من التابعين الجهال المقلدين في الاتباع والطاعة ومن المتبوعين الجهال في الزعامة والقيادة ذلك، مع ان الاصل القطعى الاستفادة من القرآن هو ان جزاء سيئة سيئة مثلها لا يزيد منها وان كان جزاء حسنة خيرا

١ - الاحزاب / ٦٨ - ٦٩.

٢ - الاعراف / ٣٩ - ٣٨.

منها هو ان التابع المقلد في طاعته واتباعه قد ارتكب سيئتين: (احديهما) المعصية الخارجية المشتركة بينه وبين قائده وهو السجود للصنم او غيره من المعاصي، (والاخرى) هو تقبل قيادة ورئاسة الامام الجائر، مع ان العقل والوحي قد تطابقا على لزوم مقاتلة أئمة الكفر والطفيان ودفع شرورهم ورفع ظلمهم، كما وان المتبوع الذي قاد الناس الى اتباعه جهلا منه قد ارتكب سيئتين احديهما المعصية الخارجية والاخرى تصدى الحكومة والتراس على الناس ظلما وجورا فلذا يعاقب كل من السائس والمسوس الذين في النار ضعفا من العذاب ولا اثر للتمنى هناك ، رغم انه يود الاتباع ان يردوا الى الدنيا ويتبرؤن من سادتهم الطغاة كما تبرؤا منهم يوم القيمة حين رأوا العذاب كما قال سبحانه:

اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب
وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرء منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله
اعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار^١.

والمحصل: ان الحياة التي يهدي القرآن الناس اليها هي الحياة المؤسسة على التحقيق دون التمني اذ لا جدوى للامنية في الدنيا ولا في الاخرة لأن النظام الحاكم على النشاطين مع ما بينهما من الامتياز الملكي والملكوتي هو التدبير والتحقيق لا الاسترسال والتمني، ولذا قال امير المؤمنين (ع):

... اياك والاتكال على المني فانها بضائع النوكى^٢.

والاصل في ذلك هو القرآن الحكيم النادب الى التحقيق والناهي عن الركون الى شئ بدونه والناطق بان الاسماء والعناوين والالقاب وما الى ذلك

١- البقرة / ١٦٧-١٦٦.

٢- نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

من الجهات الخارجة عن نطاق الذات وحوزة الجوهر الانساني لا تغنى من شئ
فيلزم التدبر في محتواه ثم استماع ما عن مستنطقه وهو مولينا الرضا (ع) اما القرآن
فهو مع اصراره على ان مدار التفكير والتصديق والتكذيب هو العفل وان الحياة
الطوبى انما تحصل لمن كان له قلب او اتقى السمع وهو شهيد... صريح بقوله
تعالى:

ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم
الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^١.

اذ الذى تفيدنا وتتحفنا هذه الآية الكريمة وما يضاهاها^٢ هو ان الامة التى
لا تلحد في الله بالانكار المحض ولا تنكر الرجوع اليه بالتقى الصرف ولا تعبد
اللات والعزى ولا تقول: ان هى الاحياتنا الدنيا ولا تعلن بقولها وما يهلكنا الا
الدهر وتعتزف.. على الجملة.. بان لها ربا ترجع اليه وان تقطعت احزابا وفرح
كل حزب بما لديه وحسب انه ناج دون غبره واكتفى بعنوانه الخاص به من
العناوين المطروحة في الكريمة الا ان الله الذى بيده قدر كل شئ^٣ وتعيين ملاك
الهلاك والنجاة قائل بان شئنا من هذه الاسماء لا يجدى ولا يدور الا اجر الالهى
مداره اصلا لدورانه مدار اصول ثلثة يستوى فيها الناس من الصدر الى الساقه
وهى المعارف الاولية التى اسس عليها الاسلام الذى هو الدين الوحيد عند الله^٣
والذى جاء به الانبياء بلافارق بينهم من هذه الجهة وتلك الاصول عبارة
عن الاعتقاد بالله الجامع لجميع الكمالات التى هى من الاطلاق الذاتى الطارد

١ - البقرة / ٦٢.

٢ - المائدة / ٦٩.

٣ - آل عمران / ١٩ «ان الدين عند الله الإسلام...».

لاحتمال ائى شريك وند و ضد و معاضد و ما الى ذلك والاعتقاد باليوم الآخر الذى اليه يرجع الناس كلهم وله مواقف معروفة والاعتقاد بالوحى والرسالة والشريعة مع العمل على موازينها.

وهذا الاصل الثالث هو الذى عبر عنه القرآن بالعمل الصالح ومن البين لمن تدبر فيه وانس به و عرف نطاقه ومنهجه انه انما يعد العمل صالحا فيما اذا انطبق على شريعة كل عصر فلو لم ينطبق عمل على شريعة اصلا ورأشأ، او كان مطابقا لمنهاج منسوخ وشريعة قضت نجها ومضى اجلها فليس هو بعمل صالح لديه، واما الامور الكلية التى ينالها العقل ويمضيها الوحى المشترك كالعادل والاحسان والصدق والايتار والامانة والتواضع ونحو ذلك فهى اوصاف واعمال صالحة عند كل نبى ووصى.

والغرض هو ان العمل الصالح فى مصطلح القرآن هو العمل المطابق لما جاء به الوحى الحاكم على عصره ومن اللائح ان تطبيق العمل على وفق ذلك الميزان يتوقف على العلم به والانعطاف اليه وعقد القلب عليه، وهذا هو الاعتقاد بالوحى والنبوة المشار اليه فى الاصل الثالث وهذه الاصول الثلاثة فى ائى عصر تحققت تلازم وتوجب الأجر الالهى وتنزيل ائى خوف وحزن سواء فى ذلك الخلف والسلف.

وهذه الاصول لابد فى معرفتها من البرهان العقلى الذى لا مجال بدون التحقيق فيها للتقليد ولاللقيادة، لان الناس فيها شرع سواء رغم اختلاف درجات تحقيقهم ومراتب فحصهم بالاجال والتفصيل وبالشدة والضعف، وعليه فلا وجه لخصر السعادة فى عنوان ونفيا عن عنوان آخر. وعلى هذا الحجر الاسلامى يقضى القرآن على الدعاوى العاطلة والامانى الكاذبة التى لكل حزب خاص حيث يدعى كل واحد من تلك الاحزاب انه هو المؤهل للسعادة

والجنة -انحصاريا- دون غيره ولا يرضى عن غيره حتى يتبع ملته ويدعى انه -بالذات- هو المتقرب من الله سبحانه وان غيره هو المبتعد عنه تعالى وأنه لا سبيل لغيره عليه بل له ان يفعل في حق غيره ما يشاء، حيث قال سبحانه:

وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى تلك ايمانهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين^١.

يعنى ان اليهود اطار تفكيرهم ومنطقهم هو انحصار الجنة لهم -ذاتيا-، لا يدخل فيها احد سواهم، وكذا النصارى دعويهم انحصارها لهم ولا مطمح لاحد فيها عداهم، كما قال تعالى:

وقالت اليهود ليست النصارى على شئى وقالت النصارى ليست اليهود على شئى وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قورهم قاله يحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون^٢.

ومعناه ان كلا من فريق اليهود والنصارى يطارد الآخر، مع ان الكتاب الالهى الذى يتلونه لا يحكم بان النجاة تدور مدار العنوان والوسام والصفات وما الى ذلك وهؤلاء رغم تلاوتهم لذلك الكتاب الالهى الحاكم على خلاف ذلك يتهمون بنفى الفريق الآخر. كما وان هذه الدعوى الخلية عن البرهان هي قولة غيرهم من الجاهل الفاقدين للكتاب السماوى ولا يختص هذا الحصر المتوهم بالقياس الى فريق دون آخر بل كل من هؤلاء يننى ويدعم كل من سواء باطلاقه كما قال سبحانه:

ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله

١ - البقرة / ١١١.

٢ - البقرة / ١١٣.

هو الهدى ولئن اتبعت أهوائهم بعد الذى جئت من العلم مالك من الله من ولى
ولا نصير^١.

يعنى ان اليهود لا ترضى عن الرسول وامته إلا ان يرتدوا عن الاسلام
ويهودوا وان النصارى لا ترضى عنهم الا ان يتنصروا وكل واحد من الفريقين
كما يحكم ببطلان الفريق الآخر وانه ليس على حق وشيئ كذلك يقضى على
الاسلام والمسلمين بانه ليس على شيئ اصلا وقد بلغت امنبتهم الكاذبة الى
حيث ادعوا انهم دون غيرهم اخصاء بمعرفة الله ودينه وانهم ابناء الله واحبائه
ولكن رد الله عليهم بقوله:

وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحبائه قل فلم يعذبكم بذنوبكم
بل انتم بتسر من خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات
والارض وما بينها واليه المصير^٢.

اذلو كانوا احبائه لما عذبهم الله بذنوبهم ولما اذنبوا حتى يعذبوا بل هم
كغيرهم من احاد الناس وسوادهم يحكم عليهم ما يحكم به على غيرهم
من العدل العام الالهى الذى قد مر نظامه بدوران الاجر والنجاة من النار مدار
هاتيك الاصول الثلاثة بلا ما يميز بين حزب وآخر.

وحيث إن الامة الخاطئة التى ترى نجاتها بالذات وتزعم هلكة غيرها
قد ترتطم فى غواية وضلال الى حد لو اخرج يده لم يكديرها تخيل ان المؤسس
للدن التوحيدى الذى اليه انتهى الانبياء والاولياء وهو ابراهيم (ع) كان على
دينهم وانهم على منهاجه دون غيرهم، كما قال سبحانه:

١- البقرة / ١٢٠.

٢- المائدة / ١٨.

ام تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا
اونصارى قل انتم اعلم ام الله ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله
بغافل عما تعملون^١.

ولما خبل لهم انهم على الحق دون غيرهم وهم على شريعة الانبياء دون
من سواهم حسبوا ان لاسبيل الى الله الا باليهود والتنصر وانها - انحصاريا - سبيل
ابراهيم (ع) ولكن رد الله تعالى عليهم مزعمهم بان سبيلهم انما هو في قبال ملة
ابراهيم (ع) وان الصراط السوي الهادي الى الجنة المنجى من النار هو ملته (ع)
فحسب، حيث قال عز من قائل:

وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم (ع) حنيفا وما كان
من المشركين^٢.

وقد بين سبحانه في مطوى هذه الايات ان بنيان هولاء مؤسس على الجهل
والامنية فلو علموا وحققوا لما تفوهوا بذلك، كما قال تعالى: «قل
هاتوا برهانكم» يعني ان الدعوى اذالم تكن مشفوعة بالبرهان لم تكن مسموعة،
بل تصبح امنية خاطئة ليس الا كما قال تعالى: «تلك امانيتهم» وقال ايضا:
«كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم» يعني قول هولاء الذين هم اهل
الكتاب مثل قول الجاهل لان من لا يعتنى بكتابه السماوى وينبذه وراء ظهره
فهو مثل من لا كتاب له من الجاهلين... هذا نبذ من امانيتهم.

واما القرآن الحكيم، فحيث انه يهدى للتي هي اقوم فلا ياتي بمقال
الامشفوعا بالبرهان سواء في ذلك اثبات كمال لشيء او سلبه عنه ولا يبنى شئاً

١- البقرة/١٤٠.

٢- البقرة/١٣٥.

من ذلك على العنوان والاسم والانتهاء بكتاب فلذلك لا يرى فيه موضع يعد احدا بالجنة او يؤمنه من النار إلا بعد احراز وصفين احدهما الحسن الفاعلى وهو كون ذلك الشخص مؤمنا والاخر الحسن الفعلى وهو ان يبعث منه عملا صالحا كما وان لا يخوف احدا بالنار ولا يهدده بها الا بفقده احدهما، بان لا يكون قد آمن او آمن ولم يكتسب فى ايمانه خيرا. لذلك تراه قد حكم فى هذه المسئلة التى قد ادعى كل فريق بكونه ناجيا - باطلاق الكلمة - وادعى ايضا بأن ماسواه ليس على شئ بل هالك بالاطلاق... - حكم تعالى - بحكم عدل وقضاء قسط يوافق ما اسس بنيانه عليه من دوران الامر فى السعادة والنجاة من النار وجودا وعدمه مدار تلك الاصول الثلاثة كذلك - اى وجودا وعدمه - وهو قوله تعالى:

قل يا اهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين^١.

يعنى ان اهل الكتاب ان اقام كتابه السماوى وما انزل اليه من ربه - فهو على خير وكمال يتفتح له ابواب الرحمة والجمال لان اقامته هذه عبارة اجماليا عما بينه فى آيتى البقرة والمائدة تفصيلا وهو توقف الأجر الالهى ونفى الخوف والحزن على الايمان بالمبدء والمعاد والوحى والرسالة وعلى العمل بمقتضاها، وذلك لان الذى لم يؤمن بكتابه السماوى او آمن ببعضه دون بعض او آمن بجميع ما فيه لكنه لم يعمل بمقتضاه فهو ممن لم يقمه، وعليه فاقامته ورحابه به انما تحصل بتلك الاصول المارة.

فكم فرق بين القائل بأن اليهود ليس على شيء - على إطلاق الكلمة - وبين القائل بأن اليهود ليس على شيء حتى يقيموا كتابهم السماوى اذ الاول مجازف لا اعتداد بدعواه، والثاني حكيم يخضع لما ادعاه، وحيث إن اهل الكتاب لو اقاموا كتابهم الاصيل، ذلك السفر الغير المحرف، لنالوا حقايق كبيرة جمة...، التى منها التبشير بالقرآن ومن يأتى به يحصل لهم نصاب شرائط الأجر الالهى، لذلك فقد استقروا نهائيا على شيء وهو الكمال الذى تهدف اليه النبوة وتهدى اليه الرسالة، بيد انهم نبذوه وراء ظهورهم ولم يقيموه واقتصروا على الانتماء الصرغ اليه... كان ذلك هو السبب لأن يعمهم الجهل المقابل للعلم كما فى الاتباع الذين اتبعوا كل شيطان مريد، لفقدهم التحقيق فى التبعية والطاعة او الجهل المقابل للعقل كما فى الاحبار والرهبان والقسيسين، لا يثارهم الدنيا على الآخرة واستثثارهم الجاه وحُب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة.

وهي هنا يتبين ان الرسول الاعظم (ص) وتابعيه لهم حظ عظيم او فر من العلم وهؤلاء لا اخلاق لهم منه فان هذا هو المستفاد - بوضوح - من قوله تعالى:

ولئن اتيت الذين اتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتيتهم من بعد ما جئتكم من العلم انك اذا لمن الظالمين الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابنائهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون^١

حيث انه تعالى عد ما عند الرسول (ص) علما وعد عمل هؤلاء هوى يتهوسون به ويبن ان هؤلاء قد تبين لهم الحق وعرفوه اشد معرفة كما عرفوا ابنائهم، لكنهم كتموا الحق عالمين به فاقدين عقلا عمليا يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان بقبول الحق والنكول عن الباطل.

فاذا لاح أن مقطب السعادة هو التحقيق وطرده اية امنية لا تساند اليه وأن معارف القرآن العلمي قد اسست على ذلك حسبا يستنبط المتدبر فيه، فعليه يلزم الاصغاء الى ما هو المأثور عن مستنطقه وهو مولينا الرضا (ع) حيث قال:

من احب عاصيا فهو عاص ومن احب مطيعا فهو مطيع ومن اعان ظالما فهو ظالم ومن خذل عادلا فهو ظالم انه ليس بين الله وبين احد قرابة ولا ينال احد ولاية الله الا بالطاعة، ولقد قال رسول الله (ص) لبي عبد المطلب: ايتوني باعمالكم لا باحسنكم وانسابكم، قال الله تعالى فادانهم في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتسائلون فمن تقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا في جهنم خالدون^١.

فقد صرح (ع) بان العمل السيئ من اى عامل صدر يوجب الخسران وانه ليس بينه تعالى وبين احدهم خلقه قرابة لكى يدعى بانه من ابناء الله واحبائه كما ادعاه اليهود رغم قتلهم الانبياء بغير حق. وانه لا ينال ولاية الله الا بالطاعة المؤلفة من الحسن الفاعلى والحسن الفعلى... على ما مر مسبقا. ولقد روى ابو الصلت الهروى قال سمعت الرضا (ع):

يحدث عن ابيه ان اسماعيل قال للصادق (ع) يا ابا عبد الله ما تقول في المذنب منا ومن غيرنا فقال (ع): ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سوء يجزيه^٢.

يعنى منه عدم الجدوى للانتماء ولا للتمنى نهائيا، فالمنتسب الى رسول الله (ص) لابد وان يهتدى بهداه ويساير بسيرته وليستن بسنته ولا يدور الامر في النجاة مدار امنية اى متمن.

ولقد روى الحسن بن الجهم قال كنت عند الرضا (ع) وعنده (ع) زيد بن

١- عيون اخبار الرضا، ٢/ ٢٢٥.

٢- عيون الاخبار، ٢/ ٢٣٤.

موسى اخوه وهو(ع) يقول:

يازيد اتق الله فانه بلغنا ما بلغنا بالتقوى فمن لم يتق الله ولم يراقبه فليس منا
ولسامنه يا زيد اياك ان يهن من به تصول من سيعتنا فيذهب نورك يا زيد ان
تسيعتنا انما ابغضهم الناس وعادوهم واستحلوا دماءهم واموالهم لمحبتهم لنا
واعتقادهم لولايتنا فان انت اسأت اليهم ظلمت نفسك وابطلت حقك. قال
الحسن بن الجهم: ثم التفت (ع) الى فقال يا بن الجهم: من خالف دين الله فأبرأ
مه كائنا من كان من اى قبيلة كان ومن عادى الله فلا تواله كائنا من كان،
من اى قبيلة كان فقل له: يا بن رسول الله ومن الذى يعادى الله تعالى قال:
من يعصيه^١

وحصيلة ما افاده الامام (ع) هو ما اوعز به القرآن من دوران كرامة
الانسان مدار التقوى وانها لا تتحصل بالانتساب والامنية وما الى ذلك، بل
بالمراقبة والطاعة انحصاريا وان من يعصى الله فهو عدو له، فكيف يكون وليا له.
ولذلك نراه (ع) يخاطب اخاه بانه اخوه ما زال فى طاعة الله عزوجل. ان
نوحا(ع):

قال رب ان ابني من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين،
فقال الله عزوجل يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فاخرجه الله
عزوجل من ان يكون من اهله بمعصيته.^٢

لان الله الذى لا يجور فى الحكم -لأنه احكم واتقن واعدل حاكم
وقاض-، قد حكم بان الطالح منقطع الرباط والصلة عن الصالح وان النسب
الاعتبارية لا تحمل اية حقيقة وان العصيان يوجب ويلازم الابتعاد عن الله وان
الطاعة توجب وتلازم القرب اليه وان البعيد والقريب ليسا بسواسيه لانه يرى

١- عيون الاخبار، ٢ / ٢٣٥.

٢- عيون الاخبار، ٢ / ٢٤٤.

من البعيد عن الله اذ: اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي (ص) والذين آمنوا والله ولي المؤمنين وهو- اى ابراهيم (ع)- قال لابيه وقومه اننى براء مما تعبدون. والسرفى ذلك هو ان الحق برئ من الباطل ويضاده ولا مجال له مع ظهور الحق، كما قال تعالى:

قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد^١.

يعنى سبحانه انه لا موقع للباطل مع مجئ الحق سواء فى ذلك الباطل الحادث البادى الغير المستبق بوجود او الباطل الذى كان موجودا مسبقا ثم زال فلا امكان لعوده كما لا امكان لحدوث غيره من الاباطيل لان الحق ..بطبيعته- يدمغ الباطل فاذا هو زاهق، ومن هنا يستبان معنى قوله مولينا الرضا (ع):

النظر الى ذريتنا عبادة فليل له، يابن رسول الله (ص) النظر الى الائمة منكم عبادة والنظر الى جميع ذرية النبي (ص) قال (ع): بل النظر الى جميع ذرارى النبي (ع) عبادة مالم يفارقوا منهاجه ولم يتلونوا بالمعاصى^٢.

وذلك لان رؤية الذرية الطاهرة عن الذنوب والادناس تكون تذكرة للذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وهذه التذكرة عبادة دون النظر الى المتلوة بالمعاصى لانه حجاب عن ذكرى هؤلاء المطهرين فكيف يكون عبادة فيبدلنا ذلك على دوران العبادة مدار الحق دون الانتفاء ولا الامنية والحسبان، وحيث انه (ع) كان متحققا بالحق وكان صلواته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين وكان منزلها عما يتوب الباطل والتمنى وعما يشوبه الانتفاء والحسبان لا يفتاعل ولا يؤثر فيه المدح والقدح، فلذا نراه لما قال له (ع) رجل: «والله ما على وجه الارض اشرف منك اباً» يجيبه (ع) بكل تأكيد بأن

«التقوى شرفهم وطاعة الله احظتهم»، وهكذا لما يقول له الآخر: «انت والله خير الناس»، يقول له:

لا تخلف يا هذا خير مني من كان اتق الله تعالى واطوع له والله ما نسخت هذه الآية: وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم^١.

والسبب هو ان الانسان الكامل المعصوم (ع) لا يأتيه الباطل من بين يدي المدح ولا من خلف القدح، لان القرآن العلمي المصون عن ذلك كله قد خالط دمه ولحمه من قرنه الى قدمه ومن قلبه الى قالبه ومن ملكوته الى ملكه ومن عقله الى طبيعته ومن فيضه الاقدس عن شوب الكثرة والميز الى فيضه المقدس مستوعبا جميع مراتبه، فكما ان القرآن العلمي قول فصل وليس بهزل وبرهان ليس بحسبان وحق ليس بامنية، كذلك القرآن العيني الذي هو مستنطقه حق لا ينخسف بالمدح الباطل ونور لا ينكسف بالقدح الزور، وعلى الجملة: تكون حياته الطوي حياة عقلية مبرأة عن التباهي بالانتاء وان كان هو (ع) فوق مدحة المادحين ماضيا او مقبلا، كما عرّف هو (ع) الامام بما لا يناله عقول الناس، الا ان الاستدلال بالقرآن انما هو لتحكيم التحقيق وطرده آية امنية لائى متمن. والسرفى اصراره (ع) فى طرد التمنى ونبذ الامنية وراء الظهر هو انها بضاعة الشيطان وحبائله كما قال سبحانه حاكيا عنه:

...ولا مئنيهم^٢

ولا يغتر بها الا اهل الدنيا الذين هم تحت ولايته. ومن اظهر مصاديق هؤلاء الاميون الذين لا يعلمون الكتاب الا امانى ولذلك يعدهم الشيطان ويمنيهم وما يعدهم الا غرورا، كما قال امير المؤمنين (ع):
...وحذرکم عدوا نقذفی الصدور خفيا ونفت في الاذان نجيا فاضل

واردى ووعد فنى وزين سيات الجرائم^١.

والانسان المحقق الذى ترى فى مدرسة كلامه تعالى:

ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب^٢.

هو الذى يكذب مناه ويكابرهواه ويستغنى باشرف انحاء الغنى وبجاهد
هواه كما يجاهد عدوه كيلا يأسر عقله هواه ولا يصبح هواه اميراً عليه، كما قاله
امير المؤمنين (ع):

... واشرف الغنى ترك المنى وكم عقل اسير تحت هوى امير^٣.

ولامناصر فى التحفظ من التمنى وحبالة العدو المبين الا بالعبادة والتباهى
بها اذ التفاخر بالتذلل لله ممدوح، كما اوعز اليه الامام على (ع):
الهى كفى بى عزا ان اكون لك عبدا وكفى بى فخرا ان تكون لى ربا انت
كما احب فاجعلنى كما تحب^٤

ومما ذكرنا بكله يلوح معنى كلام مولينا الرضا (ع) لما قال له المامون:

يا بن رسول الله قد عرفت فضلك وعلمك وزهدك وورعك و
عبادتك اراك احق بالخلافة منى. قال (ع): بالعبودية لله عزوجل افتخر و
بالزهد فى الدنيا ارجو النجاة من شر الدنيا وبالورع عن المحارم ارجو الفوز
بالمقام وبالتواضع فى الدنيا ارجو الرفعة عند الله عزوجل^٥

١- نهج البلاغة، الخطبة ٨٣.

٢- النساء/١٢٣.

٣- نهج البلاغة، قصار الكلم، ٢١١.

٤- مفاتيح الجنان، ص ١٣١.

٥- علل الشرايع، ١/٢٢٦.

والمحصل: ان تعاليم القرآن مؤسسة على التحقيق والاتقاء عن الأمانى وأن مولينا الرضا (ع) كغيره من العترة الطاهرة قد بنى سيرته العلمية والعملية على التحقيق البرهاني وتحكيم مبادئه وتضعيف الأمانى وتحطيم أركانها وتنبيه المغترين بها وإحياء ارتكازهم بعدم الاغترار بالانتفاء والحسب والنسب وما الى ذلك من الاسماء التي ما انزل الله بها من سلطان وذلك كله ببركة العمود النورى الذى كان بنبه (ع) وبين الله سبحانه كما اسلفنا بيانه مبسوطا. (بلغ والحمد لله رب العالمين ليلة القدر ٢٣ من رمضان المبارك عام ١٤٠٦ هـ ق)

الجنة الرابعة: فى ترغيب القرآن الى البرهان العقلى والشهود القلبي وترهيبه عن القياس الوهمى والتمثل الشيطاني

قد تقدم ان القرآن يهتف الى التحقيق ويأمر به ويزجر عن الركون الى الامنية وينهى عنها، وبما أن القرآن نور لا ظلامه فيه اصلا فلا يكتفى بمجرد الامر بشئ بدون الارشاد الى كيفية تحصيله ولا يقتصر على مجرد النهى عن شئ بلا ذكر لنموذجه وبيان لمن ابتلى به وتبيين لكيفية علاجه لانه ليس كتاب تعليم فقط كيلا يتعرض لذكر الامثال وتشریح حال المبطلين به كما هو المألوف فى سوق التصنيف ومتبجر التأليف بل هو كتاب انزل «هدى للناس وبيانات من الهدى والفرقان».

فهو رغم تأسيس بنيانه على التحقيق ودعائه الناس الى تأسيس حياتهم عليه ومدح المحققين وذم المعارضين عنه حسبا مرسقا فى الجنة الثالثة، لكنه - فى نفس الوقت - لا يقتنع بصرافة هذا البيان الكلى من دون تعليمه لمنهج التحقيق و هدايته شرائط النيل بالحق وتذكر موانع الوصول اليه ونقل احاديث وقصص اولئك الذين لم يتحصلوا لتلك الشرائط ولم يتقوا عن هذه الموانع ووقعوا فى تيه

الجهالة وحيرة الضلالة، كما وانه نقل سيرة المتزيتين بوجدان هاتيك الشرائط والمتخلين عن هذه الموانع والقواطع والحاطين لما حظوا من القرب والوصول، وعليه فن اللازم التدبر في القرآن الحكيم لكي يتبين منطقته في تعليم اسلوب التحقيق وان منهجه ماهو؟ وكم هو؟ ثم الانصت الى ما عن مستنطقه وهو الانسان الكامل المعصوم (ع) حتى يظهر ان بيانه في نحو الهداية الى الحق والتبيل به ماهو وكم هو ايضا ليستبان ان الثقيلين الذين خلفها رسول الله (ص) في امته بمنزلة العينين والاذنين كلاهما يبصران معا ويسمعان معا بلاميز ولا تعدد ولا تخالف ولا اختلاف بين مبصرانها ولا بين مسموعاتها.

فنقول: ان الذي يفيدنا ويتحفنا القرآن الكريم هو ان هنا طريقين الى الوصول للحق: احدهما التفكير العقلي وثانيهما الشهود القلبي وكل واحد منها وان كان ملائما للاخر ومناسبا له لكن لكل واحد منها فصل يميزه عن صاحبه. نعم من الممكن جمعها في انسان متكامل كالحكيم المتأله والعارف المحقق، واما طريق الحس فهو لبس صراطا مستقيما بحباله مادام لم ينته الى البرهان العقلي وذلك، لأن الجزئي المحسوس بما انه جزئي لا ينتج وان ضم الى جزئي او جزئيات آخروا انتج فلا يخرج عن الظن الغير المغنى من الحق شيئا فيما يعتبرفه اليقين.

وحيث ان اسلوب وطريقة الشهود القلبي اقرب الى الحق والى سيرة الانبياء والاولياء الذين به نالوا مانالوا وهوفي نفس الوقت ادعى الى العمل الصالح، كما وانه ايضا مبين عليه، كان اهتمام القرآن به اشد من اعتناؤه الى طريق التفكير العقلي ولكنه مع ذلك اصعب واعسر واوعر من التفكير العقلي رغم كونه صعبا وعسرا ووعرا ايضا لان شرائط سلوكه اهم من شرائط التفكير العقلي وموانعه اكثر من موانعه لان شرائط التفكير الصحيح وكذا الموانع منه

معلومة مدونة ورعايتها وإن كانت غير خلية من الصعوبة لكن شرائط الشهود القلبي كعقبات كثودة وعرة يصعب اقتحامها جدا والموانع عنها اودية مهلكة حفت بالشهوات وزينت بها على حد يعسر الاتقاء عنها ويشكل التجارة منها والاستيلاء عليها الا للاوحدى الذى استخلصه الله لنفسه وبلغ شأواً قاصيا لا تناله سهام الا بالسسه ولا تصل اليه ايدي الأمانى والدسائس، واولئك هم القلة عددا... والمنايز الاخرين طريقى التفكير والشهود هوان حصيلة التفكير البرهانى تتقبل الانتقال الى الغير بالتعليم دون ثمرة الشهود القلبي فانها لا تقبله بوحده الا بالاستعانة من التفكير العقلى، وتفصيل المقال فى كل واحد منها فى طى مقامين احدهما ما يبحث عن موقف التفكير العقلى تجاه القرآن الحكيم والاخر حول موقف الشهود القلبي تجاهه، فنقول:

المقام الاول: فى موقف التفكير العقلى تجاه القرآن الحكيم

ان التفكير العقلى تحرك روى نحو المجهول من قنطرة المعلوم المنتهية اليه بالضرورة ويتأفسه السكون او التحرك من مجهول الى مجهول او من معلوم لا ينتهى الى ذلك المجهول باليقين، وان امكن انتهائه اليه بالظن الغير المغنى عن الحق شيئاً لذلك فقد منع القرآن الهادى للتي هى اقوم عن كل من السكون المعبر عنه بالتقليد فى الاصول ومن التحرك لاعلى النهج الصواب المعبر عنه بالمغالطة الفكرية التى منشأها ايماء الشيطان الى اوليائه ليجادلوا فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير، ولم يقنع كتاب الله بمجرد هذا المنع كما مر مسبقا بل قدم بنفسه امام السالكين وبرهن على دعواه واستدل على مدعاه وعلم فن البرهان لمن وعاه ونقل ماساند اليه ذلك المعرض عن الحق والنائى بجانبه وبين وهن دليله بضعف مادته او صورته وحذر عن الاستدلال بما لا يفيد اليقين لو هنه

كما رهبَ عن الجمود والتقليد لأن سلوك سبيل الغي والتحرك المغالطي لو لم يكن اسوء حالا من التوقف والتقليد فلا اقل منه.

والسرفى ذلك كله هو ان الدين الالهى المبني على الحق لا امكان لئيله الا بوعى من العقل او بوحى من النقل، وكلما اتسع نطاق العقل فى المجتمع وشاع الوحى فيه امكن الوصول الى محتواه وسهل النبل الى مغزاه، وكلما انعكس الامر باتساع الجهل فى المجتمع اما للجمود وعدم التفكير او للتفكير الباطل العقيم صعب الوصول الى مدعاه واصبح مهجورا مطموسا، كما وان الامر فى الدين الشيطاني القائم على الباطل على معاكس منه حيث انه كلما اتسع نطاق التقليد وشاع التفكير المغالطي سهل رواج ذلك الجراف وكثر تابعوه اولئك الذين يميلون مع كل ربح ولم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجوا الى ركن وثيق... ولكل من هذه الامور المارة نماذج نشير اليها كمايلي:

(فنها) ما يتصل الى النهى عن اتباع غير العلم البقيني نحو قوله تعالى:

ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا^١.

(ومنها) ما يتصل الى تفصيل هذا النهى بان كل واحد من التصديق والاثبات وكذا التكذيب والنفي اذا لم يكن بالبرهان القطعى فهو اقتفاء لما لا علم به، وقد نهى عنه كما قال فيه مولينا الصادق (ع)^٢

ان الله خص عباده بايتين من كتابه ان لا يقولوا حق يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا وقال عز وجل:

«الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله الا الحق»^٣

١ - الاسراء / ٣٦.

٢ - الكافي، باب النهى عن القول بغير علم ١/ ٤٣. ٣ - الاعراف / ١٦٩.

وقال:

بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله^١.

(ومنها) ما يتعلق الى النهى عن التقليد عمن لا يهتدى ولا يتعقل لانه عطلة لاحراك لها، كما قال سبحانه ذمّاً لهؤلاء:

واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا اولوكان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون^٢.

وذلك لان العمل لا بد وان ينتهى الى العقل والهداية الحقّة، اما بلا واسطة كما اذا كان العامل نفسه عاقلاً مهتدياً كالمعصوم (ع) بعناية الهية، واما مع الواسطة، كما في غيره اذا استند اليه وحيث ان آباء هؤلاء المقلدين لم يكونوا عاقلين ولا مهتدين والا لما تحركوا نحو الباطل ولم ييغوا سبيل الحق عوجاً فلم يكن عمل الاتباع منتها الى العقل والهداية، ولذا قال سبحانه في شأنهم:

... ما لهم بذلك من علم ان هم الا بخرصون، ام آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون، بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون^٣.

يعنى ان القول اذا لم يستند الى العلم البرهاني ولا الى الوحي السماوى فهو خرس لا اعتداده وتقليد صرف لا جدوى له.

(ومنها) ما يتصل الى بيان استقرار الدين الالهى على العلم فلذا يرغب اليه واستواء الدين الشيطاني على الجهل فلذلك يرهّب عنه.

(اما الاول) فهو فوق الاحصاء كقوله تعالى:

١- يونس / ٣٩.

٢- البقرة / ١٧٠.

٣- الزخرف / ٢٢ - ٢٠.

وتلك الامثال نضرها للناس وما يعقلها الا العالمون^١.
... انما يحسنى الله من عباده العلماء^٢.
وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون^٣...

(واما الثاني) فنحوقوله تعالى:

فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين^٤.

يعنى تعالى حمل فرعون قومه على الخفة او وجدهم خفيف العزم بالجهل
فصاروا مطيعين له، وذلك لأن الحق ثقيل. كما قال الله:
انا سنلق عليك قولا ثقيلاً^٥.

والعمل الصالح ثقيل فلذا تثقل موازين الصالحين، كما قال تعالى:
فاذا من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وامام من خفّت موازينه فاقه
هاوية^٦.

والمحصل انّ الدين الشيطاني الذي كان فرعون يهدى اليه ويحامي عنه
ويبتغيه وسيلة لدنياه حيث كان يقول:
انى اخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر فى الارض الفساد^٧.

انما هو القائم على الجهل وخفة العزم فلذا كان فرعون يذب عن السفاهة
والتمويه بتروى يجهما والدعاية اليهما وبتهديد من يدعو الى الله بالحكمة والموعظة

١ - العنكبوت / ٤٣.

٢ - فاطر / ٢٨.

٣ - القم / ٢٠٣.

٤ - الزخرف / ٥٤.

٥ - الزمّل / ٥.

٦ - القارعة / ٦-٨.

٧ - غافر / ٢٦.

الحسنة ولما كان الدين الجاهلي يدور مدار الاستخفاف حذر الله رسوله
والمسلمين منه في قوله تعالى:

فاصبراً وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يؤمنون^١.

فبالترغيب الى العلم الذى عليه عماد الدين الالهى والترهيب عن الجهل
والسفه الذى عليه ابتناء الدين الشيطاني يتحول المجتمع نحو التفكير والتحرك
الروحي ولصيانته عن الاعوجاج، انزل كتاباً غير ذى عوج وسلك فيه طريق
التفكير الصحيح وحذر عن تطرق الطريق المغالطى.

(اما الاول) فهو المتجلى في القرآن الحكيم من بدئه إلى ختمه نحو قوله:

لو كان فيها آلهة الا الله لفسدنا!

وقوله تعالى:

لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً^٢.

أفحسبم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون^٣.

وما الى ذلك من الآيات المصوغة بصياغة القياس الاستثنائي مع تبين
التلازم بين المقدم والتالى فيه وبيان بطلان التالى المستلزم لبطلان المقدم
اوالمصوغة بصيغة القياس الاقتراني مع تبين الربط الضرورى بين الاوسط
وبين طرفيه من الحد الاصغر والحد الاكبر، لسنا الآن بصدد تفصيله.

(واما الثانى) فهو ما نقل في القرآن حكاية عن الوثنيين المتفكرين بزعمهم،
لانهم كغيرهم من ارباب النحل صنفان احدهما السادة الذين يتحملون اعباء

١- الروم / ٦٠.

٢- الانبياء / ٢٢.

٣- النساء / ٨٢.

٤- المؤمنون / ١١٥.

التفكر و ثانيها الاتباع الذين يتحملون اوزار التقليد واصر التبعية وان كانت الاغلال على اعناق القائد والمقود والسلاسل على ارجلهم جميعاً لأنهم بعد ما عرضوا عن ذكر الله وصاروا في ضنك المعيشة وزيف القلوب وضيقها ورين الافسدة وطبعها، قاموا يترددون في ريبهم وقد تقدم ماتمسك به الضعاف من المشركين وهو حفظ الستة الجاهلية الموروثة من آباءهم ومضى مسبقاً انه الجمود على الجهل والسكون الى السفه والقرار على التويه واما منطق متفكرهم فهو ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى:

سيقول الذين اشركوا لواء الله ما اشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الاطل وان انتم الا تحرصون، قل فلهذه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين^١.

وحصيلة حجته الداحضة عند ربه هو انهم بعد ما اعترفوا بأن الله سبحانه موجود وانه خالق السموات والارض وانه رب الارباب، اشركوا بعد ذلك في ربوبيته الجزئية. فانهم ادعوا بان للانسان رباً خاصاً يرته ويدبره ويرزقه ويسعده وهكذا للبحر رب خاص وللبر رب مخصوص فلذا اعتقدوا بالارباب المتفرقين وهؤلاء الوثنيون مع انكارهم لاصل النبوة كانكارهم لاصل المعاد كانوا يحاججون في قبال دعوة الانبياء الى التوحيد وان الشرك باطل ليس بمرضئ لله وان الله شاء ان يوحده ولا يشركوا به شيئاً...، بان الله -والعياذ بالله- شاء ان يشرك هؤلاء واراد ان يجعلوا له شريكاً في الربوبية والعبادة وشاء ان يحرموا اشياء ويحللوا اشياء أخرى، وذلك لان الله قادر مطلق

لا يعجزه شئ ولا راد لقضائه ولا مبدل لحكمه .

وانما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون^١.

فلامرّد لمشيئته ومن البين انه تعالى لو كان رائداً لأن لا يشركوا ولا يتخذوا من دونه ارباباً وان يعبدوه ولا يجعلوا له شريكاً ولا يحرموا اشياء ولا يحللوا اشياء آخر، لما قدروا على شئ من ذلك ، وبما انهم قادرون عليه بشهادة ما اعتقدوا من الشرك وما فعلوا من التحريم والتحليل، فيعلم من ذلك انه تعالى شاء ان يشرك هؤلاء ويتخذوا من دونه اولياء ولم يشأ خلاف ذلك ولم يرده . وهذا التفكير المغالطى هو الذى حكاه القرآن الكريم عن هؤلاء المشركين الذين ارادوا تصحيح ما فعلوه وتوجيه افاعيل آبائهم في موارد (منها) ما يحكيه قوله تعالى:

وقال الذين اسركوا لوشاء الله ما عبدنا من دونه من شئى نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شئى كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين^٢.

يعنى لو شاء الله ان لا نعبد الوثن ولا نحرم من عند انفسنا اشياء لما قدرنا على عبادة غيره ولا على تحريم شئى والتالى باطل لانا نفعل ذلك كما وان آبائنا فعلوه من سابق فالمقدم مثله، اذا: فالله قد اراد الشرك وشاء عبادة الالهة، فما يقوله مدعى الرسالة بان الله لم يشأ الشرك ولم يرد ان يعبد الاصنام افتراء عليه... فهذا هو الجدال الذى جادلوا به الحق ليدعموه ولكن القرآن الكريم الذى هو نور لا ظلامه فيه اصلاً قد بحث في اطروحة التوحيد والشرك من نواح شتى وبرهن على ضرورة التوحيد وكونه حقاً لا يراد فيه وبين امتناع الشرك

وكونه باطلا لا مرية فيه .

وكلامنا الآن هو في فساد الشرك ودحضه... ولقد استوفى القرآن البحث عنه في ثنايا امور .

(الاول) في الاستدلال العقلي على بطلان الشرك .

(والثاني) في نفي الدليل النقلى على صحته .

(والثالث) في تحليل ما استدل به هؤلاء وبيان مغالطتهم في القياس .

(اما الامر الاول) فهوان المعبود لابد وان يكون موترا في الاحياء والاماته وفي الضر والنفع... وما الى ذلك ، فلا بد وان يكون ربا اذ لا يعبد من لا تأثير له في قضاء حوائج العبد، وحيث ان الرب لابد وان يكون خالقا اذ التدبير وكذا الربوبية لبس الا ايجاد الروابط بين الاشياء وهدايتها التكوينية الى كمالاتها الوجودية ولا يشذ هذا عن الحلقة ولا اقل من ان يكون ملازما لها، اذ الرب لابد وان يكون عارفا بالشيى وعلله الوجودية ونعوته الكمالية ولا يكون غير الخالق عريفا بذلك... فعلى اى تقدير يكون الربوبية من شئون الخالق لا غير فيجب ان يكون الخالق هو الرب، ويمتنع ان يكون الرب هو غير الخالق كما يجب ويلزم ان يكون الخالق هو المعبود ويستحيل ان يكون المعبود هو غيره، والقرآن يهتف بهذا الاصل بقوله:

أشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا انفسهم ينصرون^١.

يعنى أن الذى ليس بخالق يمتنع ان يكون شريكا للخالق وشبيها له في الربوبية، بل الذى هو مخلوق كغيره من المخلوقين يمتنع ان يكون ندا للخالق

ومثيلاً له . فهذا هو البرهان العقلي على استحالة تحقق الشرك في العالم .
ويمكن ان يُسمى هذا القياس بالجدل لان بعض مقدماته قد اخذ فيه انه
المسلم عند الخصم لقوله تعالى :
وَلئن سئلتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله^١ .

يعنى ان هؤلاء المشركين قد تسلموا بأن الخالق الوحيد هو الله وان الوثن
او الصنم ليس بخالق اصلاً ، وعلى الجملة ان الحكم بالشرك لابتدأ وان يكون
مستنداً الى دليل وهو اما العقل او النقل .
(اما العقل) فانه قائم على امتناعه حسبما تقرر ، فلا يهدى اليه بل يمانع عنه
ويهدى الى التوحيد بالضرورة .

(واما النقل) فهو منتف - ايضاً - كما نقره توضيحه فيما يلى .
(واما الامر الثانى) اى عدم قيام الدليل النقلى عليه فهو ان الله سبحانه لم
يرسل رسولا ولم ينزل كتاباً ناطقاً بالشرك كما قال سبحانه :
ام آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ؟

يعنى لا دليل نقلى لهم على تجويز عبادة الآلهة كما لا دليل عقلى لهم عليه
وقال تعالى :

ام انزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟^٢

يعنى لم ينزل الله عليهم بالوحي السماوى برهاناً مسلطاً على السنن
الجاهلية وعلى الاوهام والخيالات يتكلم ذلك الوحي الالهى بتجويز الشرك

١ - لقمان / ٢٥ .

٢ - الزخرف / ٢١ .

٣ - الروم / ٣٥ .

وعليه فلا العقل ناطق به ولا النقل متكلم بذلك ، بل النقل القطعي كالعقل
اليقيني قائم على نفيه وناء عنه كما قال سبحانه :

قل آتاكم حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق
وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون^١.

يعنى ان الله الذى هو رب العالمين ويبيده الامر والنهى والتحليل والتحريم
قد حرم الفواحش و... الشرك بالله بما لا دليل عليه ولم يرسل رسولا يدعوا اليه
ولم ينزل كتابا يهدى اليه فلا سلطان ولا برهان عليه بل البرهان على خلافه
حسبا تقدم.

وحيث انه لا دليل لهؤلاء على ارتضاء الله بالشرك وان عبادة الالهة
مرضية عنده تعالى، فاسناد الستة الوثنية اليه تعالى افتراء محض وإفك صرف،
كما قال سبحانه :

ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما^٢.

يعنى لا يمكن التفوه بان الشرك مرضى له تعالى اذا الظلم العظيم كيف
يكون مقبولا لدى العدل المحض الذى لا يظلم احداً وكيف يمضيه العدل الذى
لا يظلم مثقال ذرة فاسناده اليه فرية لا تغفر، اما كونه فرية فلما اوعزنا اليه من ان
اسناد شئ الى الله بلا اذن منه افتراء، كما قال سبحانه :

قل الله اذن لكم ام على الله تفترون^٣.

واما كونه غير مغتفر فلانه شرك وهو ظلم عظيم، كما صرح سبحانه :

ان الله لا يغفر ان يشرك به^٤.

٣- يونس / ٥٩.

١- الأعراف / ٣٣.

٤- النساء / ٤٨.

٢- النساء / ٤٨.

وقال تعالى:

ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا...^١

وعليه: فلا ظلم اشد واعظم من الشرك ولا ظالم اظلم من المشرك المفتري على الله كذبا فلا صلوح هناك للغفران رغم سعة رحمة الله الغفار. (واما الامر الثالث) اى تحليل ما استدل به هؤلاء لتصحيح الشرك وبيان مغالطتهم فى القياس فهو: ان الله سبحانه ارادتين وامرين احدهما تكوينى لا مرد له والاخر تشريعى يطاع تارة ويعصى اخرى والمائز بينهما هو أن الارادة التكوينية انما تتعلق بفعل نفسه اى بان يريد الله تعالى - بالذات - ان يفعل فعلا خاصا كالا حياء والامانة او القبض والبسط او انزال المطر وانبات النبات وما الى ذلك، وأن الارادة التشريعية انما تتعلق بفعل غيره او تركه اى بأن يريد الله سبحانه ان يفعل الانسان باختياره فعلا خاصا كالعدل والاحسان او يترك فعلا. بخصوصه كالظلم والاسائة ومآل هذه الإرادة الى ارادة التشريع والتقنين فقط بحيث يحتفظ به اختيار المأمور فى الاخذ والترك .

ويترتب على القسم الاول من الارادة: لزوم تحقق المراد وامتناع تخلفه وكون المخاطب تابعا للمخاطب فى الوجود ونحو ذلك كما قال سبحانه:

انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون^٢.

اذ الخطاب هنا هو الابداع لا التكلم اللفظى لأن الاشياء بارادته دون امره مؤتمرة ولانها بكراهة دون نهي منزجرة فلا لفظ ولا صوت ولا نداء وما الى ذلك بل إنما هو افاضة الوجود على ما هو المعلوم فى الحضرة العلمية مما يتقاضى الظهور

١- الانعام / ٩٣.

٢- يس / ٨٢:

دون غيره مما لا يستدعيه ولا يصلح له، وهذا القسم من الأمر والارادة والمشية هو الذي لامرّة له ويمتنع العصيان بالنسبة اليه لان جميع الموجودات قد اسلمت لله رب العالمين كما قال تعالى:

فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين^١.

ويترتب على القسم الثاني من الارادة انحفاظ اختيار الانسان المأمور بالخير المتهني عن الشرك «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة» وكونه بين نجدى الطوع والمعصية وطريق الشكر والكفر، لقوله تعالى:
...وهديناه النجدين^٢.

انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا^٣.

فالامر هيمننا وان كان امرا الهيا، لكنّه في نفس الوقت متعلق بمقتضى القانون والحكم لا بنفس الفعل الخارجى، كما قال سبحانه:
ان الله يأمر بالعدل والإحسان^٤.
وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء^٥.

وهذا القسم من الأمر والارادة والمشية هو الذي قديطاع كما في قوله تعالى:
قل انى أمرت أن اعبد الله مخلصا له الدين^٦.

وقد يعصى، كما في قوله سبحانه:

وكأين من قرية عتت عن امر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا^٧.

١ - فصل ١١/.

٢ - البلد / ١٠.

٣ - الانسان / ٣.

٤ - النحل / ٩٠.

٥ - البينة / ٥.

٦ - الزمر / ١١.

٧ - الطلاق / ٨.

فاذا تبين انَّ الله سبحانه ارادتين وان لكل واحدة منها حكما يختص بها و ان الايمان مأموره ومراد بالامر والارادة التشريعية و أن الشرك منهي عنه و مكروه بالكراهة التشريعية وان الارادة التشريعية تقتبل للعصيان وان التي لا تقبل المعصية هي الارادة التكوينية ليس الا...

فباجلاء هذا ب كله تظهر كيفية مغالطة المتفكرين من الوثنيين في قياسهم الداحض عند ربهم، حيث انهم خلطوا بين الارادتين لمساواة اللفظ مثلا ورتبوا حكم الارادة التكوينية على التشريعية وغالطوا في قولتهم: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء وذلك لان الله سبحانه شاء ان لا يشركوا تشريعا لا تكوينا ومجرد اختيارهم الشرك لا يدل على انه مراد الله سبحانه فلا تلازم بين المقدم والتالي، اذ التلازم انما هو بين المشية التكوينية وبين تحقق المراد و عدم التخلف عنها لا بين التشريعية وبينه ... وعليه فلا انتاج لهذا القياس الذي لا لزوم بين مقدمه وتاليه رغم توهم التلازم للمغالطة الناشئة من اشتراك المشية بين القسمين احدهما ملازم للتالي دون الاخر.

ولقد استوفى القرآن البحث في تحليل قياسهم المدعوم بان المشية التكوينية لم تتعلق بالايمان ونفى الشرك بل المتعلقة بذلك هي التشريعية التي ينحفظ معها اختيار الانسان، حيث قال تعالى:

ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا...^١

مع انه تعالى اراد ان يؤمنوا جميعا فلذا أرسل اليهم رسوله كما قال:

وما ارسلناك الا كافة للناس^٢

١- يونس/٩٩.

٢- سبأ/٢٨.

وقال:

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً^١.

فإن الله سبحانه وإن أراد تشريعاً أن يؤمن من في الأرض كلهم جميعاً، بيد أنه لم يشأ ذلك تكويناً تحفظاً لبقاء الاختيار الذي به تكامل الإنسان فالتلازم بين المقدم والتالي في القياس الاستثنائي مستحق، والتعبير في قوة قوله لو شاء ربك تكويناً أن يؤمنوا لآمنوا جميعاً، لامتناع تخلف المراد عن الإرادة التكوينية فعدم إيمانهم يكشف - بالإن - عن عدم إرادة من الله سبحانه بإيمانهم تكويناً.

وقال أيضاً:

... ولو شاء الله لجمعهم على الهدى^٢.

أي لو شاء تكويناً لا يضطرهم على الهدى ولآمنوا جميعاً بالضرورة، لكنه لم يشأ ذلك صوناً لاختيارهم الذي هو بين الجبر والتفويض. ولذا قال تعالى:

وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين^٣.

أي اللازم على الله سبحانه هو بيان سواء السبيل والصراط المستقيم والطريق الوسطى التي هي القصد بين طرفي الإفراط والتفريط وليس على الله الذي كتب على نفسه الرحمة أزيد من ذلك، ولكن بعض الناس يجوز عن هذه السبيل وينحرف عنها ويفسق عن أمره ولو شاء الله هدايتهم، يمشیته التكوينية التي لا يتخلف المراد عنها لهداهم أجمعين بلا جور لأحد منهم ولا اعتاف فهو تعالى شاء هدايتهم تشريعاً، ولم يشأها تكويناً. فلذا قال سبحانه:

وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر^٤.

١- الفرقان / ١.

٢- الأنعام / ٣٥.

٣- النحل / ٩.

٤- الكهف / ٢٩.

وعند استبانة الميزبين الارادتين بالقول المطلق واتضح الاصول العامة في الهدايتين والارادتين تصل النوبة الى تبين مغالطتهم في تفكرهم الإلحادى حيث قال سبحانه:

ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما انت عليهم بوكيل^١.

يعنى لو شاء الله تكويننا ان يؤمنوا ولم يشركوا ما اشركوا جزميا وبالضرورة، وقال ايضا:

....ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون^٢.

معناه: لو شاء الله تكويننا ان لا يقتلوا اولادهم تقربا الى الالهة و لا يجعلوهم قرابين لها ما فعلوه البتة.

وحيث انهم قد اشركوا وقتلوا اولادهم للالهة فانه يعلم منه ان الله سبحانه لم يشاء ذلك تكوينا فاستبان أن المشيئة التى لا يتخلف المراد عنها انما هى التكوينية منها دون التشريعية وانها لم تتعلق بالايمان والطاعة حتى لا يتخلفا عنها وانما المتعلقة بذلك هو خصوص المشيئة التشريعية التى يكون الانسان المكلف مختارا فى الامتثال بها وبعدمه، فهذا التفكير الصحيح السليم هو البرهان العقلى المصون عن شوب ائى غلط فكرى وذاك الذى ابتلى به المتفكر الوثنى انما هو قياس مغالطى منشأة مما مرمسقا من اشتراك المشيئين واشتباه الامر بينها عليهم، فلذا قال سبحانه:

قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين^٣.

١- الأنعام / ١٠٧.

٢- الأنعام / ١٣٧.

٣- الانعام / ١٤٩.

لان الحجة التي تليد النتيجة ولا تعقم عنها هي التي اقامها الله تعالى لا ما تمسكوا به وهي التي لا تبلغ اليها بل تعقم عنها لاقترانها بالمغالطة. (تدبر)

قبصرة:

بما أن القرآن هدى للناس و ذكرى للبشر ونذير للعالمين لذلك فقد تعرض لمفال كل صنف منهم فما كان منها حقا صوابا ايده وما كان باطلا فضله الى ما كان العامل له شبهة علمية وما كان لشهوة عملية... ثم انه حلل الشبهة العلمية احسن تحليل وازاحها احسن ازاحة على حد لم يبق معه مجال للريب مؤكدا حلل الشبهة العملية اجمل تحليل وعالجها احسن علاج الى حد لم يبق معه مجال للابتلاء والاتصال بها، وذلك بكله لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد والا فقد يزيد شبهة على شبهاتهم كما نطق به تعالى في كلمته:

في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا^١.

والغرض ان القياس المغالطى الذي ابتلى به متفكروا الوثنيين قد تعرض له القرآن وبيّن موضع الغلط وعالجه اجمل علاج وهناك قياس استثنائي آخر لمن يحمل شهوة عملية ولا يبال بما قال بل يتفوه بكل ماجرى على لسانه ويساير تمايلاته... والقرآن يحكيه ويحلل مافيه ويبين منشأته الجاهلي، كما قال تعالى:

وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم^٢.

١- البقرة/ ١٠.

٢- الأحقاف/ ١١.

حصيلته: ان هؤلاء الكفرة حسبوا انفسهم سابقين بالخيرات وانه لا يفوتهم شئ منها وانه لو كان هناك خير لا دركوه ولماسبقهم اليه غيره واذالم يقتبلوا شيئاً ولم يقصدوه فانما هو لاجل نقصه وعدم وجود النفع والخير فيه، ومن هذا القبيل الايمان بالله الواحد وبما جاء به الرسول الاعظم (ص). ثم أنهم ألفوا على هذا الزعم الزائف قياساً استثنائياً لادليل على التلازم بين مقدمه وتاليه عدا حسابان انهم على شئ، بيد ان القرآن يبين عدم التلازم بينها وأن منشأ هذا الحساب الجاهلي عدم الاهتداء بما يهدي اليه الله من الطريقة التي هي اقوم ومن الخير الذي يدعو اليه، حيث قال تعالى:

أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين^١.

لذلك يبين سبحانه مزعمهم ويحلله بأن منشأ قولهم بأن الايمان ليس خيراً بل هو دس وزور وفرية ضبطها التاريخ وكذب له مقدمة تاريخية واسباب مادية انما هو عدم الميز بين الخير والافك وعدم التشخيص بين الخير والشر وما الى ذلك وسيوافيك مافيه بيان مبادئ القياس الجاهلي مما له دخل في تلفيق الدليل.

ثم انه كما ان البحث المسبق كان حول التقليد المحض والتفكر المغالطى وبيان مبادئها وتحليل مناشى الغلط فيما يرجع الى التوحيد، كذلك فيما يرجع الى النبوة بحث ينبغى الايعاز الى نموذج منه لان للنبى (ص) دعوة ودعوى، حيث انه يدعى رسالته ونزول الوحي عليه وصيرورته نبياً، كما ويدعو الى الله الواحد الذى لا شريك له والى اليوم الاخر الذى يحشر الناس فيه جميعاً الى

المبدء العدل الحكيم، وهؤلاء الوثنيون قد قاموا تجاه كل واحد من الدعوى والدعوة ولكن الجهلة منهم قابلوا ذلك بالجمود الفكرى والوقوف على السنة الجاهلية وحفظها والمتفكرين منهم قابلوه بتلفيق القياس المغالطى الدال على زعمهم التافه بأن من المستحيل ان يصير الانسان رسولا او يستبعدان يكون نبيا بل لو كان للنسبة اصل وللرسالة مبدئ فلا بد وان تكون من اوصاف الملائكة وان الصالح لحمل رسالة الله هو الملك السماوى فقط. ولا بعد في ان يكون زمام كلا الفريقين من الجهلة والمتفكرين بيد المستكبرين منهم، حيث ان هؤلاء الملاء استأجروا ضعفاء العقول، كما وانهم استخدموا الذين جعلوا علمهم جهلا ليوحون الى اوليائهم ليجادلوا الحق ويستكبروا عن قبوله ويصيروا صفًا واحدا قبال مدعى النبوة بحيث يعسر ميركل واحد من هذه الطوائف بعضها عن بعض غير ان المباحث القرآنية تفيدنا ان الجدال في الحق والتعرض له والرد عليه عدا كونه من المكر السياسى والدسائس والحيل العملية، انما كان لامرين (احدهما) حفظ السنة الجاهلية التى آلفوا آباؤهم عليها (وثانيها) القاء الشبهة على شكل الاستدلال... والاول هو التقليد والتوقف عن الحركة والثانى هو التفكير المغالطى حسبما تقدم بيانها... ولغات بنموذج من ذلك فيما يتصل الى دعوى النسبة فنقول: إن نطاق الجهلة من المشركين في ذلك كله منهج واحد هو حفظ السنة الموروثة وأنهم وجدوا آباؤهم على ذلك ولم يسمعوا ما يخالف ذلك في ادوارهم الغابرة، كما قال تعالى:

فلما جائهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آياتنا الاولين. وقال موسى ربي اعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون^١.

وكما قال تعالى:

وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب...
ما سمعنا بهذا في الملة الاخيرة ان هذا الا اختلاق أنزل عليه الذكر من
بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب^١.

الى غير ذلك من الآيات التي تدلنا على ان عمدة سناد غشاء المشركين هو
حفظ الجاهلية الموروثة وابقاء سنتها الدائرة، واما سناد متفكرهم هو ان
الرسالة من شئون الملائكة وان الانسان يمتنع او يبعد ان يصير نبيا، كما قال
تعالى:

وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا
رسولا قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء
ملكارسولا^٢.

فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل
عليكم وليؤساء الله لانزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آياتنا الاولين ان هو الا رجل
به جنة فترصبوا به حتى حين^٣.

فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك
اتبك الا الذين هم اراذلنا بآدئ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل
نظنكم كاذبين^٤.

ولئن اطعمتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون^٥.
فقالوا انؤمن لبشرين مثلنا وقومها لنا عابدون^٦.
فقالوا ابشرا منا واحدا نتبعه انا اذ انى ضلال وسفر^٧.

١- ص ٨، ٧، ٥.

٢- الاسراء / ٥ - ٩٤.

٣- المؤمنون / ٥ - ٢٤.

٤- هود / ٢٧.

٥- المؤمنون / ٣٤.

٦- المؤمنون / ٤٧.

٧- القمر / ٢٤.

وما الى ذلك من الآيات الدالة بالظهور او الایعاز على ان البشر يزعم هؤلاء لا يصير رسولا وعلى ان من شرائط الرسالة كون الرسول ملكا وعلى ان البشرية تمنع عنه والقدر المتفق عليه بين جهلة الوثنيين و غشائهم وبين متفكرهم و كذا بين الملاء المستكبرين منهم هونى دعوى النبوة وتكذيب ادعاء الرسالة رغم اختلافهم فى مبادئ التكذيب. وبما انهم اتفقوا على انكار داعية الرسالة نسبوا مدعيها الى الجنون والكهانة والسحر والشعو ونسبوا اليه الافتراء والغرض السوء وهو ارادة اخراج الناس من ارضهم التى يعيشون عليها، كما قال تعالى:

قال الملاء من قوم فرعون ان هذا لساحر علم يريد ان يخرجكم من ارضكم فاذا تآمرون!

وحيث انهم لم يهتدوا بالوحى فتوسوا فيه بأراء شتى ومن ذلك قول قريش فى شأن القرآن تارة بانه اسطورة واخرى بانه كهانة وثالثة بانه شعر وهكذا و لعله المراد من قول الله سبحانه:

الذين جعلوا القرآن عضين!

اى جعلوا له اعضاء وابعضا فعضوه وبعضوه بنسب متعددة ولم يستقروا على شىء اذ لا معيار للسب والشم ولا ميزان للزور والايذاء ولكن الله سبحانه قد نزهه ساحة الرسالة عن الواث هذه النسب وطهر فناء النبوة عن هذه الحزبيلات. ثم بين ان منشاء استنكار الجهلة انما هو الجمود على التقليد والاحتفاظ للتراث الجاهلى وافاد انه مانع عن اى تكامل كما و اوضح ان

منشاء استكبار متفكرهم هو المغالطة في القياس والانحراف عن صراط التفكير السليم.

(اما الامر الاول) فهو ان الله قد وصف الانبياء (ع) بالهداية والصفوة والاجتباء والاخلاص والعصمة عن اغواء الشيطان وسوسته والنزاهة عن الذنب والبرائة عن الشرك واهله والخصومة للخيانة واهلها وما الى ذلك من الكمالات الوجودية، وقال تعالى:

قال الملاء الذين كفروا من قومه انا لثراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين، قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين^١.
كذلك ماأى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر او مجنون اتواصوا به بل هم قوم طاغون^٢.

فافاد سبحانه وتعالى ان اسناد الجنون ونحوه الى ساحة الرسالة انما هو للطغيان وعدم التفكير ولو انهم كانوا من اهل الدراية والعقل لعلموا ان الرسول في حفاظ وصيانة عن ذلك كله، حيث قال تعالى:

اولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين^٣.

وحيث انهم لم يتأملوا ولم يتدبروا فلا محالة اسندوا امرهم الى ما يركنون اليه وهو البأس والبطش والسلطنة وما الى ذلك من ذرايع الطغيان والتواصى بالطغوى، كما قال تعالى:

فتولى بركنه وقال ساحر او مجنون^٤.

ثم انه سبحانه لما بين مدار الهداية والدراية وان الانبياء الذين يدورون

٣- الاعراف / ١٨٤.

٤- الذاريات / ٣٩.

١- الاعراف / ٧-٦٦.

٢- الذاريات ٣- ٥٢.

مدارهاهم الهداة والدراة فلذا سفّه المعرضين عن ذلك المقطب وحكم
بسفاهتهم في قوله تعالى:

ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه^١.
الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون^٢.

(واما الامر الثاني) وهوي بيان أن منشاء استنكار الجهلة هو التقليد وحفظ
تراث آبائهم الذين لا يهتدون ولا يعقلون، فهو كما قال تعالى:

قالوا يا شعيب اصلا تك تامرک ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل في
اموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد.
قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك
لرجناك وما انت علينا بعزير^٣.

يعنى تعالى ان الجمود على الاستنسان بالسنة الهالكة الموروثة اوجب لهم ان
لا يفقهوا كثيرا مما يقوله شعيب النبي اذ التقليد ينافي التحقيق حسبا تقدم مرارا
فلذلك لم يفقهوا اصل النبوة ولم يقبلوا دعويها منه (ع) ولا من غيره من مدعيها
كما ولم يفقهوا دعوتهم الى التوحيد والمعاد وما اليها...
(واما الامر الثالث) اى بيان ان منشاء استكبار المتفكرين منهم
هو الانحراف عن نهج التفكير الصحيح فهو ان التفكير السليم عن عيوب المغالطة
في المعارف الالهية لا امكان له من دون ان يكون للانسان معرفة سليمة عن اى
نقص، اذ الجاهل بنفسه فانه بغيره اجهل، ولذا عدها اصحاب المعرفة مفتاح
سائر المعارف وباب تلك المدائن العلمية فلا يمكن فتحها والنزوع اليها الا
بمعرفة الانسان نفسه.

١- البقرة / ١٣٠.

٢- البقرة / ١٣.

٣- هود / ٨٧ و ٩١.

وبما أن التفكير الوثني استقر في معرفة الانسان على ماديته، وان جميع شئونه مادية وان نفسه كبذنه مادية محكوم بالتطور المنتهى الى الزوال، وان الموت ضلال في الارض ونفاد رأسا، وان الانسان جسم نام ناطق ولا غير، فهو كالشجر ينمو ويفنى، لآحيات له اثر موته اصلا، فلذا اشركوا في المبدء الربوبي والعبادي اولا وانكروا النبوة والرسالة من رأس... ثانيا ونفوا المعاد واليوم الآخر ثالثا. وذلك لأن لانسان بعد افتراض ماديته لا يقتدر على معرفة ربه فطبيعي له ان لا يقتدر على عبادته والاستعانة منه والتوكل عليه والالتجاء اليه، كان هذا سببا لان يركنوا الى الآلهة وجعلها وسائط فيض بينهم وبين الله وشفعاء لهم وان يعبدوها ليقربوهم الى الله الزلق... وهكذا الانسان المفروض كونه ماديا لا يقتدر على مخاطبة الله واستماع كلامه ورؤية جماله بقلبه، اذ القلب حسب افتراضهم انما هو كالعقاب مادي، وعليه فلا يتيسر له تلقى الوحي من ربه بل ان كان هناك وحى وتلق له فانما هو للملك، وان كان في البين رسالة وابلاغ فانما ذلك له ايضا لان الانسان وهكذا الانسان المزعوم كونه ماديا فانه لا مجال له لان يحى بعد الموت والى الميعاد والى الزائل لا يعود.

ثانياً فهذا المبنى الغلط هو الذى انتج هاتيك الاوهام الغالطة كما وانه الداء العضال الغاشى على قلوب الماديين غشيم من الجهل والعمى ما غشيم، ولما كان القرآن نورا مبينا ومن اجلى خواصه اناة المواضع المظلمة فلذا بدء بتعريف الانسان وتحديد حقيقته المؤلفة من نفس ناطقة مجردة عن المادة مبرأة عن احكامها ومن بدن مادي واقع تحت تدبير تلك النفس، اهتم بتعليم ان الانسان كادح الى ربه كدحا فيلاقيه فله ان يعرف ربه على قدر مكنته وان يمتنع اكتناهاه وله ان يعبد ولا يعبد سواه ويستعينه ويستهديه ويعتمد عليه

ويراجع اليه في كل شئونه ويتخلص بالتوحيد عن حباثل الشرك، وهكذا تفهم ان الانسان لتجرد روحه ونزاهة ضميره و صلوح قلبه و طهارة نفسه قابل لان يتلقى الوحي من لدن حكيم عليم ويصل الى مبدرج يصارح ويقول: ماكنت اعبد ربا لم اره، وكيف لا والملائكة الذين سجدوا له قابلة لذلك المدرج فللإنسان اذا ان يصير نبيا بلا استحالة ورسولا بلا استبعاد.

وهكذا تبين ان الموت انتقال من دار الى دار وان الانسان لا يضل بالموت في الارض وانه لا ينعدم حتى يعاد ولا ينفى لكى يعود، بل هو منتقل بالموت من الدنيا الى برزخ يكون روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النيران ثم الى اليوم الاخر والقبمة الكبرى... فبهاء سبائة هذه المعارف ينجو الانسان عن غائلة انكار الوحي والنبوة والرسالة ويتحرر عن اصر سلاسل نفي المعاد وغل انكاره، اعاذنا الله من ائ تفكر لا يصححه الوحي الالهى ومن ائ اعتقاد لا يرضيه، ومن ائ خلق لا يرتضيه ومن ائ عمل لا يصبوه وهدانا الله الى مع الحق ولب الصواب واورثنا الكتاب وورثنا منطق من يستنطق القرآن وهم العترة الطاهرة - سلام الله عليهم اجمعين.

ولكل من هذه المسائل بحث يختص بها وبحقلها والمباحث عنه هنا هو الدائر على السنة المتفكرين من الوثنيين والذى قلدهم فيه اذناهم وهو: ان الانسان لا يصير رسولا الهيا وان البشرية بما هي بشرية تمنع عن النبيل لذلك المدرج الشامخ (اولا) ولان مدعى النبوة بشر كغيره من احاد النوع الانساني، فلو افترض جواز صيرورة البشر نبيا و غُض النظر عن امتناعه لجاز ذلك لغير مدعيها ايضا (ثانيا) وذلك لانهم امثال وحكم الامثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد، فلذا ترى - ايها القارئ العزيز - ان القرآن الكريم ينقل اصل الامتناع عنهم تارة والاستدلال بالتماثل وان حكم الامثال واحد تارة اخرى فيجيب

عن الاستدلال للامتناع مرة... وعن الاستدلال باتحاد حكم الامثال اخرى.
و محصل ما افاده القرآن في امكان الرسالة للبشر بمعناها العام الشامل
لضرورتها اذ هي اى رسالة الانسان -على الجملة- امر ضرورى لا يرب فيه،
هوان للانسان روحا مجردا عن المادة لا يحويه مكان ولا يضبطه زمان ولا يتشكل
بشكل خاص هندسى ولا يحكم عليه ما يحكم على المادة وبه يصير صالحا لتعلم
الاسماء والحقائق من الله سبحانه كما قال تعالى:

وعلم آدم الاسماء كلها^١.

وبه يصير معلما للملائكة وينبئهم بالاسماء والحقائق، كما قال تعالى:
يا آدم انبئهم بأسماء هؤلاء^٢.

وبه يصير مسجودا للملائكة اجمعين... فهو بذلك كله يليق ويؤهل لان
يصير خليفة لله تعالى كما قال:
انى جاعل فى الارض خليفة^٣.

وقال:

فسجد الملائكة كلهم اجمعون...^٤.

الى غير ذلك من الكمالات الوجودية التى لاتنالها المادة ولوازمها،
ولا يتوصل اليها المقدار واحكامه فاذا جاز للملك المتعلم الساجد ان ينال
الوحى والرسالة، فلانسان الكامل المعصوم المعلم اياه المسجود له جائز ذلك
ايضا بالضرورة، فاذا جاز للانسان ان يصير رسولا الهيا فلابال للاستبعاد او

٣- البقرة/٣٠.

١- البقرة/٣١.

٤- الحجر/٣٠.

٢- البقرة/٣٣.

الاستحالة حتى يقول قائلهم: «ابعث الله بشرا رسولا». او يقول «ولو شاء الله لانزل ملائكة...» او يتنوّه بقوله: «لولا انزل عليه، ملك...»
فالانسان صالح للرسالة الالهية واما ضرورة كون الرسول انسانا وعدم كفاية رسالة الملك فهو امر آخر او عز البه القرآن وبينه ايضا. وتوضيحه: ان البحث في النبوة والرسالة انما كان يتم في امور... هي كما يلي:

(منها) اثبات ضرورتها وعدم كفاية العقل وحده لهداية المجتمع البشري
(ومنها) اثبات امكان الرسالة للانسان بلا امتناع (ومنها) بيان ضرورة كون الرسول المبعوث الى الناس انسانا يعيش معهم وياكل ويمشي في الاسواق كاحد منهم من دون كفاية رسالة الملك (ومنها) امور اخرى لا مجال للاشارة اليها ههنا فضلا عن البحث عنها.

وحيث ان القرآن بحث في غير مورد عن ضرورة هداية الناس الى سعادتهم الخالدة وتعرض لعدم كفاية العقل في تأمنها حسبنا قررنا في الرسالة المعمولة في ذلك وبيّن لزوم بعث رسول خارجي مؤيد للرسول الداخلي -اي العقل- فيما يعلمه ومعلم اياه فيما لا يعلمه ومنبه له فيما ارتكز في فطرته ومثير لدفائن علومه صريح بان ذلك الرسول الظاهري المبعوث الى هدايتهم لا بد وان يكون هو من يباشرهم ويحتج عليهم ويمجاهد لهم ويكون اسوة لهم وحجة عليهم وملجأ للحوادث الواقعة وهاديا لهم في الحرب والسلم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويأخذ من اموالهم صدقة تطهرهم وينظّم امورهم ويُعبأ عساكرهم... وما الى ذلك مما اسسه الكتاب وفصله العترة وحصله الثقلان احسن تفصيل. ومن البين ان الرسول الذي هذا شأنه لا امكان لان يكون ملكا لا يراه الناس ولا يباشرهم بل يجب ان يكون انسانا مثلهم لكي يتيسر له ذلك، اذ الرسول لا بد وان يكون مماثلا للمرسل اليه فيما اذا كان شأنه الهداية الخارجية لا مجرد الالتقاء في الروح

وانزال الوحي في القلب مثلاً، فلذا قال سبحانه:

قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا^١.

يعنى: ان الملك انما يصلح لرسالة الملائكة لا لرسالة الناس ولو كان القاطنون في الأرض ملائكة لأناساً لأرسل الله اليهم ملكا رسولا وحيث ان سكنة الأرض الماشين عليها اناس ليس الا... فلا بد وان يكون الرسول المبعوث اليه منهم، اى لامناص من ان يكون انسانا يعيش معهم ويموت معهم كى يكون اسوة لهم وحجة عليهم، ولو فرض ان الله ارسل ملكا الى الناس فلا بد وان يصوره بصورة الرجل ليكن لهم ان يروه ويسائلوه ويراجعوا اليه، فاذا تصور بصورة الرجل عاد الامر تجذعا ولكانوا يقولون ايضا ابعت الله بشرا رسولا، اذ لو لم يصور الملك بصورة الانسان المادى لما امكن لهم ان يستمعوا كلامه ويتأسوا به ولو تصور بصورته لأمكن لهم ذلك ولكن كانوا يقولون ايضا (وفي نفس الوقت): «ما هذا الابشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آبائنا الاولين» والى ما قررناه يشير قوله سبحانه: ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون^٢.

والذى تفيدنا هذه الاية لزوم وضرة التناسب بين الرسول والمرسل اليه ليحاورة وليصير قدوة له. كما وان من اللازم كونه رجلا لا مطلق انسان يعم المرئى، ايضا، كما صرح به قوله تعالى:

وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاستلوا اهل الذكر ان كنتم

لا تعلمون^٣.

١ - الاسراء / ٩٥.

٢ - الانعام / ٩.

٣ - النحل / ٤٣.

وذلك، لأن الرسول لابدوا ان يكون مرجعا للحوادث الواقعة من الحرب والسلام... وما الى ذلك من شئون المجتمع الانساني وهولا يتيسر فيما لو كان امرأة يستلها الناس من وراء حجاب ليكون اذكى لهم، كما تلزمنا الآية به:
واذا سألتهم من متاعا فاستلوهن من وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن... .

فالدين الذي يرى طهارة القلوب في سؤال المرأة من وراء حجاب لا يمكن ان يكون قيمه ومبلغه ومسئوله ومعلمه المرأة التي لا يتمكن الناس من الاتصال والمعاشرة معها في السر والعلن، وهكذا تفيدنا آيتنا المبحوث عنها امرأ آخر هو ان لبس الحق بالباطل و كتمان به هوزيغ للقلب وعاهة له، والقرآن انما هو شفاء لما في الصدور من الجهل والكبر والطمع وحب ما هو رأس كل خطيئة، كما قال سبحانه:
قد جئناكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور؟.

فاذا لم يستشف به الذي في قلبه مرض يمسك الله سبحانه فيضه عنه، فاذا امسك رحمة الخاصة ولم يرسلها اليه ولم يكن هناك مرسل آخر كما قال تعالى و «ما يمسك فلا مرسل له» يزداد السقم والزيف - بطبيعته - اذ المرض يتزايد لولم يعالج، وهذا هو الموعز بقوله تعالى:
في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ؟.

وقوله تعالى:

فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم .

٣- البقرة / ١٠.

٤- الصف / ٥.

١- الاحزاب / ٥٣.

٢- يونس / ٥٧.

وعليه فلو ابتلى الإنسان بلبس الحق بالباطل ولم يعالج مرضه هذا بما هو شفاء لماقى الصدور، فانه يسلب الله فيضه الخاص عنه فيسدم لبسه ويستمر، كما قال تعالى: «وللبسنا عليهم ما يلبسون» وهذا اللبس الالهى إنما هو لبس ثانوى و ردفعيل، لانهم يعذبون به جزاء بما كانوا يلبسون كالاضلال الجزائى كما قال تعالى:

يفضل به كثيرا ويهذى به كثيرا وما يفضل به الا الفاسقين^١.

اذ الاضلال البدائى قبيح لا امكان لصدوره عن الله تعالى، والذي يصح سنده اليه انما هو الاضلال الثانوى الذى يكون جزاء وفاقا لعمل الفاسق الضال عن سبيل الله بعد تبيتها عن سبيل الغى، والهدف هو ان الله الذى هو نور السموات والارض لا يلبس الحق على احد بالباطل ابداء، بل يهذى الكل اليه بالحق ولا يلبسه بشيىع اصلا، كما قال:

الحق من ربك فلا تكن من المترين^٢.

وقال:

قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد^٣.

يعنى ان الحق انما يتنزل من عند الله لا من عند غيره فاذا جاء الحق فلا مجال معه للباطل باطلاق كلمته لا الباطل الذى كان له سبق وجود يقدر على العود ولا الباطل الغير المستبق به يصلح للحدوث كما مر مسبقا، فلا امكان لأن يلبس الله الحق بالباطل، فعنى قوله تعالى: «وللبسنا عليهم ما يلبسون»

١- البقرة/٢٦.

٢- آل عمران/٦٠.

٣- سبأ/٤٩.

هو ما تقرر... وعلى ضوء ذلك بكنه يتضح امكان الرسالة الالهية للبشر بلا محذور فيه وبه يدعم توهم المتفكرين من المشركين...

واما محصل ما افاد القرآن الحكيم في دفع شبهة التمسك بقانون اتحاد الامثال فهو ان لوجود النوع الانساني مدارج بعضها على بعض ادناها كالحجارة او اشد قسوة وتنزلا واعلاها كالمرأة الصافية التي لا تكذب مارأته وبينها مدارج شتى وليس كل احد صالحا لتحمل اعباء الرسالة التي لا يعلم موضعها و موطنها الا الله، كما قال هو تعالى:

الله اعلم حيث يجعل رسالته!

وهؤلاء المتشبهون بقانون التماثل لاستنادهم في معرفة الامور الى الحس والمادة

قالوا ما هذا الا بشر مثلكم يا كل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون؟

فقالوا بئنا نكبر منهم:

أنؤمن لبشرين مثلنا وقومها لنا عابدون^٢.

لكن القرآن المؤسس علومه على ان معيار معرفة الاشياء هو العقل والوحي دون الحس وأن الموجود اعم من المادة والمجرد عنها، افادنا - بصورة حية - بان التماثل في بعض الامور لا يكفي في اتحاد الحكم مالم يستوعب المثلية جميعها، وحيث ان للنبي (ص) قلبا ظاهرا عن دنس الطبيعة ورجسها ومنزها عن رين المادة ورجزها وسليا عن حب الدنيا وزبارجها ومبرا عن ضيق نشأة الشهادة

١ - الانعام / ١٢٤.

٢ - المؤمنون / ٣٣.

٣ - المؤمنون / ٤٧.

وزيغها... فهو صالح لان يوحى اليه ويتلقاه من لدن حكيم خبير، فلا تماثل بين من شرح الله صدره وبين من ختم على قلبه، ولا تشابه بين من لا يزيف بصره ولا يطفئ وبين من ران على قلبه ما كان يكسب فلا يجد من لا يهيمه الا نفسه البهيمية ما يجد من جاهد نفسه وهواه كما كان يجاهد خصمه وعدوه.

والى ما ذكر من اختصاص التماثل بين النبي (ص) وبين هؤلاء ببعض الجهات دون بعضها الاخر يتجه قوله تعالى:

وقالوا قلوبنا فى اكفة مما تدعونا اليه وفى اذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون، قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه^١.

اذا المحجوب الذى قلبه فى كنان وفى اذنه وقر كيف يسع له أن يكون مثلاً لمن خرقت ابصار قلبه الحجب النورية فضلاً عن الحجب الظلمانية ووصل الى معدن العظمة وصارت روحه معلقة بعز قدس الله سبحانه فاذا لم يكن هناك تماثل فى الدرجة الوجودية فلا مجال معه لاتحاد الآثر، ومآل هذا التحليل الى منع الصغرى وان التماثل بين النبي (ص) وغيره - اى التماثل التام - ممنوع، وعليه فع عدم التماثل لا مجال - نهائياً - للتمسك بالكبرى الناطقة بوحدة حكم الامثال اذ المثل دليل على شبهة^٢ لا على غيره.

تنبيه:

ان فى المسئلة مقصدين لابد وان يعتنى بشأنها (الاول) ان سائر الناس ليسوا امثالا للانبياء حتى يوحى اليهم ما اوحى الى هؤلاء الانبياء وينزل اليهم

١- فصلت / ٥-٦.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٥٣.

ما انزل على هؤلاء. (والثاني) هوان الانبياء من ناحية فقرهم الوجودى وانه لا يمكن ان يصدر منهم شئ بالاستقلال وان جميع ماياتون به فهو مساند الى اذن الله سبحانه وانهم لا يملكون لانفسهم موتا ولا حياة ولا نفعا ولا ضرا... امثال لسائر الناس فالم يأذن الله بشئ لماقدروا على الاتيان به لان الانبياء كالامم محكومون بالفقر ذاتا وصفة وفعل فلذا لا يصح للناس اقتراح آية رغم شهيتهم المتزايد لها كما لا يمكن للانبياء الاتيان بها عالم يأذن الله سبحانه ولعل من الممكن استنباط هذين المقصدين من قوله تعالى:

قالت رسلهم أرى الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مسمى قالوا ان انتم الابشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين قال لهم رسلهم ان نحن الابشر مثلكم ولكن الله يمين على من يشاء من عباده وما كان لنا ان ناتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليترك المومنون.

اذا استفاد من قولهم للانبياء ان انتم الابشر مثلنا هو ادعاء التماثل وعدم المزية الموهلة لهؤلاء الانبياء كما ان الذى يفيدنا قولهم: تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا، هو لزوم حفظ السنة الموروثة والرجوع الى الاموات ابتداء او استدانة الرجوع التقليدى اليهم بقاء، والاستفاد من قولهم فاتونا بسلطان مبين هو اقتراح الاية حسب ما يشاؤون واما قول الانبياء فى الجواب: ان نحن الابشر مثلكم ولكن الله يمين على من يشاء من عباده، فهو يعطينا ان التماثل على الجملة -اي فى بعض الوسامات والمدارج الانسانية- حق متفق عليه، بيد الامتنان الالهى اوجب لبعض ممن يشاء من عباده درجة فائقة من الانسانية بها يمتاز الانبياء عن سائر الناس فلا تماثل -عندئذ- فى البين كى يتم دعوى المماثلة من

عند المشركين، واما الذى يعطى قولهم فى الجواب: وما كان لنا ان ناتيكم
بسلطان الا باذن الله... هو أن الانسان وإن بلغ ما بلغ وامتاز عن ابناء نوعه
بأى امتياز ومؤهل، فانه- فى نفس الوقت- ورغم كل ذلك لا يشذ عن فقره
الوجودى ولا يلج باب الغنى المختص بالله القائل:

يا ايها الناس انتم الاقراء الى الله والله هو الغنى الحميد^١.

فهؤلاء الانبياء العظام فى استعانتهم بالله وافتقارهم اليه وتوقف جميع
اعمالهم على اذنه امثال للناس ولكن الله ياذن لهم حسب ما يشاء دون غيرهم
فلذا يتيسر للنبي ان يقول...

وابرى ألاكه وألبرص واحي الموتى باذن الله^٢.

دون غيره من آحاد الناس. ومن هذا الاذن الخاص ينتزع الاعجاز
ويصح معه التحدى وبه تثبت النبوة لاجله تتم الحجة، وهذا التحليل يعطينا
حقيقة اخرى، هى: تبين موضع المغالطة من متفكرى المشركين او غيرهم ممن
يقترح المعجزة بما تشتهى انفسهم المسئلة والامارة، وكذا بيان سر قول الانبياء
تجاه اقتراح هؤلاء: ان نحن الابرص مثلكم، وهكذا سر قوله تعالى:...

وما كان لرسول ان ياتى بآية الا باذن الله لكل اجل كتاب^٣.

اذ الممكن سواء أكان نجيا او غيره وسواء اكان ملكا او انسانا فانه
مفتقر الى الله فى اصل وجوده ومفتاق اليه فى ايجاده لان اليجاد كالوجود ربط
محض الى ايجاده تعالى والالزم التفويض الذى هو اسوء حالا من الجبرالسى

١- فاطر/١٥.

٢- آل عمران / ٤٩.

٣- الرعد/ ٣٨.

الممتنع عقلا والمنوع نقلا ومن هنا ينبغي معنى قوله تعالى في تعريف الملائكة:

بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون.

كما ويظهر أن الملك كالإنسان عبد داخر فلا يصح الالتجاء إليه بلا إذن من الله الذي حرم عبادة من دونه ومنع عن اتخاذ غيره نداً له تعالى وبذلك يلوح وبيان موضع الغلط الفكري لمن يتخذ الملائكة أرباباً لهم بالاستقلال فتحصل أنّ أرساط الناس ليسوا أمثالاً للأنبياء في الكمال الوجودي وإن كان الأنبياء أمثالاً لهم في الفقر الذاتي تنوا فلذا لا مجال لقانون التماثل في كمال الرسالة وإن كان له مجال في احتياج المرسلين إلى الإذن الإلهي.

تبصرة:

إن المستفاد من القرآن هو أن الوثنيين كانوا معتقدين بالملائكة أنه فوق الإنسان وأنه صالح لتلقى الوحي والرسالة من الله دون الإنسان وإن له تقرباً خاصاً إليه تعالى: ليس للإنسان ذلك كما وأنهم كانوا يعتقدون أنه ولد الله سبحانه، ولو أنهم كانوا معتقدين بأنه مماثل الإنسان وله تركيب جسماني مادي لما عبدوه، ولما حكموا بصلاحه وتأهله لتلقي الرسالة دون الإنسان ولما اعتقدوا بشفاعته، أما القرآن الكريم فينبئ بعض هذه الأمور بإطلاقه كربوبيته الملك ومعبوديته وولديته الله سبحانه وينفي بعضها الآخر مقيّداً بإطلاق، كشفاعة الملك حيث أنه نفي استقلاله فيها وأثبت له ذلك مأذوناً...

ولم يتعرض لكونه فوق الإنسان المادي المحسوس كما ولم ينفيه، بل قال بأن

الانسان . لم تبدل نشأة شهادته الى نشأة الغيب لما امكن له رؤية الملك، كما قال تعالى:

وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا^١.

يعنى ان رؤية الله سبحانه مستحيلة سواء كانت في عالم الشهادة والحس اوفى البرزخ وعالم التمثيل، اذلا صورة مثالية للحق المحض المجرد عن اى قيد عقلى فضلا عن قيد وهمى او خيالى. واما رؤية الملائكة فهى وان لم تتمكن في نشأة الشهادة بالحس المادى، الا ان لها امكانا في نشأة البرزخ والمثال فلذا يرونهم ذلك اليوم ولكن لا بشرى لهم -عندئذ- كما قال سبحانه:

ولنرى اذيتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم وذوقوا عذاب الحريق^٢.

كان هذا هو السبب لأن يقول هؤلاء الكفار المضروب وجوههم بعذة من الملائكة وادبارهم بعذة اخرى منهم: «حجرا محجورا»، اى نحتجر بحجركم ونلوذ بمعاذكم، صونا عن الضرب والتعذيب. وزبدة المحض: ان معتقد الوثنيين في الملائكة هو أنهم فوق البشر وانهم صالحون لما لا يصلح له الانسان وما الى ذلك، ونفى القرآن بعضا مما كانوا يعتقدون فيهم ولم ينف تجردهم عن الجسم المادى ونحو ذلك بل امضاء بعدم امكان رؤيتهم في نشأة الحس لان شهودهم يتوقف على تبدل احس المادى بالبرزخ المثالى او تغير الدنيا بالآخرة حتى يتجلى للانسان ملك الموت -مثلاً- كما قال مولينا السجاد (ع):

...وتحلى ملك الموت لقضها من حجب الغيوب^١.

ايضاح :

قد مر معنا: ان التقليد انجماد فكري مانع عن الرقي الى ذرى التحقيق المؤسس عليه المعارف الحقة وان التحجر الذهني بضاعة الجهلة الذين شعارهم هو: «انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آتارهم مقتدون» وثارهم هو: «ماسمعنا بهذا في آباءنا الاولين»، وان القرآن الحكيم وضع عن الانسان اصر القلادة والفعل وهداه الى العقل البرهاني او النقل القطعي بلا تطارد بينهما بل مع التلازم والتعاقب اذ البرهان العقلي يصدق لما بين يديه ولما هو فوقه وامامه من الوحي القطعي. ولان الوحي القطعي -ايضا- مصدق لما بين يديه من البرهان العقلي وسبحان الوحي القطعي عن طرد البرهان العقلي وحاشا العقل الصراح والبرهان المنزه عن شائبة المغالطة عن التمرد تجاه الوحي وعدم تخضعه لديه وعدم اقراره بما جاء به والالتجاء اليه والتفقه عليه لانه بالذات -اي العقل البرهاني- قائم على ضرورة الوحي وجودا وعلى عصمته عن اى وهن وسوء وصيانتته عن اى هون وحزازه وطهارته عن اى لوث وقذارة و نزاهة عن اى جهل وخطيئة وبرائته عن اى عيب ونقص وصفافاً... فعه لا يمكن ان لا يتعبد بالوحي القطعي ولا يؤمن به ولا يلزم ان لا يعتقد بنفسه وهذا هو محذور الجمع بين النقيضين الممتنع بالضرورة.

ثم ان الانسان المتفكر على منهج الصواب اذا قام عنده الحق اما بالبرهان او بالوحي فانه يعتقد به واذا كان آباءه معتقدين بذلك ايضاً فهو يتبع ويشدد

١- الصحيفة السجادية، دعاء ختم القرآن.

عزمه به، وهذا هو الوراثة الكريمة لا التقليد الدائر مدار القائل دون المقول، اذ التقليد انما هو الركون الى شخص معين واخذ ما يصدر عنه بالسمع والقبول بلا عرض له على العقل او الوحي واما الوراثة الكريمة فهي طمأ نينة إلى الحق الذي نطق به العقل او دلل عليه الوحي، واتفق ان المتقدمين ايضا كانوا يعتقدون بذلك. ومن هذا القبيل توصية الانبياء ابنائهم بالاسلام وكذا اتباع ابنائهم لهم وابتهاجهم بهذا الاتباع. وهكذا امر الله سبحانه رسوله باتباع هداهم..
(اما الاول) فكقوله تعالى:

اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون، ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون^١.

لان التواصل بالحق هو غير الايصاء بالتقليد والتحجر الفكري.
فابراهيم (ع) وكذا يعقوب (ع) قد اوصى بنيه بالحق.
(واما الثاني) فكقوله تعالى:

إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتبع ملة آباءى ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون^٢.

لان اتباع الحق بعد انجلائه ليس هو التقليد وان صادف انه كان دينا للاباء، اذ المتبع هنا هو الحق لا مقال الاب والجد او السنة الموروثة وما إليها، ولذا ذكر برهان التوحيد ونفى الشرك في قوله: ... ما كان لنا ان نشرك بالله

١- البقرة/١٣٣-١٣١.

٢- يوسف / ٨-٣٧.

من شئ وذلك لان الله الذى لاحد الربوبيته، لامعنى. لأن يكون شئ دونه ربا
لشئ أصلا.

(واما الثالث) فكقوله تعالى:

اولئك الذين هدى الله فبها هم افنده قل لا اسئلكم عليه اجرا ان هو
الا ذكرى للعالمين^١.

لظهور الآية في ان الله امر رسوله باقتداء هداية الانبياء الماضين
لاباقتدائهم بأن يصير تابعا لاشخاصهم بما هم انبياء، بل ان يكون تابعا للحق
الذى يكون هؤلاء ايضا اتباعا له وذلك لأن الذى اوحى اليهم و انزل عليهم و
تجلى لهم واستقر في قلوبهم تحقق ذلك كله بالنسبة الى رسول الله (ص) ايضا
ويشهد له قوله تعالى:

انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم
واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وابوب ويونس وهرون وسليمان
وآتيناد داود زبوراً^٢.

فالمحصل (اولا) ان مجرد توافق عقيدة شخص لمعتقد قوم تقدموا عليه ليس
تقليدا واتباعا لهم بعد ان كان معيار الاعتقاد عنده هو الحق المبرهن عليه بالعقل
او الناطق به الوحي.

(ثانيا) ان الفرق بين قول يوسف: «واتبعت ملة آبائي»^٣ وبين قول هؤلاء
الجهلة من المشركين: «انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون.»
هو الفرق بين الحق الحقيقي بالتصديق وبين التقليد الباطل الذى يلزم الاتقاء
عنه.

١ - الانعام / ٩٠.

٢ - النساء / ١٦٣.

٣ - يوسف / ٣٨.

(ثالثاً) ان الحق يوخذ به في اى زمان ومكان ومن اى ناطق و كاتب،
كما قال مولينا الرضا(ع):

الحكمة ضالة المؤمن فاطلبوها ولوعند المشترك تكونوا احق بها واهلها^١.

وهذا هو الذى يقال فيه: «انظر الى ما قال ولا تنظر الى من قال.»

(رابعاً) ان الاتباع والانقياد لا يسوغ الا فى الفروع دون الاصول .

(خامساً) ان التقليد لا بد وان ينتهى الى التحقيق حتى يثبت ان المتبوع معصوم او منصوب من قبله بالنصب الخاص او العام . وهذا هو الذى ورد فيه عن ابي جعفر (عليها السلام) فى قول الله عزوجل:

فلينظر الانسان الى طعامه^٢ . قال(ع): علمه الذى ياخذ عمن ياخذ^٣.

اذالعلم البرهانى طعام طيب مهياً من مادة بديهية معدودة من علوم متعارفة ومن صورة بديهية الانتاج صورها اياها العقل السليم عن آفة الغلط وعاهة الخيال ولايعتبر فيه ازيد من الصدق الضرورى كالمقائل المعين اوالكاتب المعلوم ونحوذلك . اذلا تأثيرلفكره ولالفظه ولاعمله ولاكتابته ولاالشان من شؤنه . لذلك فانه يستوى فيه البروالفاجر كالعالم الرياضى وما اليه وهذا على خلاف ماالمبدئه الفاعلى تأثيرفيه بنحو من الانحاء ، اذلا بد هناك ان يحرز كونه صالحالان يركن اليه لعصمة اونيابته عن المعصوم نيابة خاصة به او عامة له ولغيره .

(سادساً) ان الحجر الاساسى فى معرفة المبدء والمعاد والوحى والنبوة هو

١- امالى الطوسى .

٢- عيس / ٢٤ .

٣- الكافى، ج ١ ، باب النوادر من كتاب فضل العلم .

معرفة الانسان نفسه كما قال مولينا الرضا (ع):

افصل العقل معرفة الانسان نفسه!

وقال (ع):

صديق كل امرء عقله وعدوه جهله^١.

وقال (ع):

صديق الجاهل في تعب^٢.

(سابعاً) ان مقطب المعرفة ومعيارها هو العقل دون الحس، كما قال مولينا

الرضا (ع):

...واعلم ان كل ما اوجدتك الحواس فهو معنى مدرك للحواس وكل
حاسة تدل على ما جعل الله عزوجل لها في ادراكها والفهم من القلب بجميع
(يجمع) ذلك كله^٣.

(ثامناً) ان التفكير انما هو بتحقيق الاصول اولاً وتفريع الفروع واستنباطها

منها ثانياً كما قال مولينا الرضا (ع):

...فاعقل ذلك وابن عليه ما علمت صواباً.

(وثامساً) ان معرفة الله ميسورة على قدر الطوق البشري وانه لا مجال فيها

للتفريط بان يطلبه الانسان بالحس ولالافراط بان يشتهي احاطته بالقلب،

١- البحار ٣٥٥/٧٨.

٢- مسند الامام الرضا ٣/١.

٣- التوحيد، ص ٤٣٨.

٤- البحار ٣٥٥/٧٨.

كما قال مولينا الرضا (ع):

...ولكن يدل على الله عز وجل بصفاته ويدرك باسمائه ويستدل عليه بحلقه حتى لا يحتاج في ذلك الطالب المرتاد الى رؤيه عين ولا استماع اذن ولا لمس كف ولا احاطة بقلب فلو كانت صفاته جل تناؤه لا تدل عليه واسماؤه لا تدعوا اليه والمعلمة من الخلق لا تدركه لمعناه كانت العبادة من الخلق لاسمائه وصفاته دون معناه فلولا ان ذلك كذلك لكان المعبود الموحد غير الله تعالى لان صفاته واسمائه غيره^١.

وقال (ع) - ايضاً:

...والاسماء كلها تدل على الكمال والوجود ولا تدل على الاحاطة كما لا تدل على الحدود التي هي التربيع والتثليث والتسديس لان الله عز وجل وتقدس تدرك معرفته بالصفات والاسماء ولا تدرك بالتحديد بالطول والعرض والقلة والكثرة واللون والوزن وما اشبه ذلك وليس يحل بالله جل وتقدس شيئ من ذلك حتى يعرفه خلقه بمعرفتهم انفسهم بالضرورة التي ذكرنا^٢.

وقال (ع) ايضاً في جواب سؤال عمران عن الحكيم (اي الله سبحانه)

في اي شيء هو وهل يحيط به شيء وهل يتسحلول من شيء الى شيء اوبه حاجة الى شيء: اخبرك يا عمران فاعقل ما سألت عنه فانه من اغمض ما يرد على المخلوقين في مسائلهم وليس يفهمه المتفاوت عقله العاذب علمه ولا يعجز عن فهمه اولوالعقل المنصفون^٣.

فالعقل اذا انصف ولم يتلوث بلوث التفريط ولم يتدنس بدنس الافراط ولم يتقدر بقدر المغالطة في مادة القياس الفكري ولا في صورته ولم يفتنه بعض

١ - التوحيد، ص ٤٣٧.

٢ - التوحيد، ص ٤٣٧.

٣ - التوحيد، ص ٤٣٩.

المقدمات عن النتائج ولم يغفل ولم يعزب علمه عن مثقال ذرة مما يؤثر في الاستدلال فانه قدبر على فهم اغمض المعارف وهو فهم التوحيد وغناء الله عما سواه واقتضاه اليه سبحانه وهذا هو الحث الى البرهان العقلي والترهيب عن القياس الوهمي الذي انتجته التدبير في القرآن، وقد صدقه مستنطقه -وهو الانسان الكامل المعصوم (ص)- كما قال (ع):
...وبالعقول يعتقد التصديق بالله^١.

وقال (ع) ايضا:

...فكل ما في الخلق لا يوجد في خالقه وكل ما يمكن فيه يتمتع في صانعه^٢.

اذ بقوله (ع) وبالعقول... الخ. حث ورغب الى البرهان وبقوله (ع) فكل ما يوجد... الخ حذر عن المغالطة.

المقام الثاني: في موقف الشهود القلبي تجاه القرآن الحكيم

العلم بالشئ قديكون بلا واسطة اى امر آخر وقد يكون بوساطته. والاول هو العلم الحضورى الذى لا واسطة هناك بين المعلوم والعالم والثاني هو العلم الحصولى الذى يكون هو بنفسه واسطابين المعلوم الخارجى وبين العالم وان لم يكن بين ذلك العلم وبين العالم واسطة والالتسلسل الامر الى غير النهاية ولذا يكون كل علم حصولى حضوريا معلوما بالذات ولا علم ازيد منها اذ لا معلوم عدا معلومها، وعليه: فالمعلوم اما وجود واما ماهية او ما في حكمها وهو المفهوم. والاول لا يعلم الا بالحضور ولا يمكن نيله الا بشهوده في موطنه وهو الخارج

١- عيون الاخبار ١/١٤٩.

٢- عيون الاخبار ١/١٤٩.

لامتناع تحققه في الذهن والآلزم انقلاب الخارج ذهنياً.

وأما الثاني: فهو من حيث انه معلوم بالذات في الذهن وموجود لدى النفس ومشهود لها علم حضوري، ومن حيث انه حاك ماورائه ووسيلة لنيل النفس الى الخارج المحكى علم حصولي. وهذا العلم الحصولي ينقسم الى التصور والتصديق ثم خصوص التصديق منه ينقسم الى الصواب والخطأ وللميزينها ميزان متكفل ببيان المواد الحقّة المنزهة عن الخطأ وبيان الصور المنتجة المبرأة عن العقم. وقد تقدم في المقام الأول ان الميزان القسط الذي انزله الله بالحق على قلب من هو بنفسه لسان صدق وميزان حق هو المعيار الوحيد للميزين القياس البرهاني الواجد لشرائط المادة وآداب الصورة وبين القياس المغالطي الفاقد لبعضها اولكلها.

والمباحث عنه في هذا المقام هو تشریح الشهود القلبي والعلم الحضوري و تسبين موره والتدليل على تحققه خارجاً والتحريرض الى تحصيله والهداية إلى ماهو الشهود القلبي الذي يهش القلب فيه للذي له تحقق خارجي الذي هو تمثيل شيطاني او نفساني لاوجود له في الخارج عن صقع النفس ولا اعتداد به ما لم يكن له مبدء رحمانى او ملكى.

والذى ينبغى أن يتنبه له هو ان عناية القرآن بهذا القسم من العلم اشد من عنايته بالقسم الاول وان كان تعرضه للقسم الاول ودعوته اليه وتبيين معارفه في كسوته واطاره اكثر، والسره هو ما مر مسبقاً في مقدمة الجنة الرابعة من الميزين هذين القسمين من العلم، (مضافاً) الى ان القرآن - نفسه - علم حضوري ووحى شهودى لاحجاب هنا كدين قلب النبي وبين الواقع المشهود. لاحجاب صورة ذهنية ترى الموجد الخارجى ولا غطاء مفهوم ذهنى يحكيه ولا يمكن معرفة هذا القسم من العلم الا بنبله في الجملة لان العلم الحصولى قاصر عن بيان حقيقته

لأنه من وراء سحاب الصورة أو من وراء غمام المفهوم. وكل واحد منها وإن كان حاكيا لما ورائه إلا أن المشهود هو غير المحجوب وإن المعلوم بلا واسطة هو غير المعلوم معها، فلذا كان اعتداد القرآن وعنايته بهذا القسم من العلم أشد من اعتناؤه بالقسم الحصول منه.

ثم إن العلم الحصولي بالموجود الخارجي وإن كان بالنسبة إلى العلم الحضوري حجابا إلا أنه مقيسا إلى الجهل بالواقع نور وشهود، وكذا العالم بالواقع من وراء حجاب البرهان وإن كان محجوبا واعمى بالقياس إلى العالم به بلا واسطة المفهوم والشاهد له بلا غطاء الصورة الذهنية، إلا أنه شاهد وبصير بالقياس إلى الجاهل فلذلك نلاحظ القرآن الحكيم يوسم المؤمن بالبصير والسميع ويصف الكافر بالاعمى والاصم سواء أكان المؤمن آمن بالاصول شهودا أو آمن بها برهانا، بل الثاني أكثر لصعوبة الأول وعسره والدليل على إطلاق النور على كلا القسمين قوله تعالى: .

قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تفكرون!

وقال سبحانه:

قد جائكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ!

وقال تعالى:

مثل الفريقين كالأعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون؟

١ - الانعام / ٥٠.

٢ - الانعام / ١٠٤.

٣ - هود / ٢٤.

والسر في كون العلم بصيرة هو انه بنفسه نور و حضور وان كان مقيسا الى الخارج المحكى حصولا فلا اختصاص للبصيرة والشهود وما الى ذلك بالعلم الشهودى بعد ما كان الغالب في المؤمنين هو الايمان بما جاء به الوحي بعد العلم به برهانا، ويشهد له قوله سبحانه بعد ما اقام البرهان على التوحيد والترغيب اليه والتحذير عنه.

افن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولوالالباب!

اذ العلم يكون ما نزل الى الرسول (ص) حقا اعم من الحصول والحضور، بل الاول هو الدارج والمألوف بين الناس فن علم حصولا بالبرهان ان الوحي حق وآمن به فهو على نور من ربه وهو بصير ومن جهل به ولم يعلمه لا بالبرهان ولا بالعيان فهو اعمى وقد بين الله سبحانه ان هذا العمى انها هو وصف القلب لا الحسن البصرى كما قال تعالى:

افلم يسيرا في الارض لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور^١.

فالنفس الانسانية التي من شأنها ان تدرك الحقائق حصولا او حضورا اذا عميت عليها ولم تدركها صارت اعمى واصم ولا خصوصية لذلك بالشهود القلبى والعلم الحضورى بل يقمه والعلم الحصولى الدارج، وان كان شموله للشهود القلبى وظهوره فيه اقرب وانم من شموله للعلم الحصولى. والى هذين القسمين من العلم قد اشار مولينا الرضا (ع) في قوله (ع): ... «ولكن القوم

١- الرعد/١٩.

٢- الحج/٤٦.

تأهوا وعموا وصموا عن الحق، من حيث لا يعلمون» وذلك قوله عز وجل: «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا. يعني أعمى عن الحقائق الموجودة»^١. لأن قوله (ع): «يعني أعمى عن الحقائق الموجودة.» عام بالنسبة إلى قسمي العلم من الحصول البرهاني والحضوري الشهودي، كما وإن قوله (ع): «وقد علم ذووا الالباب أن الاستدلال على ما هناك لا يكون إلا بما ههنا...»^٢ خاص بالنسبة إلى الحصول بالبرهان ولكن لم يعبر فيه بالعمى والبصر.

والغرض أن العلم البرهاني وإن كان حجابا مقيسا إلى الشهود القلبي ولكنه نور و حضور في نفسه، فالعالم به بصير والجاهل به أعمى. لكن الكلام ههنا في العلم الحضوري وكونه نورا وكون العالم به شاهدا وبصيرا وكون الجاهل به غائبا وأعمى وما إلى ذلك من المباحث الهامة الراجعة إليه.

وقد تبين في ثنايا المقال حقيقة العلم الحضوري واللازم ههنا بيان تحققه خارجا وإمكان نيته كذلك وما يترتب عليه من الآثار الحسنة المستفادة من كلمة مولينا الرضا (ع) فنقول:

أما تحقق العلم الشهودي خارجا فهو أن كل واحد منا يدرك ذاته ويشهد نفسه بلا حجاب صورة ذهنية ولا غطاء مفهوم.

وذلك لأن كل مفهوم ذهني حتى مفهوم «أنا» فإنه بالحمل الشائع اجنبي عن الذات وخارج عنها ويحمل عليه أنه «هو» لا أنا لأن ذات كل واحد

١ - التوحيد، ص ٤٣٨.

٢ - التوحيد، ص ٤٣٨.

منا موجود خارجي منشأ لغير واحد من الاثار الخارجيه وذلك المفهوم اتي مفهوم كان حتى مفهوم «انا» امر ذهني لا يترتب عليه الأثر.

ولأن كل مفهوم ذهني حتى مفهوم «انا» امر كلي صالح للانطباق على كثيرين وذات كل واحد منا موجود عيني ممتنع الانطباق على كثيرين فلا يكون شئ من المفاهيم الذهنية هو عين ذاتنا فلا يكون العلم بها هو العلم بذاتنا فلا يكون العلم بذاتنا علماً حصولياً بل يكون العلم بها علماً شهودياً لا حجاب هناك بين العالم والمعلوم العيني ولا مجال هناك لانقسام المعلوم الى مابالذات وما بالعرض كما كان له مجال في العلم الحصول.

والمحصل ان البرهان والوجدان متطابقين على ان علم النفس بذاتها شهودي وان العلم هو عين المعلوم العيني، كما وانه عين العالم ايضاً وانه لا حجاب هناك اصلاً وحيث ان العلم عين النفس الانسانية والنفوس الانسانية معادن كمعادن الذهب والفضة ولها مدارج شتى، مضافاً الى كون كل نفس بمنزلة معدن خاص يكون بين مراتب تكونه وبلوغه حد النصاب و خروجه عن بطن الارض الى ظهرها و تصفية جوهره عن ترابه المصاحب له واذابته للتخليص وصياغته بصيغ خاصة تليق لان تزيين به... لذلك كان فيها وبينها تفاوت وتمايز، فالعلم الشهودي له مدارج متعددة وكل نفس يكون وجودها اقوى يكون علمها الحضورى بذاتها اشد وكل نفس يكون وجودها اضعف يكون علمها الحضورى كذلك حتى ينتهي الى حده في غاية الضعف يخالطه الجهل ويشوبه النسيان ويمتزجه الذهول، كما يأتي. وقد تبين في الكلام ان علم النفس بصورها الذهنية ايضاً حضورى وان كان علمها بما تحكيه تلك الصور حصولياً اذ لو كان علمها بها حصولياً والعلم الحصولى هو الصورة الحاصلة من الشئ لدى النفس يلزم ان يكون علم النفس لتلك الصور بوساطة علمها

بصور ذهنية اخرى فيذهب الامر الى ما لا نهاية... وهو محال، وعليه فعلم النفس بها حضوري كما يساعده الوجدان. ومن هذا القبيل ايضا علم النفس بقواها المدركة والمحركة التي تستخدمها بعد العلم بها لجران ما تقدم من توافق البرهان والعبان على كون العلم بذلك حضوريا. فزبدة المحض: ان علم النفس بذاتها وبقواها وبتشونها الذاتية حضوري يكون الوجود الخارجى بوجوده العيى مشهودا للعالم كما ان علم اى موجود مجرد عن المادة بذاته حضوري.

هذا هو القول الاجمالى فى تحقق العلم الشهودى فى الخارج وامكان نيته على الجملة. بالنزاهة عن الموانع الحاجبة عنه وبالبرائة عما يوجب الاخلاص الى الارض والاغترار بزهرة الحياة الدنيا وبالقداسة عما يصد عن الحق وعما ينسى الاخرة من اتباع الهوى وطول الامل حسبما ياتى بيانه. انشاء الله تعالى...

واما الاثار الحسنة المترتبة عليه فهى ان العلم الشهودى عين المعلوم الخارجى المشهود بلا ما يربى بينهما لا وجودا ولا حكما. فاذا كان المشهود غنبا عما عده قائما بذاته فان العلم به ايضا غنى عن غيره، قيامه بذاته، كعلم الواجب سبحانه بذاته واذا كان المشهود مفتقرا الى غيره قائما بمبدئه فان العلم به ايضا كذلك فكما لا امكان لتحقيق ذلك المعلوم منقطع الصلة عما عده، كذلك لا امكان لتحقيق العلم به منقطع الرباط عن العلم بمبدئه، وعليه فلا مجال لتوهم انقطاع العلم الشهودى بالفقر المحض والربط الصرف عن العلم الشهودى بالغنى المحض والمستقل الصرف، اذا المفترض ان العلم عين المعلوم و ان المعلوم عين الصلة الى المبدء فالعلم به عين الصلة الى العلم بالمبدء، لان جميع ما يرتبط بالمعلوم والمشهود او يرتبط هو اليه من العلل والمعاليل والمصاحبات فى العلية او المعلولية منحفظة الارتباط بالعلم الشهودى به.

وبهذا يتجه معنى ماورد عن العترة الطاهرة فى غير مورد: من عرف نفسه

فقد عرف ربه.

وغاية المعرفة ان يعرف المرء نفسه، وكيف يعترف غيره من يجهل نفسه، ومن عرف نفسه كان بغيره اعرف، نال الفوز الاكبر من ظفر معرفة النفس، لا تجهل نفسك فإن الجاهل معرفة نفسه جاهل كل شيء اعرفكم بنفسه اعرفكم بربه: من عرف نفسه تجرد، من عرف نفسه جل امره...^١.

والخبير المتطلع يجد فيما ورد في الحث لمعرفة النفس نصوصاجة، يستنبط من ضم بعضها الى بعض ان معرفة النفس شهوديا ممكنة. وان الاثار الحسنى المرتبة عليها كثيرة جدا. وان السئيات المرتبة على الجهل بها ونسيانها غير مغفورة. وان الذى كان علمه بها اشد واعزز كان علمه بربه اكثر فاكثر... وما الى ذلك من الاثار الحسنة او السئية المترتبة على معرفة النفس وجودا وعدما.

ومن هنا يظهر أن ما افاده المحدث محمد بن الحسن العاملى - قدس الله نفسه الزكية - من الوجوه الاثنى عشر^٢ في بيان هذا الحديث المعروف وجرى عليه الحجة السيد عبدالله شبر - رضوان الله عليه^٣ مما يمكن استفادتها منه بعنوان التبيين او تفريع الآثار عدا الوجه الثانى عشر، حيث قال (قده): «انه علق محالا على محال، اى كما لا يمكن معرفة حقيقة النفس كذلك لا يمكن معرفة حقيقة الرب فيجب ان يوصف بما وصف نفسه تعالى والله اعلم»^٤. اذ لا مجال لامتناع

١ - الغرر والدرر للآمدى، ج ٧، ص ٣٩١ - ٣٨٧.

٢ - الفوائد الطوسية، ص ٧٩.

٣ - مصابيح الانوار ١/ ٢٠٤.

٤ - الفوائد الطوسية، ص ٨٠.

معرفة حقيقة النفس لأنها امر موجود مجرد يشهد ذاته، ان لم يحجبها الذنب كما ياتي بيانه ولا مجال ايضا للتلازم بين معرفة حقيقة النفس وبين معرفة كنه ذات الحق سبحانه. كما وان ما افاده (قده) بعنوان الوجه العاشر مما يمكن استفادته من قوله (ع): من عرف نفسه جاهدناه، فأرجع.

وغيرضا ههنا هو ان معرفة النفس بالعلم الحضورى ممكن وان العلم الحضورى عين المعلوم وان المعلوم العينى هنا عين الربط الى الله فالعلم الحضورى به عين الربط الى العلم الحضورى بالله سبحانه ولا ثمرة اهم من معرفة الله. ولعله هو المهدف لكلمة مولينا الرضا (ع) فى قوله:

افضل العقل معرفة الانسان نفسه^١.

وذلك لأن العلم الكامل هو الذى يصحبه العمل الصالح ولا يفترقان حتى ينتهيا الى المهدف السامى بأن يصعد اليه العلم والاعتقاد ويرفعه العمل الصالح. ومن البين ان العلم الشهودى بالنفس وبخالقها القيوم لها يوجب الايمان بما جاء به الوحي من الله ويلازم العمل الصالح. واما العلم الحضورى بالمبدء والتصديق البرهانى بالوحي والمعاد فهو وإن يوجب الايمان بذلك ويلازم العمل الصالح ولكن على نحو الايجاب الجزئى الذى لا يناقضه السلب الجزئى، فلذا يمكن ان لا يكون فى بعض الموارد ناجحا اصلا بل يصير حجة و بالأعلى العالم المتيقن كما هو المستفاد من قوله تعالى:

أفرايت من اتخذ الله هواء واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون^٢.

١- مسند الامام الرضا (ع) ٣٠٢/١.

٢- الجاثية ٢٣/.

لدلالته على عدم اللزام الضروري بين العلم الحصولي وبين الايمان، وعلى عدم التنافي بينه وبين الكفر والنفاق.

ثم انه قديذكر بعد بيان هذا الأصل العام موارد جزئية تشهد على عدم اللزام الوجودي بين اليقين الحصولي وبين الإيمان والعمل الصالح، كما تشهد على عدم التضاد بين العلم الحصولي وبين الانكار والطغيان، حيث قال تعالى: وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين^١.

لدلالته على ان اليقين الحصولي بأن ما أتى به موسى آية مبصرة على نبوته قد لا يصحبه خضوع العقل العملي الذي به يعبد الرحمن ويكتسب الجنان. بل قد يخالفه ويتبدل هناك العدل بالظلم والتواضع بالاستعلاء كما كان شعارهم يومئذ «قد افلح اليوم من استعلى» فلا تلازم بين العلم القطعي الذهني وبين العمل الصالح لأن لكل منها مبدء خاصا يختص به اذ العلم مبدئه العقل النظري المتكفل لإدراك الامور سواء أكانت مما تتعلق بالعمل كمسائل الحكمة العملية اولا يتعلق به كمسائل الحكمة النظرية.

واما العمل فمبدئه العقل العملي المدبر للطبيعة والبدن وهما فوتان اوشأتان من قوى النفس او شؤنها، كالمدرسة والحركة اللتين هما من قواها اوشونها في المرحلة النازلة، حيث انه يمكن ان يكون احديهما موجودة والاخرى معدومة او احديهما ضعيفة والاخرى قوية او كلتا هما ضعيفتين او قويتين كما هو المشاهد في العالم العادل فانها بقوتها معاً فيه، والمشهد في الجاهل الظالم من ضعفها او عدمها معاً فيه، والمشهد في العالم غير العادل من وجود احديهما دون الاخرى

فيه، وهكذا المشاهد في المتنسك الجاهل والتفصيل في محله، والغرض هو إمكان افتراق العلم البرهاني عن العمل الصالح لأن لكل منها سببا يختص به وليس أحدهما عين الآخر ولا كلاهما معلولا سبب ثالث، كما أنه ليس أحدهما معلولا تاما للآخر ولا الآخر سبب تام له، وإن كان بينهما صلة على الجملة حسبما يظهر بالتأمل، وعليه فلا مجال للتلازم الضروري بينهما، كما قال سبحانه -أيضا:-

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.^١

وقال سبحانه:

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون.^٢

لدلالة ذلك على أن إنكار علماء أهل الكتاب ليس الامن باب كتمان الحق المعلوم بالبدئية كمعرفة الأب لابنه، معناه أن العلم برسول الله (ص) وأوصافه الخاصة قد بلغ حد الحس والبداية ومع ذلك أنكروه و كتموا الحق حتى كأن لم يعرفوه أصلا، كما قال سبحانه:

أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون.^٣

يعني تعالى أنه لا وجه لأنكارهم بعد ما كانوا عرفوا رسولهم فلا حجة لهم يوم القيمة يحتجون بها عند الله لأن هلاكهم كان هلاكا عن بينة كما أن حياة العلماء الصالحاء كانت حياة عن بينة، حيث قال تعالى:

١- البقرة / ١٤٦.

٢- الانعام / ٢٠.

٣- المؤمنون / ٦٩.

لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة^١.

فالمتحصل ان العلم الحصولي لا يلزم العمل الصالح ولا يضاد العمل الطالح فليس هو افضل العلوم بل الافضل هو الذي اشار اليه مولينا الرضا (ع) وهو العلم الشهودي الذي يلزم العمل الصالح، ولا مجال معه للعمل الطالح وهو العلم الحضورى بالنفس الذي هو عين العلم المرتبط بمشاهدة الرب سبحانه على قدر الطاقة البشرية، ولا مجال للذنب مع مشاهدة جماله وجلاله، كما لا مجال لشهود جماله وكبريائه مع الذنب حسبما يظهر لأن الذنب اعراض عن ذكر الله واخلاق الى الارض ولا مجال لشهود النفس مع ذهول الرب الذي هو سببها المقوم لها اذ لا وجه لشهود المعلول مع الغفلة عن علته، ولعله لذلك قال سبحانه:

واتل عليهم نبأ الذين آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعهم الشيطان فكان من الغاوين ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه^٢.

يعنى ان اتباع الهوى صده عن مشاهدة جمال الحق والارتفاع بها و اوجب الاعراض عن آياته، وهذا اصل قرآني لا اختصاص له بعصردون عصر، كما في مجمع البيان عن ابى جعفر (ع) حيث قال:

الاصل في ذلك بنعم ضربه الله مثلا لكل مؤثر هواه على هدى الله من اهل القبلة^٣.

وزبدة الخوض: ان الايمان بالله واليوم الآخر وان العمل الصالح الذى هو امتثال ما جاء به الوحي... المعبر عنها بالكلم الطيب المصاعد الى الله وبالرافع له، انما يتحققان بالعلم الشهودي بالنفس الذى هو شجرة طوى توفى اكلها كل

١- الانفال / ٤٢.

٢- الاعراف / ١٧٥.

٣- نور الثقلين ٢ / ١٠٢.

حين باذن ربها وكفى بذلك اثرا هاما مترتبا عليه، وبما ان العلم الشهودى بالنفس غير منفك عن العلم الشهودى بالله الذى هو القيوم عليها وعلى كل نفس بما كسبت وعلى كل شئ بما له من الخواص والاثار فيترب عليه، عدا ماتقدم من الاثار الحسنى، العلم الحضورى بمظاهر الاسماء الالهية التى ملأت اركان كل شئ من السموات والارضين وكلما كان الروح قوية وكان العلم الشهودى به شديدا كان العلم الحضورى بقيومه شديدا.

ويتفرع عليه كون العلم بمظاهر الاسماء الحسنى ايضا شديدا وبالعكس فالامر فى معرفة الغيب والشهادة والاطلاع على السرائر والضمائر والعتور على ما كان وما يكون وما هو كائن يدور مدار معرفة الله سبحانه الدائرة مدار معرفة النفس شهودا فهى الطريقة المثلى والسييل الأقوم للسائر فى الصراط والصابر الى الله سبحانه، اذ كما ان شهود السبب المتقوم لا يمكن الا بشهود السبب القيم عليه، كذلك شهود السبب القيوم على كل نفس بما كسبت، وكذا المهيم على كل شئ ظهر فى ساهرة الامكان لا ينفك عنه شهود معاليه ومظاهره.

وكما ان وجود النفس العارف ذاتها ربط محض وفقر صرف كذلك شهودها لبارئها ولا ثاره الصادرة منه فاقة بجهة الى علم خالقها وفانية فى علمه سبحانه بالاشياء فلا يلزم محذور اصلا لأن علم الانسان الكامل الذى عرف نفسه بلا حجاب وعرف ربه بلا غطاء بالاشياء الغائبة والحاضرة علم امكانى وفقر محض كاصل وجوده وكاصل علمه بنفسه وعلمه بخالقه، اذ العلم الذاتى والاصالى والمستقل لا يتصور فى مورد اصلا الا لمن هو وجود محض وعلم صرف وهو الله سبحانه. فالذى عرف نفسه شهودا تاما وعرف ربه بالطوق البشرى له ان يرى الاشياء كما هى. ولو كان نيلها كما هى ممتنعا لمأسأله رسول الله عن ربه بقوله (ص):

رب ارفى الانساء كما هي^١.

ويشهد له قوله:

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون^٢.

اذ الاستفادة منه هوان كل عمل يعمله الانسان في السر والعلن فانه يراه الله تحقيقا لا تسويضا وهكذا رسوله والمؤمنون الذين اظهر مصاديقهم العترة الطاهرة (ع) كما ورد التطبيق عليهم منهم (ع) حيث قال عمر بن اذينة: كنت عند ابي عبد الله فقلت له:

جعل فداك، قوله عز وجل: وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون قال: ابانا عني^٣.

وقال عبد الله بن ابان الزيات - وكان مكيئا عند مولينا الرضا (ع) - له:

ادع الله لي ولاهل بيتي فقال (ع): اولست افعل والله ان اعمالكم لتعرض على في كل يوم وليلة قال فاستعظمت ذلك فقال: اما تقرأ كتاب الله عز وجل وقيل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون - قال هو والله على بن ابي طالب (ع)^٤.

وليس المراد هو الحصر في امير المؤمنين (ع) بل ذكره بعنوان كونه ابا الائمة (ع)، فلذلك قال: ... ان اعمالكم لتعرض عليّ. وهذا الوجه هو المصحح لقول مولينا الرضا (ع) - على حد نقله الوشاء -:

ان الاعمال تعرض على رسول الله ابرارها وفجارها^٥.

١ - رسائل الشريف الرضي ج ٢/ ٢٦١.

٤ - تفسير نور الثقلين ٢/ ٢٦٤.

٢ - التوبة / ١٠٥.

٥ - تفسير نور الثقلين ٢/ ٢٦٤.

٢ - تفسير نور الثقلين ٢/ ٢٦٣.

على بن موسى الرضا عليه السلام والقرآن الحكيم..... ١٦٧

وهذا المعنى هو المراد بشهادة الاعمال التي هي من شؤون الولاية للانسان الكامل وقد أفاده القرآن الكريم في مواضع، منها قوله تعالى:
كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وما ادراك ما عليون، كتاب مرقوم
يشهده المقربون^١.

ولا اختصاص للاعمال بالظاهرة منها بل هي الاعم منها ومن العقائد والافصاف النفسانية التي قد اذن الله سبحانه لكرام الكاتين الذين وكلهم بحفظ ما يكون من الانسان في الصحف النورانية المصونة عن المادة ولوازمها، و تلك الصفائف محاطة بصحائف اخرى فوقها. حيث قال: ان كتاب الابرار لفي عليين. ثم فسر العليين بانه كتاب مرقوم فالكتاب في كتاب آخر فائق محيط به يشهد ذلك الكتاب المحيط، المقربون فلا يشذ عن شهودهم العلمي بصحائف الاعمال شئ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.
وبهذا المضمون ما رواه مولينا الرضا (ع) عن ابيه عن آبائه (ع) قال قال رسول الله (ص):

ما ينقلب جناح طائر في الهواء الا وعنده نافية علم^٢.

ومنه: ما كتب عبدالله بن جندب الى مولينا الرضا (ع) يسئله عن تفسير قوله تعالى:

الله نور السموات والارض... فكتب (ع) في الجواب: اما بعد فان محمدا كان امين الله في خلقه فلما قبض النبي (ص) كنا اهل البيت ورتبه فنحن امناء الله في ارضه عندنا علم المساي والبلايا واسباب العرب ومولد الاسلام وما من فئة تفضل مائة وتهدي مائة الا ونحن نعرف سائقها

١- المطففين / ٢١ - ١٨.

٢- مسند الامام الرضا (ع) ١ ص ٢٤٦. عن العيون ٢ / ٣٢.

وقائدها وناعقها وأنا لنعرف الرجل اذا رايناه بحقيقة الايمان وحقيقة النفاق وان شيعتنا لمكتوبون باسمائهم واسماء آبائهم اخذ الله علينا وعليهم الميثاق يردون موردنا ويدخلون مدخلنا ليس على ملة الاسلام غيرنا وغيرهم الى يوم القيمة نحن آخذون بحجرة نبينا ونبينا آخذ بحجرة ربنا والحجرة النور وشيعتنا آخذون بحجرتنا...^١.

ولعل هذا النور هو العمود النورى الذى تقدم نقله عن مولينا الرضا (ع) انه قال:

ان الله عزوجل قد ابدنا بروح منه مقدسة مطهرة ليست بملك لم تكن مع احد من ماضى الامم رسول الله وهى مع الائمة متا تسددهم وتوفقهم وهو عمود من نور بيننا وبين الله عزوجل...^٢.

ولسنا الآن بصدد البحث عن نحو علم الامام بالغيب اذ له مقام وحقل خاص و دليل مخصوص بل هدفنا ههنا أليعاى الى جانب من الآثار المترتبة على العلم الشهودى بالنفس.

والذى يهنا هنا هو تبين موقف الشهود القلبي لدى القرآن الحكيم و بيان الطريق الهادية الية و ذكر عقباتها الكؤدة والايعاى الى شرائط طيها والى الموانع عن قطعها والى ما يمكن علاجها والى الميزبين الشهود القلبي وبين التمثل الشيطاني كى يستبان المرغوب اليه عن المرغوب عنه. فنقول: إن الله سبحانه نور لا ظلام له اصلا فلا حجاب عليه ولا حجاب له، كما قال مولينا الرضا (ع): حجب بعضها عن بعض ليعلم ان لا حجاب بينه وبينها غيرها...^٣.

١- تفسير القمى ١٠٤/٢.

٢- مستند الامام (ع)، عن عيون الاخبار ٢٠٠/٢.

٣- مستند الامام (ع) ١٢٣/٢، عن عيون الاخبار ١٤٩/١.

يعنى (ع) أنه لا حجاب له تعالى أصلاً فلا ذاته حجاب لذاته ولا غيره حجاب له فهو يشهد ذاته كما يشهد غيره وإنما الحجاب بينه تعالى وبين الأشياء هو نفس الأشياء. فكما أن المضاف في الإضافة الاشرافية عين الإضافة لا غيرها، بمعنى أنه ليس بين المضاف والمضاف إليه شيء عدا المضاف فهكذا المحجوب في هذا الحجاب فإنه عين الحاجب المانع، فليس بينه وبين المحجوب عنه شيء عدا نفس المحجوب ومادام المحجوب متوجهاً إلى نفسه فهو في حجاب وكتمان، وبأقطاع التفاته عن نفسه وأتابته إلى خالقه يرفع الحجاب بينه وبين باريه تعالى فيشاهده بحسب وسعه ثم يشاهد بنوره الأشياء كما قال مولينا الرضا (ع):

...أما بلغك قول الرسول (ص): اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله.
 قال: بلى. قال (ع): وما من مؤمن إلا وله فراسة ينظر الله على قدر إيمانه
 وبلغ استبصاره وعلمه^١.

فالحجاب إنما هو التوجه إلى النفس بالنظرة الإستقلالية المعبر عنه بالهوى. لا التوجه إليها بماهى مرآة الحق فإن هذا الالتفات كما مر مسبقاً إنما هو علم شهودى بالمسبب المتقوم الذى يمتنع انفكاكه عن شهود السبب المتقوم إذا المرأة بماهى مرآة لا تحكى إلا الصورة المرئية فيها ولا تهدى إلا إليها فكلما كان التوجه الذى فيه هوى النفس قويا كان الحجاب غليظاً، وكلما كان ضعيفاً كان رقيقاً وإلى هذا المعنى أشار مولينا الرضا في جواب الرجل الذى سئله بقوله:

فلم احتجب؟- أى الله سبحانه- قال (ع):

إن الاحتجاب عن الخلق لكثرة ذنوبهم فاما هوفلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار، قال السائل: فلم لا تدركه حاسة البصر؟ اجاب (ع): للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الابصار منهم ومن غيرهم ثم هواجل من ان يدركه بصر او يحيط به وهم او يضبطه عقل...^١.

فلا حجاب الا الذنب فالمذنب هو المحجوب مادام على ذنبه، فن اذنب واحتجب بذنبه ومات بلا اناية تحرق حجاب الذنب فهو في كنان العصيان وحجاب الطغيان، كما قال سبحانه:
كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا انهم عن ربهم يومئذ
محجوبون، ثم انهم لصالوا الجحيم^٢.

وحيث ان الذنب الذي اجتراحوه صار بعينه رينا على قلوبهم ولا ميز بين
الذنب المكتسب وبين المذنب الا في المفهوم إذا العمل القلبي قد صار بالملكة
عين العامل، يظهر أن مراده تعالى من قوله: «واذا قرأت القرآن جعلنا بينك
وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا»^٣. ليس هو الحجاب الخارجي
المنفصل عن قلوب هؤلاء الكفار المسدول عليهم، بل المراد هو هبوط قلوبهم ودفن
نفوسهم في قبور سيئاتهم المكتسبة التي صارت طبعالها ورينا عليها كما قال
تعالى:

وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا واذا ذكرت ربك في
القرآن وحده ولّوا على ادبارهم نفورا...^١.

ولما كان الذنب حجابا والمذنب محجوبا عن الحق، اكّد سبحانه بانهم:

١ - التوحيد ص ٢٥٢.

٢ - المطففين ١٤ - ١٣.

٣ - الاسراء / ٤٦ - ٤٥.

ان تدعوهم الى الهدى لا يسمعون وترهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون^١.

يعنى انهم اهل الحس والنظر لا اهل الشهود والبصر، ويؤيد ما انتجه التدبر في القرآن من ان العمل السيئ حاجب، كلمة مولينا السجاد الذي هو من مستنطق القرآن حيث قال (ع):

وان الراحل اليك قريب المسافة وانك لا تحتجب عن خلقك، إلا ان تحجبهم الاعمال دونك...^٢

وهكذا قوله امامنا الكاظم (ع) في دعائه يوم السابع والعشرين من رجب حين انطلقوا به صوب بغداد:

... انك لا تحتجب عن خلقك... وقد علمت ان افضل زاد الراحل اليك عزم اراده يختارك بها وقد باجاك بعزم الارادة قلبي^٣.

فالمتحصل ان الرحلة الى الله سهلة المنال وقريبة المسافة لمن كان له زاد العزم وقوت الارادة وكانت مطيته التقوى وراحلته الطهارة عن مطلق الذنوب، لكنها عسرة المنال بعسرة المسافة لمن احتجب بالذنوب واستتر بالعصيان، اولئك ينادون من مكان بعيد^٤:
كذلك يطبع الله على قلب متكبر جبار^٥.

وان الحجاب منحصر في الذنب فما لا ذنب هناك فلا كنان. وما كان الذنب حقيرا ولمأ كان الحجاب رقيقا. وان الطهارة من الذنب من اهم

١- الاعراف / ١٩٨.

٢- دعاء ابي حمزة الثمالي.

٣- مفاتيح الجنان، اعمال اليوم السابع والعشرين من رجب.

٤- فضلت / ٤٤.

٥- غافر / ٣٥.

شرائط الشهود القلبي كما يعطيه قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقا...^١.

اذا المراد من هذا الفرقان هو النور الخاص الذى به ينكشف الحق ويزاح الباطل لا الفرقان العام المعبر عنه بالهداية العامة التى يستوى فيها المتقون والفجار لان الله سبحانه انزل القرآن هدى للناس بلاميز فيه بين اهل التقوى واهل الفجور.

... وكذلك هو المستفاد من قوله تعالى:

ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم؟

ومن قوله سبحانه:

وان تطيعوه تهتدوا...^٣.

حيث ان المراد من الهداية فى هذه الايات وما يضاهاها مما اشترط فيها الايمان والاطاعة هى الهداية الخاصة المعبر عنها بالاىصال الى المطلوب الذى هو لقاء الله وشهود اسمائه الحسنى وامثاله العليا لما ثبت ان لاحجاب هناك الا الذنب المفروض انتفائه بالتقوى والطاعة فنبغى للمؤمن فهم هذه الاسرارو ان يصبح ممن يحذثه الله وملائكته، كما تفيده كلمة مولينا الرضا (ع):

الى احب ان يكون المؤمن محدثا، قال: قلت واى سبب المحدث؟ قال

المفهم^١.

١ - الانفال / ٢٩.

٢ - التغابن / ١١.

٣ - النور / ٥٤.

٤ - مستند الامام الرضا (ع) ١/ ٢٦٠، عن العيون ١/ ٣٠٧.

فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون^١.

والصدر المشروح هو الصدر البصير، كما ان الصدر الضيق هو الصدر الاعمى عن الحقائق فمن اراد الله ان يشرح صدره يقول له: كن مشروحا، فيكون كذلك اذ لا اراد لارادته، كما لا مجال لصيرورة الصدر بصيرا وشاهدا بالفعل ولا يكون هناك امر موجود مشهود للمصدر المنشرح وان لا يراه المصدر الضيق الاعمى. وهذا الشرح نور خاص الهى به ينظر المؤمن الى العالم من غيبه وشهادته. كما نقرئه في رواية مولينا الرضا (ع) عن آبائه عن علي (ع) عن النبي (ص) انه قال:

المؤمن ينظر بنور الله^٢.

ولعل هذا المؤمن المنشرح الصدر بالهداية الموصلة الى الهدف اكرم على الله سبحانه من ملك مقرب، كما روى مولينا الرضا (ع) عن آبائه عن علي (ع) قال رسول الله (ص):

إن المؤمن يعرف في السماء كما يعرف اهله وولده وانه لأكرم على الله من ملك مقرب^٣.

فاذا شرح الله صدر المؤمن السالك الى الله بقدمة الايمان والعمل الصالح وأراه من آياته وعلمه من لدنه علما خاصا لا يتعداه العمل ولا يتبدل بالجهل

١ - الانعام / ١٢٥.

٢ - مسند الامام / ١ / ٢٦١. عن العيون / ٢ / ٦١.

٣ - مسند الامام / ١ / ٢٦٠، عن العيون / ٢ / ٣٣.

وذلك، لأن الله وملائكته إنما يعلمون المؤمن ويفهمونه ما لا يعلمون غيره، حيث قال سبحانه:

هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً^١.

لظهوره في اختصاص تصليته الله وملائكته بمن آمن وأطاع وصدق بالحسن، وهذه الصلاة هي الرحمة الخاصة الممهدة والمسهلة للسير إلى الله. ولما كان الراحل إليه تعالى قريب المسافة وتوقف تسهيل السبيل إليه على الإيثار والالتقاء وعلى الإيمان بالعاقبة المحمودة لمن آمن واثق، أشار سبحانه هادياً إلى ذلك بقوله:

فأما من أعطى واتق وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى^٢.

وقال تعالى:

يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم^٣.

وقال تعالى:

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين^٤.

وقد بين سبحانه أن هذه الهداية الخاصة إنما تتحقق بشرح الصدر وتوسعته في قبال ضيق الصدر وتعميته، حيث قال تعالى:

١- الأحزاب/ ٤٣.

٢- الليل/ ٥- ٧.

٣- المائدة/ ١٦.

٤- العنكبوت/ ٦٩.

عل بن موسى الرضا عليهما السلام والقرآن الحكيم ١٧٥

ولا يغشاه النسيان ولا يغفقيه السهو ولا يداخله الوهم ولا يتطرق اليه الخيال،
تنفجر الحكمة من قلبه على لسانه.

كما نلاحظه بصراح فيما روى مولينا الرضا (ع) عن آبائه عن علي قال قال
رسول الله (ص):

ما اخلص عبد الله عزوجل اربعين صباحا الاجرت ينابيع الحكمة من قلبه
على لسانه^١.

ولا خصيصة لللسان. انحصاريا. بل المراد هو انفجار ينابيع الحكمة التي هي
الخبر الكثير من جميع شئون حياته الطبقة، سواء في ذلك اللسان وغيره. لأن
جميع القوى المدركة والحركة مجارى لفبض القلب وتابعة له في الكمال والنقص
فاذا صلح صلحت واذا فسدت فسدت ولا تأتمر الا بامر ولا تنهى الا بنهي لانه
إمام لها اخذا وتركها. وهي امته كذلك ولا مجال لاستقلالها وغنائها عنه، كما
لا مجال لافتقارها الى غيره.

وما ورد من ان «لسان العاقل وراء قلبه وقلب المنافق وراء لسانه» ليس
هو معنى ان لسان العاقل فقط تابع لقلبه واما لسان المنافق فليس تابع له بل قلبه
مطيع له متأخر عنه ومؤتم به ايتام الماموم بامامه، بل المراد ان قلب المنافق
لكونه اعمى عن الحقائق لا يبصر الا هواه ولا يرى الا زهرة الحياة الدنيا وزبارجها
ولا يأمر الا بالمنكر ولا ينهى الا عن المعروف، كما قال سبحانه:

المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون
عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون^٢.

١- مستند الامام (ع) ٢٩٠/١.

٢- التوبة / ٦٧.

غافلا عن خاتمة الامر بالمنكر وذاهلاً عن عاقبة النهى عن المعروف
وجاهلاً لثمرة سحب اليد عن التعاون على البر والتقوى وعامهاً عن نتيجة نسيان
الله سبحانه .

ثم انه يبدوله بعد ذلك سوء ما كسب وقبح ما اجتراح فيذكر حينذاك
سوثة صنعه وحق به ما كان يكتسب، فعلى اى تقدير واقتراض يكون اللسان
مطلقاً وراء القلب ومؤتمراً به، كما ان سائر الاعضاء ايضاً كذلك وهذا العبد
المخلص لله الذى اوتي الحكمة التى رأسها مخافة الله هو الذى احياء الله وجعل له
نورا يمشى به فى الناس فيكون صراط مشييه فى صلته مع الله ومع نفسه ومع
الناس لله وفى سبيل الله وعلى ما يرضاه الله ويرضاه الرسول فتنفجر ينابيع
الحكمة من قلوبهم على بنانه كما تنفجر منه على بيانه وتنفجر من قلبه على سمعه
وبصره كما تنفجر منه على لسانه وتنبع منه على سكوته كما تنبع منه على كلامه
لأنه يسكت عن الباطل وامضائه كما ينطق بالحق ويمضيه وتجري منه على
قعوده كما تجرى منه على قيامه وتنفجر منه على صلحه وسلمه كما تنفجر منه على
حربه وجهاده لانه وجهه للذى فطر السموات والارض حنيفاً مسلماً
وما كان من المشركين ان صلاته ونسكه ومحامته لله رب العالمين لا شريك له
وبذلك أمر ان يكون من المسلمين، ولانه يدور مع الحق جيشادار.

ومن الممكن ان يكون من هذا الباب -وبنفس السبب- التصلية والتسليم
على الامام المعصوم (ع) فى جميع شؤون. كما نقرئه فى زيارة آل ياسين:

السلام عليك يا تالى كتاب الله وترجمانه. السلام عليك فى آناء ليلك
واطراف نهارك... السلام عليك حين تقوم. السلام عليك حين
تقعد السلام عليك حين تقرأ وتبتن. السلام عليك حين تصلى وتفتن.
السلام عليك حين تركع وتسجد السلام عليك حين تهلل وتكبر. السلام عليك
حين تحمد وتستغفر. السلام عليك حين تصبح وتمسى السلام عليك

في الليل اذا يغشى والنهار اذا تحلى...^١.

والهدف هوان الاخلاص يوجب ويلزم تنور القلب الحاكم على القوى والاجهزة، فكلما قوى الاخلاص تقوى نورالقلب حتى ينتهى إلى سدره منتباه وهو الإخلاص المحض الخاص للانسان الكامل المعصوم (ع)، وكلما ضعف الاخلاص يضعف نورالقلب واذا ضرب عصا الاخلاص على القلب المؤهل المستعد انبجست منه العيون الحرارة العلمية والعملية على القوى العلامة والعمالة الصافية عن اية كدورة، لأن التكدر من الشيطان الغوى المغوى، فاذا تذكر العبد واخلص في ذكره وذكرا لله في نفسه تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والاصال ولم يكن من الغافلين، ذكره الله تعالى كما وعده في قوله:
اذكروني اذكركم!

فاذا ذكره الله سبحانه لا يقتترنه الشيطان لانه لا يهجم على الانسان الا عند الغفلة عن ذكر الله ولا يدهم الا لدى النسيان عن ذكره وبذلك كتابه وراء ظهره. لانه - كما قال سبحانه:
انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم^٢.

انما يرى الغافل ويهجم عليه ويفويه عن سبيل الله.
واما المؤمن المتذكر فهو يراه ويشاهد هجومه وينظر اضلاله واعوانه فيستعيز بالمعاد ويلتجى بالملاجء وهو الله سبحانه، كما قال تعالى:
ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون^٣.

١ - مفاتيح الجنان، رتبة صاحب الأمر (ع).

٢ - البقرة/ ١٥٢.

٣ - الاعراف/ ٢٧.

٤ - الاعراف/ ٢٠١.

وقال تعالى:

وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله انه سميع عليم^١.

وقال سبحانه:

ولن تجدن من دونه ملتحدا^٢.

فإذا ابصرو تذكر واستعاذ بالله الذي لا ملتحذ ولا ملجاء دونه ينصره الله ويصونه ويتفضل عليه ولا راد لفضله كما لا كاشف لضره، حيث قال تعالى:
وان يمسك الله بضرفلا كاشف له الاهو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو العفور الرحيم^٣.

والمحصل أن المؤمن المتذكر يكون في حصن الله فلا ينفذ اليه الشيطان لانه لا يستطيع ان يظهر عليه ولا يستطيع له نقبا حيث ان الشيطان مرجوم من الحصن ومبعد عن السد الذي بناه الله سبحانه من قدرته فاذا لم يكن للشيطان عليه سبيل ولا لقبيله اليه. طريق ولا خيلة ورجله اليه مسير ولا جنوده اليه مسلك اصلاً يكون جميع ما يشاهده بالقلب ويسمع بالصدر ويرى بالبصيرة حقاً ويكون جميع ما يتمثل له في المنام او اليقظة ربانيا او ملكيا لانفسانيا ولا شيطانياً اذا افترض انه قد افلح بتزكية نفسه وذكر ربه ونجاعت الخيبة بتدسيته وراض نفسه بالتقوى وهذبها بالطاعة وحذرها عن الطغوى فعرف جميع حبات النفس الامارة بالسوء او المسولة كما وعرف جميع مصائد وشرك الشيطان وقبيله واتق من ذلك كله، اذا فلا بضاعة ورأسمال للشيطان ولا سلاح ولا عدة له حتى

١- الاعراف / ٢٠٠.

٢- الكهف / ٢٧.

٣- يونس / ١٠٧.

يداخل به في شهوده كما لم يكن له ذلك بالنسبة الى فكره الذهني وعلمه
الحصول. والى ذلك يوعز قوله تعالى:

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ...^١.

ولا انحصار بذلك لرؤية الجحيم اذا المؤمن المتقى الذي جعل الله له نورا
كما يرى النار ويسمع عوا اهلها كذلك يرى الجنة ودعوى اهلها وهى التسبيح
والحمد وتحية اهلها وهو السلام. والسرفى ذكر الجحيم هو ان الغالب على الناس
هو الخوف من النار وان المؤثر في طباع اكثرهم هو الانذار لا التبشير ولذلك
نلاحظ القرآن الحكيم يحصر شأن الرسول فيه رغم انه كان مبشرا كما كان
منذرا:

قل يا ايها الناس انما انا لكم نذير مبين^٢.

فن اخلص الله يشاهد الحق شهودا لا يشوبه الباطل ويرى الاسماء الحسنى
ومظاهرها من الرضا والرحمة ومظهرها وهى الجنة ومن السخط والغضب و
مظهره وهى النار ومن القبيض والبسط ومظاهرها ومن الاضلال والهداية
ومراياهما وهكذا... والسبب في ذلك كله هو ما مرمسبقا من ان الله سبحانه
نور لا حجاب له اصلا وكذا اسمائه الحسنى لا كنان لها ولا غطاء عليها انما
الغطاء هو المسدول على اعين الكفار والمنافقين بالذنب، كما يفصح عنه قوله
تعالى:

وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاء الذين كانت اعينهم في غطاء عن
ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا^٣.

١- التكاثر/ ٥-٧.

٢- احج/ ٤٩.

٣- الكهف/ ١٠١-١٠٠.

لظهوره في ان أعين الكفار في غطاء عن ذكر الله لان ذكر الله في غطاء
فالقصور انما هو في اعينهم لاقى ذكره تعالى، وهكذا قوله:
لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم
حديداً.

لأن له دلالة على ان القيامة ومشاهدها موجودة بالفعل وانها مصنونة
عن الغطاء، بيد اننا مسدولة على بصر الكافر وسيكشف يوم القيمة فيصير
حديداً، ذاحدة نافذة يرى مظاهر الغضب ويسمع مشاهد السخط رغم كونه
اعمى عن مظاهر الرحمة ومشاهد الرضا وبيان ذلك كما يلي:
ان الذنب رين ينطبع به القلب فيصير محجوباً عن رؤية آيات الله في
الانفس والافاق فيصير اعمى كما قال مولى العارفين سيد الشهداء الحسين بن
علي (ع):

عميت عين لا تراك عليها رقيباً^١.

فلا يرى شيئاً من اسمائه الحسنی الجمالية ولا الجلالية، فبموته وانتقاله
الى الدار التي تبلى فيها السرائر وكانت سريره اعمى... يظهر باطنته ويحشر
يومئذ - اعمى، كما قال سبحانه:
ونحشره يوم القيمة اعمى^٢.

يعنى اعمى عن الحق وجماله ورحمته الخاصة، لذلك قال:
انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون^٣.

١ - ق/٢٢.

٢ - مفاتيح الجنان: دعاء الحسين (ع) يوم عرفه ص ٤٩٦ (ط. علمى ١٣٨٣ هـ).

٣ - طه/٢٤.

٤ - المطففين/١٥.

وحيث إن الاعمال تصير.. هناك قلائد في الاعناق^١ وسلاسل
في الأرجل وإن الظالمين يصيرون خطبا للنار، كما قال:
وأما القاسطون فكانوا لجهنم خطبا^٢.

وقوداً للنار، لذلك يرون انفسهم يسجرون في النار، قائلا حينذاك:
ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا^٣.

فهم رغم كونهم عميا عن شهود الجمال والرحمة يصبحون مبصرين للنار
ولهيبها وبالرغم من صممهم عن سماع كلمة الحق يبيتون سامعين لتغيظ النار
زفيرها، كما قال تعالى:
إذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا^٤.

وقال:

إذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور^٥.

وذلك لانهم كانوا في الدنيا يستمعون هتاف الشيطان فقط وما كانوا
يستطيعون سماع الحق ولم يكونوا يبصرونه. فتطهر هذه الحالة لهم يوم القيمة فلا
يشاهدون جمال الرحمة ولا يسمعون كلام الله اذ لا يكلمهم الله ذلك اليوم تكليم
عناية وتشريف ولا ينظر اليهم نظرة رافة ورحمة لأن الله حرم الكلام والنظر
الخاصين على الكفار العُمى عن الحق والصُم عنه، كما حرم الماء وغيره من

١- الصحيفة السجادية، دعاء ختم القرآن.

٢- الجن/١٥.

٣- السجدة/١٢.

٤- الفرقان/١٢.

٥- الملك/٧.

ارزاق الجنة عليهم، كما قال سبحانه:

ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة أن افيضوا علينا من الماء او
مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمها على الكافرين !

والمراد من التحريم هنا هو المنع التكويني دون النهى التشريعي،
اذلا تشريع في دار الجزاء ونشأة الحساب. وهذا التحليل يظهر عدم التناقض بين
ما يدل على ان هؤلاء الطغاة اللثام يحشرون يوم القيمة عميا صبا، وبين الذي
يدل على رؤيتهم النار وسمعهم شهيقا لها وهي تفور، لما مر مسبقا من ان يوم
القيمة هو يوم ظهور الملكات والاخلاق وقد كانوا في الدنيا بالقياس الى الحق
عميا صبا ومقيسا الى الباطل مبصرين ومستمعين فتبلى هذه السريرة الخاصة
لهم ذلك اليوم وقد كانوا في الدنيا كما حكى الله تعالى عنهم:

وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وان
يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك باهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين
والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الاخرة حبطت اعمالهم هل يجزون الا ما كانوا
يعملون !

ولاغرو في هذا التفكيك في العلم اليهودي بان يشاهد
الانسان شيئا ولا يشاهد شيئا آخر ويسمع صوتا ولا يسمع صوتا آخر وهكذا كما
لاغرابة في ذلك بالنسبة الى العلم الحصول بأن يفهم الانسان شيئا ولا يفهم
شيئا آخر مقابلا له - مثلا - ان الذي استقر وعشش في قلبه بعض المباني المادية
فانه لا يفهم الا الذي له صلة ومساس بالمادة، واما ما هو خارج عنها فلا يفهم
منه شيئا بل يراه اسطورة لا واقعية لها كما حكاه الله عنهم في قوله:

١ - الاعراف / ٥٠.

٢ - الاعراف / ٧ - ١٤٧.

قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول...^١

وفى قوله تعالى:

لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها
اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون^٢
ومنهم من يستمع اليك حتى اذا اخرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم
ماذا قال آنفا اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا هواهم^٣.

وفى قوله:

واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لنوشاء لقلنا متل هذا ان هذا
الاساطير الاولين^٤.

الى غير ذلك من الايات الحاكية عدم فقههم ما هو الخارج عن نطاق
الحسّ والفائق على إطار المادة وان كانوا يدركون المحسوسات وما لها من الآثار
المادية الدائرة وكذا يدركون المعاني الخيالية التي لا واقعية لها في الخارج من
التشبيهات والاستعارات والكنائيات الشعرية التي احسنها اكذبها. وهؤلاء نوع
من الناس عبّر القرآن الحكيم عن مثلهم بالمحتال اي الذي يحوم حول الخيال
ولا يدور مدار العقل الذي هو الحق، حيث قال سبحانه:
ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل
مختال فخور^٥.

فهؤلاء يدركون الاوهام المنسوجة بايدي الوهم والخيال ولا يدركون

١- هود / ٩١.

٢- الاعراف / ١٧٩.

٣- محمد (ص) / ١٦.

د- لقمان / ١٨.

٤- الانفال / ٣١.

الحقائق التي صنعها الله الذي بيده ملكوت كل شيء، فإن حكم في مورد بانهم لا يفقهون شيئاً فإن المراد من العموم المستفاد من وقوع التكرار في سياق النفي هو الشيء المعقول لا الاعم منه ومن الوهم والمتخيل. فبذلك يستبان ما هو المقصود من قوله تعالى:

فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً^١.

إذا المراد من الحديث الذي لا يفقهه هؤلاء هو الحديث العقلي المؤسس بنيانه على البرهان اليقيني دون الاعم منه ومن القائم على شفا جرف الوهم والخيال. ومن هذا القبيل قوله تعالى:

هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون^٢.

وذلك لأن هؤلاء رغم بلوغهم من الدهاء والنكراء حدا «إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا انؤمن كما آمن السفهاء» حيث انهم يحسبون انفسهم عقلاء ويزعمون ان المومنين بالله واليوم الآخرهم السفهاء، ولكنهم - في ذات الوقت - لا يفقهون الحقائق الغيبية ولا يدركون ما هو خارج عن مضاف الحس ومثال الخيال ومدهم الوهم.

والمحصل انه كما ان التفكير في العلم الحصولي امر ممكن بل واقع، كذلك التفكير في العلم الشهودي جائز بل واقع ضروري، لانه عبارة عن ظهور سريرة التفكير الحصولي الذي كان في الدنيا محققاً لأن هذه الدار الدائرة دار عمل ولا حساب والدار الآخرة التي هي الحيوان دار جزاء وحساب

١- النساء / ٧٨.

٢- المنافقون / ٧.

لاعمل فيها فجميع ما كان الانسان قد اجترحه في الدنيا يظهر بنفسه في الآخرة ولا امكان هنالك لكسب شئ لم يجترحه، فاذا كانت باطنة الانسان في الدنيا اعمى عن الحق وبصيرا بالباطل يظهر هذا الباطن يوم القيمة ويظهر الحق الذي كان مرغوبا عنه له بصورة الجنة التي تجرى من تحتها الانهار او اعلى منها كجنة اللقاة، ويظهر الباطل الذي كان مرغوبا فيه له بصورة النار التي تطلع على الاقنعة أدلى منها كالنار الجسمانية التي تحرق الجلود التي كلما نضجت بدلت جلودا غيرها ليذوق صاحبها العذاب. وهذا هو الذي يستفاد من قوله تعالى:

ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا^١.

اذ ليس المراد من العمى هنا هو العمى الحسى لأن الذي لا يغض بصره عن المحارم ولا يتحرز عن خائنة العين فهو بصير لا اعمى، بل المراد منه هو العمى العقلى لأن الذي لا يفقه ان الله خزان السموات والارض، ولا يفهم ان بيده ملكوت كل شئ، وان الله يحيى ويميت، وانه تعالى يأتى بالشمس من المشرق، وانه فالق الحب والنوى، وانه يعز و يذل، وانه يقبض ويبسط، وانه خالق كل شئ وعلى كل شئ وكيل. فهو اعمى عن الحقائق رغم ابصاره المحسوسات، وحيث ان الآخرة باطن الدنيا وان باطنة كل انسان فانها تظهر هنالك، فمن كانت باطنته اعمى في الدنيا يظهر عماه في الآخرة كما تقدم عن مولينا الرضا (ع) في قوله:

... ولكن القوم تاهوا وعموا وصموا عن الحق من حيث لا يعلمون وذلك قوله عز وجل: ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا يعنى اعمى عن الحقائق^٢.

ثم انه قد مررنا مسبقا ان الحق سبحانه نور لا حجاب له ذاتا ولا يعتره الخافية عرضا وان النفس الانسانية موجود مجرد لا حجاب له بالذات وان يطرق عليه الغطاء بالعرض.

وان شهود النفس متقوم بشهود الحق سبحانه كما ان وجودها متقوم بوجوده تعالى.

وان شهود الحق موجب لشهود اسمائه الحسنی ومظاهره العليا.
وان الحاجب عن الشهود لكونه عرضيا يزول لا محالة وهو يوم ظهور الحق ظهورا تاما لا يبقى معه مجال للريب و موقع للحجاب كما قال سبحانه:
يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ^١.

وان شهود الحقائق الخارجية ميسور للانسان الذي يشاهد نفسه ولا يغفل عنها بلا اختصاص لذلك بالانبياء، اذا النبوة وان كانت موهبة خاصة لا تنال غيرهم بها، وان الرسالة وان كانت عطية مخصوصة لا تنال سائر الناس حيث ان ذلك عهد الهى وهو تعالى: «اعلم حيث يجعل رسالته» كما وانها ايضا محددة زمانا ومنقطعة امدامع بقاء شريعة الخاتم (ص) الا ان الولاية موهبة عامة لا انقطاع لامدها ولا نهاية لعددتها لان الله سبحانه هو الولي ولهذا الاسم مظهر في كل جيل وعصر ومصر.

وان الطريقة المثلى التى هى أقوم آتماهى معرفة النفس شهودا وأن الذى يبغيها عوجايتيه فى الارض وأن الذى يسلكها بلا اعوجاج لا يضل ولا يغوى. وان الحجاب المانع عن شهود النفس الملازم لشهود الرب هو الذنب لا غير، وقد وعدنا بيان ما هو الحجاب الاصيل وبيان ما هو الفلاح عن ذلك الحجاب فلزام علينا انجاز الوعد

على بن موسى الرضا عليهما السلام والمرآة الحكيم ١٨٧

وعليه فنقول: إن حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة هو الحجاب عن ذكر الله والغطاء عن معرفة النفس وشهودها بحيث لا يجتمع حبا مع ذكر الله وكذا مع معرفة الله. حيث قال سبحانه:

فأعرض عن من تول عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى^١.

لدلالته على أن إرادة زهرة الحياة الدنيا تحجب عن ذكر الله، فالدنيا مصداق للذهول فطالبا لها ذاهل ليس بذاكرفي إرادتها مساوقة للذهول عن ذكر الله فكل من أرادها فقد ذهل عن الله ونسبه وكل من نسي الله أنساه الله نفسه كما قال سبحانه:
...نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون^٢.

فكل مريد للحياة الدنيا فهو ذاهل عن نفسه وناسيا، وهكذا كل من نسي الله ينساه الله سبحانه عن الذهول والسهو، كما قال تعالى:
...نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون^٣.

وحيث أن النسيان لا يتطرق إلى من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء كما قال سبحانه:
...وما كان ربك نسيا^٤.

فلا بد من أن ينتزع النسيان المنسوب إليه سبحانه من مقام الفعل لا الذات

١- النجم / ٣- ٢٩.

٢- الحجر/ ١٩.

٣- التوبة / ٦٧.

٤- مريم / ٦٤.

ولا الوصف الذاتي، ولما كان النسيان امرًا عديمًا فإن منشأه امر عديم - لا محالة - اذ لا ينتزع الامر العدمي من متن الامر الوجودي بما انه وجودي، بل ان كان ولا بد فن حيثية عدمية هو امساك الفيض الخاص وعدم ارساله حسب تقدم بيانه، فاذا امسك الله فيضه الخاص ولم يرسله الى من اعرض عن ذكره واراد الحياة الدنيا والمفترض انه لا يرسل غيره تعالى فيصير ذلك الغافل الناسي الساهي عن ذكره فاقداً للكمال وجودي. وقد بين القرآن بصراح ان فقد ذلك الكمال الوجودي هو العمى عن شهود الحق، كما قال تعالى:

ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة اعمى، قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها فكذلك اليوم تنسى^١.

لظهوره في ان كون المعرض عن ذكر الله اعمى انما هو مصداق لنسيان الله وانه لو ذكره الله لصار بصيراً شاهداً، كما وان المعرض عن الدنيا والذاكر لله يصير مذكوراً لله سبحانه. وحيث ان الذكر والنسيان متقابلان، فاذا كان العمى منشأ لانتزاع النسيان يكون البصيرة منشأ لانتزاع ذكر الله عبده وبما ان المراد من العمى هنا هو عمى القلب يكون المراد من البصيرة هي هنا هو بصر القلب، فقلب الذاكر شاهد بصير، كما ان قلب الغافل الناسي اعمى فيدور الشهود القلبي مدار ذكر الله وحببه ويدور المعنى القلبي مدار ذكر الدنيا وحبها المساوق لنسيان الله ونسيان النفس فيترتب على حيثيته العدمية وهو النسيان امر عديم هو العمى والصم وما الى ذلك، ويترتب على حيثيته الوجودية وهو ذكر الدنيا وحبها والحنين اليها امر وجودي هو العذاب يوم القيمة كما قال تعالى:

فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا أنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون^١
وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من
ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغررتم الحياة الدنيا فالיום لا يخرجون
منها ولا هم يستعتبون^٢.

لظهور هذه الآيات في أنّ منشأ العذاب هو نسيان المعاد وهو الرجوع الى الله الذي
هو المبدء. وفي أنّ منشأ النسيان هو الاغترار بالدنيا واشراب حبها في القلب، وهذا
هو الامر الوجودي الذي يظهر بصورة العذاب يوم القيمة، كما وان ذكر الله وحبّه امر
وجودي يترتب عليه عدا الامر الوجودي المتقدم وهو الشهود القلبي امر وجودي آخر
هو الرفاء والتنعم في جنة عرضها السموات والارض وفي أنّ منشأ الاستهزاء بآيات
الله هو الولع بذكر الدنيا الغرور وحبها الذي هو رأس كل خطيئة في الدنيا ومنشأ كل
عذاب في الآخرة، كما ان حب الله رأس كل صواب في الدنيا ومنشأ كل تنعم في
الآخرة... وإلى ذلك كله يوعز قوله تعالى:

ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون، قال اخسئوا فيها ولا تكلمون، انه كان
فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين، فاتخذتموهم
سخريا حتى انسوكم ذكرا وكنتم منهم تضحكون، اني جزيتهم اليوم بما صبروا انهم
هم الفائزون^٣.

لظهور هذه الآيات في بيان مبادئ تلك الاوصاف في الدنيا والآخرة...
وحيث ان الدنيا وزينتها وزهرتها وزبارجها... حباله الشيطان وانه بها يقتبض
الانسان، كما قال:

١- السجدة / ١٤.

٢- الجاثية / ٥ - ٣٤.

٣- المؤمنون / ١١١ - ١٠٧.

...لا زين لهم في الارض^١.

فلا بد وان يستند نسيان الله والغفلة عن ذكره والإعراض عن تولية الوجه شطره الى الشيطان، اذ النفس الأمارة والمسولة وسائر شؤون النفس المعرضة عن ذكر الله تحت تدبير الشيطان الذي اتخذ الانسان المغتر بالدنيا وليا له وولى وجهه شطره وبائع معه، كما قال سبحانه:

استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله اولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون^٢.

فبتبيين ما مربك له يتبين هيئنا اصل آخر هو: ان المعرض عن ذكر الله الغافل عنه المولع بذكر الدنيا والمحب لها هو تحت ولاية الشيطان. كما ان المعرض عن الدنيا المطلق لها المتذكر لله والمحب له تعالى تحت ولائه. كما قال:

الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور...^٣.

وقال:

ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو تولى الصالحين^٤.

وقال تعالى:

تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم وهم عذاب اليم^٥.

وحيث ان الامور الأخروية نتائج الملكات الدنياوية فكون الشيطان وليا لهؤلاء

١- الحج/ ٣٩.

٢- المجادلة/ ١٩.

٣- البقرة/ ٢٥٧.

٤- الاعراف/ ١٩٦.

٥- النحل/ ٦٣.

في الآخرة إنما هو لكونه وليا لهم في الدنيا وبيده زمام ناصيتهم الخاطئة وهو المسطر عليهم والمعبود لهم .

وليس المراد من ولاية الشيطان على الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واخذوا آيات الله هزواً واتخذوا المؤمنين سخرى هو الولاية المستقلة اذ لا استقلال لشيء في دار التحقق الا لله الذي هو الحق بذاته ومنه الحق في فعاله ، بل المراد ان الشيطان الذي هو بنفسه جند من جنود القهر الإلهي والاضلال الجزائي دون الاضلال البدائي المنزه منه الله : «الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى» هذا الشيطان يصير مأموراً بالإغوائهم ولا زاعة قلوبهم وتعمية صدورهم واخراجهم من نور الفطرة الى ظلمة الكفر والنفاق ، بعد ان زاغوا بسوء اختيارهم وضلوا عن سبيل الله بسوء فعالهم واقبلوا الى الدنيا مدبرين عن الآخرة بسوء نياتهم واشتروا الضلالة بالهسدى فاراحت تجارتهم الكاسدة بسوء اعمالهم فعندئذ يسلط الله الشيطان عليهم ليزداد سقم قلوبهم ، كما قال سبحانه :

انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون^١

وقال :

انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزاً^٢

فالغرض هو ان التوحيد الالهي والربوبية المطلقة التي لله رب العالمين لا تدع مجالاً لان يستقل شيء في امره سواء في ذلك الشيطان وغيره ، بل جميع ما في السموات والارض عبيد داخر له تعالى وجند خاضع لديه ولكن الله سبحانه قد يرسل ملكاً ليخرج عبده الصالح من اى ظلمة محتملة الى النور دفعا او رفعاً . وقد يرسل شيطانا

١ - الاعراف / ٢٧ .

٢ - مريم / ٨٣ .

ليستولى أمر عبده الطالح بعدما امهل له غير مرة وفتح لوجهه ابواباً من التوبة والانابة والاسلام....

والمحصل أنّ الولي المطلق الذي لا شبهة له في ولايته ولا شريك له في سلطنته ولا تدّ له في سيطرته ولا مثيل له في هيمنته - وعلى الجملة - الولي الذي ليس كمثله شيء بالضرورة الازلية... انما هو الله سبحانه وأنّ محور التوبة ومدار السيطرة هو النفس لا غير الله وليها ليخرجها من الظلمات إلى النور بالتزكية، والشيطان وليها كي يخرجها من النور إلى الظلمات بالتدسيس والتخيب وأنّ أس رقى النفس هو شهودها القلبي، الطاهر عن دنس التمثل الشيطاني وبنیان هبوطها وهوبها هو العمى القلبي المشوب بالمغالطة الفكرية او التمثل الشيطاني في المثال المتحصل بها وأنّ الموعد الوحيد للتضارب والسباق والانتصار بين الحق والباطل هو مسرح النفس ولا هم وشأن للشيطان سوى اغوائها، كما وان العناية الخاصة الالهية انما هي منعطفة نحو هدايتها وتزكيتها وعليه فان الاساس والقطب هو النفس لا غير لان جميع الشئون المدركة والمحركة تابعة لها، كما وان جميع ما هو خارج عنها تابع لها.

وحيث أن النفس هي النقطة المركزية للسعادة والشقاوة.. حث القرآن العلمي والقرآن العيني على معرفتها ومعرفتها ما يصلحها وما يفسدها وحرّضاً على تهذيبها وتجريدتها عن التعلق والرباط بالطبيعة وحذرها عن الذهول والنسيان وانذرها عن الطغوى والعصيان وأمرها بالتقوى والايمان.. واليك جانباً مما في القرآن العلمي وبعضاً مما عن القرآن العيني ذى النفس المطمئنة الراضية المرضية الراجعة الى لقاء بارئها الدخيلة في عباده المخلصين وفي جنّته الخاصة، لكي يستبان بذلك لزوم الاهتمام بمعرفة النفس ويمتاز به الشهود القلبي الحق المرغوب اليه عن التمثل الشيطاني الباطل المرغوب عنه. قال سبحانه:

يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا هتديتم الى الله

مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون^١.

فالذي تفسيدنا الآية الكريمة هو ان الانسان سالك الى الله وصائراً اليه ولا بد للسالك من الطريق، كما ولا بد له من الغاية والهدف. اما الطريق فهي النفس. واما الغاية فهي الجنة اللقاء ولا طريق لها الا معرفة النفس وتركيتها ولا غاية للنفس الا لقاء بارئها، ولذا اهتم به المحققون من القدامى وغيرهم في كتبهم المتعة المرموقة وكذا في سيرهم الطاهرة عن رجس الطبيعة.

ولقد كشفنا في العرض لهذا الموضوع القيم سيدنا الاستاذ العلامة الطباطبائي (قده) في كتابه الممتع «الميزان في تفسير القرآن» في موارد عديدة سيما فيما ذيله لايتنا المبحوث عنها وكذا في سائر تصانيفه الثمينة لا سيما رسالته المعمولة في الولاية... ومعه لا مجال للإسهاب في ذلك، عدا نقل بعض ما ورد في النفس مما لم تتح الفرصة لسيدنا الاستاذ (قده) لان يتعرض له او انه (ره) رأى فيما نقله غنية عما لم ينقله. ومهما كان الأمر فان القرآن العيني - أي الانسان الكامل المفصوم - لما كان بنفسه قد سلك هذه الطريقة الوعرة التي هي أحد من أي سيف قاطع وادق من ادق الشعريات والمنائير وبلغ بغيته وصار بنفسه إماماً لا يتي سالك رآه ان يسلك طريق النفس وقدوة لا يتي سائر عزم ان يسير مسيرها واسوة لا يتي مرتاض اراد ان يروض نفسه بالتقوى... فانه لزام علينا نقل جانب مما صدر عن صدره المنشرح وقلبه الشاهد ولسانه الناطق بالحق... فقد قال مولينا الرضا (ع):

من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف امن، ومن اعتبر ابصر،
ومن ابصر فهم، ومن فهم علم. وصديق الجاهل في تعب. وافضل العقل معرفة
الانسان نفسه^٢.

١- المائدة / ١٠٥.

٢- مستند الامام الرضا (ع) ٣٠٤/١ - ٣٠٢، عن البحار ٣٤٥/٧٨ - ٣٥٠.

وفي «الغرر والدرر» للآمدى عن مولينا امير المؤمنين (ع):

الاشتغال بتهديب النفس اصلح، من لم يهذب نفسه لم ينتفع بالعقل، من لم يهذب نفسه فضحه سوء العادة^١.

الغفلة اضرب الاعداء، الغفلة شجرة النوكى، دوام الغفلة يعمى البصيرة، بينكم وبين الموعظة حجاب من الغفلة والغفلة، من غلبت عليه الغفلات مات قلبه، ويل لمن غلبت عليه الغفلة فنسى الرحلة ولم يستعد^٢.

الفكر عبادة، الفكر جلاء العقول، التفكير ملكوت السموات والارض عبادة المخلصين، بالفكر تنجلي غياهب الامور، صيام القلب عن التفكير الآثام افضل من صيام البطن عن الطعام، من اسهر عين فكرته بلغ كنه همته، لا بصيرة لمن لا فكر له^٣.

الهوى شريك العمى، الهوى اله معبود، ان طاعة النفس ومتابعة اهويتها اس كل محنة ورأس كل غواية، ان اظلمت هواك اصمك واعماك وافسد منقلبك وارداك، دواء النفس الصوم عن الهوى والحمية عن لذات الدنيا، صلاح النفس مجاهدة الهوى، ردع النفس عن تسويل الهوى ثمرة النبيل، ردع النفس عن الهوى الجهاد الاكبر، كم من عقل اسير تحت هوى امير، كيف يجد لذة العبادة من لا يصوم عن الهوى، لو ارتفع الهوى لاتف غير المخلص من عمله، مغلوب الهوى دائم السقاء موبد الرق، نظام الدين مخالفة الهوى والتزهد عن الدنيا^٤.

البقطة نور، لا تنجع الرياضة الا في نفس يقظة، اليقين نور، سبب الاخلاص اليقين، كفى باليقين عبادة ما اعظم سعادة من يوشق قلبه ببرد اليقين، اليقين يشمر الزهد^٥.

الاخلاص اعلى فوز، العمل كله هباء الا ما اخلص فيه، عند تحقيق الاخلاص

١- الغرر والدرر للآمدى - ٤٢٢/٧.

٢- الغرر والدرر للآمدى ٩/٧ - ٣٩٨.

٣- الغرر والدرر للآمدى ٦/٧ - ٣١٣.

٤- المصدر ٤٢٩ - ٤٢٥.

٥- الغرر والدرر للآمدى ٤/٧ - ٤٣٢.

تستنير البصائر، من اخلص النية تنزهة عن الدنية^١.

حسن النية جمال السرائر، سوء النية داء دفين^٢.

الثقة بالنفس من اوثق فرص الشيطان، الثقة بالله افضل عمل^٣.

الذكر نور العقل وحياة النفوس وجلاء الصدور، استدعوا الذكر فانه ينير القلب وهو افضل العباداة، ذكر الله جلاء الصدور وطمأنينة القلوب، عليك بذكر الله فانه نور القلب، من ذكر الله سبحانه احيى الله قلبه ونور عقله ولبه^٤.

لا عمل كالتحقيق ولا ينفع اجتهاد بغير تحقيق، لاسنة افضل من التحقيق^٥.

الدنيا مصرع العقول، اياك وحب الدنيا فانها اصل كل خطيئة ومعدن كل بلية، ان النفس التي تطلب الرغائب الفانية تهلك في طلبها وتبقى في منقلبها، ان من هوان الدنيا على الله ان لا يعصى الا فيها، ان الدنيا متتهى بصرا لا عمى لا يصبر بما ورائها، انك لن تلقى الله سبحانه بعمل اضرع عليك من حب الدنيا، آفة النفس الوله بالدنيا، حب الدنيا يفسد العقل ويصم القلب عن سماع الحكمة، طلاق الدنيا مهراجنة، عجيبت لمن عرف نفسه كيف يأنس بدار الفناء، كما ان الشمس والليل لا يجتمعان كذلك حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان، حب الدنيا صمّت الاسماع عن سماع الحكمة وغميت القلوب عن نور البصيرة، من غلبت الدنيا عليه عمى بما بين يديه، هلك من استنام الى الدنيا وامهرها دينه فهو حينا ما لم يلبها، ينبغي لمن علم شرف نفسه ان ينزهها عن دنائة الدنيا، المؤمن من طهر قلبه من الدنية^٦.

الشرعية رياضة النفس، لقاح الرياضة دراسة الحكمة وغلبة العادة، من استدام رياضة نفسه انتفع^٧.

اذا احب الله عبدا اظمه حسن العباداة، دوام العباداة برهان الظفر بالسعادة،

١ - الغرر والدرر للآمدى ٣/٧ - ٩١.

٢ - الغرر والدرر للآمدى ٩/٧ - ٣٩٨.

٣ - الغرر والدرر للآمدى ٧/٣٩٩.

٤ - الغرر والدرر للآمدى ٧/٥ - ١٢٣.

٥ - الغرر والدرر للآمدى ٧/٧٧.

٦ - الغرر والدرر للآمدى ٧/١١٧ - ١٠٥.

٧ - المصدر ٧/١٤٦.

من قام بشرائط العبودية أهل للعتق^١.
 العلم يهتف بالعمل فإن أجابه والا ارتحل، جمال العالم عمله يعلمه^٢.
 الصمت روضة الفكر، طوق لمن صمت الآمن ذكر الله، قد افلح التقى
 الصموت، كن صموتا من غير عي فإن الصمت زينة العالم وستر الجاهل^٣.
 الصمت بغير تفكير خرس^٤.
 الفضل الجهاد جهاد النفس عن الهوى وطماعها عن لذات الدنيا، جهاد النفس
 مهراجنة، حاربوا هذه القلوب فبأنها سريعة العتار، ذروة الغايات لا بناها الا ذووا
 لتهديب والمجاهدات، من عرف نفسه جاهدتها^٥.
 البطنة تحجب الفطنة، اذا ملّ البطن من المباح عمى القلب عن الصلاح،
 كيف تصفو فكرة من يستديم الشبع، لافطنة مع بطنة، لا يجتمع الشبع والقيام
 بالمقترض^٦.
 التجوع انفع الدواء، تأدم بالجوع وتادب بالخضوع، نعم العون على اسرار النفس
 وكسر عاداتها التجوع، نعم عون النوع التجوع^٧.
 عين المحب عمية عن معائب المحبوب واذنه صماء^٨.
 من نسي الله انساه الله نفسه واعى قلبه^٩.
 افضل الذكرا القرآن به تشرح الصدور وتستنير السرائر، ليكون شميرك
 القرآن^{١٠}.
 الأمل سلطان الشياطين على قلوب الغافلين^{١١}
 المؤمن نفسه اصلب من الصلبد وهو اذل من العبد^{١٢}.
 البكاء من خيفة الله للبعد عن الله عبادة العارفين، البكاء من خشية الله ينير

١- الفرر والدرر للأمنى

٢- المصدر ٧/ ٢٨٠.

٣- المصدر ٧/ ٦ - ٢٠٥.

٤- المصدر ٧/ ٣١٣.

٥- المصدر

٦- المصدر ٧/ ٣٦ - ٣٧.

٧- المصدر ٧/ ٥٠ - ٤٩.

٨- المصدر ٧/ ٥٧.

٩- المصدر ٧/ ٣٨٠.

١٠- المصدر ٧/ ٣٢٢ - ٣٢٠.

١١- المصدر ٧/ ٢١.

١٢- المصدر ٧/ ٢٩.

القلب ويعصم من معاودة الذنب^١.

الحازم يقظان، الغافل وشنان، انما الحزم طاعة الله ومعصية النفس^٢.

من طال حزنه على نفسه في الدنيا اقر الله عينه يوم القيامة^٣.

ثمرة المحاسبة صلاح النفس^٤

القلب مصحف الفكر، انتباه العيون لا ينفع مع غفلة القلوب، اصل صلاح القلب اشتغاله بذكر الله، تكاد ضماثر القلوب تطلع على سرائر الغيوب، صوم القلب خير من صيام اللسان وصيام اللسان خير من صيام البطن، فالصورة صورة انسان والقلب قلب حيوان، قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه فمن طهر قلبه نظرا اليه، لا يصدر عن القلب السليم الا المعنى المستقيم^٥.

رضاء المرء عن نفسه برهان سخافة عقله، رضا العبد عن نفسه مقرون بسخط ربه^٦.

ازهد في الدنيا يبصر ك الله عيوبها ولا تغفل فلست بمغفل عنك، ان عقلت امرك او اصبت معرفة نفسك فاعرض عن الدنيا وازهد فيها، بالزهد تنعم بالحكمة، سبب صلاح النفس العزوف عن الدنيا، من زهد في الدنيا اعتق نفسه وارضى ربه^٧.

شر الفقر فقر النفس^٨.

اعجاب المرء بنفسه حق، اعجاب المرء بنفسه برهان نقصه وعنوان ضعف عقله^٩.

العقل رقى الى عليين، بالعقل كمال النفس، بالعقل يستخرج غور الحكمة، بالعقول تنال ذروة العلوم، حد العقل الانقصال عن الفاني والاتصال بالباقي، خير المواهب العقل، لا يزكو عند الله سبحانه الا عقل عارف ونفس عزوف، من عقل تيقظ من غفلته وتأهب لرحلته وعمر دار اقامته^{١٠}.

الخوف جليباب العارفين، الخوف سجن النفس عن الذنوب وراذعها

١- الفرر والدرر للآمنى ٣٧/٧. ٦- المصدر ١٣٩/٧.

٢- المصدر ٦٤/٧. ٧- المصدر ٣١٢/٧.

٣- المصدر ٦٥/٧. ٨- المصدر ٢٣٢/٧.

٤- المصدر ٦٦/٧. ٩- المصدر ١٥١/٧ - ١٥٠.

٥- المصدر ٣٢٦/٧ - ٣٢٥. ١٠- المصدر ٢٦٣/٧ - ٢٥٦.

عن المعاصي^١.

السجود النفساني فراغ القلب من الفانيات^٢.

صلاح السرائر برهان صحة البصائر^٣.

من عرف قدر نفسه لم يهنأ بالفانيات^٤.

النفس الكريمة لا تؤثر فيها النكبات، من كرمت نفسه صغرت الدنيا في عينه^٥.

نزهاوا أنفسكم عن دنس اللذات وتبعات الشهوات، ولوع النفس باللذات يغوى ويردى^٦.

المكور شيطان في صورة انسان^٧.

سياسة النفس افضل سياسة ورياسة العلم اشرف رياسة، صوم النفس امساك الخواص الخمس عن سائر المائم، كلما ازداد علم الرجل زادت عنايته بنفسه وبذل في رياضتها وصلاحتها جهدة ليس على وجه الارض اكرم على الله سبحانه من النفس المطيعة لامره، إن النفس لجوهرة ثمينة من صانها رفعها ومن ابتدها وضعها، ان الحازم من قيد نفسه بالحاسبة وملكها بالمفاضلة وقتلها بالمجاهدة، خير الامراء من كان على نفسه اميرا، ينبغي ان يكون الرجل مهيمنا على نفسه مراقبا حافظا لسانه^٨.

التوحيد حياة النفس^٩.

سوسوا أنفسكم بالورع^{١٠}.

المواعظ صقال النفوس وجلاء القلوب^{١١}.

اجعل لنفسك فيما بينك وبين الله سبحانه افضل المواقيت والاقسام^{١٢}.

١- الفرر والدرر للآمدى ٩٧/٧.

٢- المصدر ١٥٤/٧.

٣- المصدر ١٥٨/٧.

٤- المصدر ٣١٩/٧.

٥- المصدر ٣٤٦/٧.

٦- المصدر ٣٥٨/٧.

٧- المصدر ٣٦٥/٧.

٨- المصدر ٣٨٩-٣٩٣/٧.

٩- المصدر ٤٠١/٧.

١٠- المصدر ٤٠٣/٧.

١١- المصدر ٤٠٧/٧.

١٢- المصدر ٤١١/٧.

حرام على كل قلب متوله بالدنيا ان يسكنه التقوى، خلو القلب
من التقوى بمأله من فتن الدنيا، ملاك التقوى رخص الدنيا^١.
لا نعمل لنفسك نوكل الا على الله ولا يكن لك رجاء الا الله^٢.

والمتحصل من هذه النصوص النورية هو: أنَّ النفس الانسانية جوهر مجرد
ذاتا عن المادة. وأنَّ لها الرق الى ذروة الملكوت وشهود الغيب... وأنَّ الفكر
الصافي الذي هو من شئون قوتها النظرية جلائها. وأنَّ الاخلاص والتقوى
والزهد وما الى ذلك من الملكات الفاضلة التي هي من شئون قوتها العملية
صقائها وصفائها... وأنَّ توحيد الله ذاتا وصفة وفعلها حياتها وأنَّ ذكر الله آناء
الليل و اطراف النهار وكذا عند اقبال الليل وادبار النهار وعند طلوع الكواكب
وادبار النجوم نورها وسبب طمأ نيتها... وأنَّ التحقيق في المعارف والاصول
والتحرز عن التقلبد والجمود سنة فاضلة لا افضل منها ولا ينفع اجتهاد ومكابدة
بدونها. وأنَّ معرفة النفس انفع المعارف وشرط لمؤنة غيرها... وأنَّ الشريعة
السمحة السهلة باوامرها ونواهيها وبعزائمها ورخصها وبفرائضها ونوافلها
وبحلالها وحرامها وبآدابها وسننها وبحدودها وثغورها وبعباداتها ومعاملاتها
واحكامها وسياساتها وباصولها وفروعها... كلها جميعا رياضة للنفس، وما لها
من رياضة بلا حاجة الى بدعة ولا فاقة الى ابتداع ولا احتياج الى تشريع لان الله
الذي جعل شريعته رياضة للنفس صرح بكما لها وتعامها، حيث قال تعالى:
اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمي ورضيت لكم الاسلام
دينا^٣.

١- الغرر والدرر للأمدى ٤١٦/٧-٤١٥.

٢- المصدر ٤١٩/٧.

٣- المائدة/٣.

قال سيدنا الاستاذ العلامة الطباطبائي (قده): لقد سمعت بعض مشايخي وقد سئل عن طريق معرفة النفس لم لم يبين شرعا وهو اقرب الطرق الى الله سبحانه، فقال -مدظله-: واتى بيان في الشرع لا يروم هذا المقصد ولا يشرح هذا الطريق^١.

وقال (قده) ايضا: «ونعم ما قال بعض اهل الكمال ان الميل من متابعة الشرع الى الرياضات الشاقة فرار من الاشق الى الاسهل فان اتباع الشرع قتل مستمر للنفس دائمي مادامت موجودة والرياضة الشاقة قتل دفعي وهو اسهل ايثارا!». وان تطليقة الدنيا وهي ما يشغل النفس عن لقاء الله مهر الجنة وثن لقائه تعالى، وأن الصمت والجوع والسهر والذكر والخلة المندوب اليها في الشرع معدات للنفس، لان يدفع الرين او يرفعه لتصير مرآة صافية يتجلى فيها الغيب وان جهادها والظفر عليها وتملك زمامها والتأمر عليها واسرها تحت قيد العقل الذي به يعبد الرحمن ويكتسب الجنان، هو الفوز الاكبر وأن الغفلة عن الله والإعراض عن ذكره سبحانه حجاب يمنع عن مشاهدة الحق واسمائه الحسنى وأن للقلب المتذكر بصرا وسمعا وذوقا يبصر ويسمع ويذوق بذلك ما هو الغائب عن الحواس. وأن للقلب الساهي حواس خيالية يستخدمها الشيطان ويتصرف فيها ويدرك او يحرك بها. كما قال امير المؤمنين (ع):

اتخذوا الشيطان لامرهم ملاكا واتخذهم له اشراكا فباض وفرخ في صدورهم ودب ودرج في حجورهم فنظروا بعينهم ونطقوا بالسنهم^٢.

والى بعض ما تقدم قد اشار مولينا الرضا (ع):

١- رسالة الولاية، الفصل الرابع.

٢- رسالة الولاية، الفصل الرابع.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ٧.

ان للقلوب اقبالا وادبارا ونشاطا وفتورا فاذا اقبلت بصرت وفهمت واذا
ادبرت كلت وملت، فخذوها عند اقبالها ونشاطها واتركوها عند ادبارها
وفتورها^١.

وَأَنَّ للقلب التطلع على الغيب وما استتر في ضمير الغير كما قال مولينا
الرضا (ع) لحسن بن الجهم لما قال له (ع) لا تنسني من الدعاء قال (ع):

او تعلم الى انساك؟ قال فتفكرت في نفسي وقلت هويدعو لسيعته وانا
من شيعته. قلت: لا. لا تنساني. قال (ع): وكيف علمت ذلك؟ قلت: اني من
شيعتك وانك لتدعوهم فقال (ع) هل علمت بشيئ غير هذا؟ قال: قلت لا،
قال (ع): اذا اردت ان تعلم مالک عندى فانظر الى مال عندك^٢.

وَأَنَّ الانعتاق عن رِقَّة الدنيا والتحرر عن زِيَّ عبوديتها انما يتحصل
بالعبادة لله. وَأَنَّ افضل انحاء العبادة ما يكون حبا لله لا خوفا من النار ولا طمعا
في الجنة. وَأَنَّ حب الله كالشمس المضيئة وحب الدنيا كالليل المظلمة
لا يجتمعان اصلا.

وَأَنَّ الهوى مانع عن الالتذاذ بالعبادة وحاجب عن الاتعاظ بالموعظة
الحسنة.

وَأَنَّ الذى قال ربى الله ثم استقام على التوحيد الربوبى تنتزل عليه الملائكة
وتبشره اما بالتمثل الملكى او بالقاء الفكر فى نفسه، وان الشياطين انما تنتزل على
كل اقباك اثم اما بالتمثل الشيطانى او بالقاء الفكر الحصى فى ذهنه. ويجمع
كل ذلك قوله تعالى:

...وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم^٣.

١- مسند الامام الرضا (ع) ٣١٣/١. عن البحار ٣٥٣/٧٨.

٢- مسند الامام الرضا (ع) ٣١١/١. ٣- الانعام ١٢١.

وَأَنَّ الميزان للمقسط الفارق بين الشهود القلبي الصحيح والتمثل الشيطاني بالباطل هو القرآن العلمي والقرآن العيني، اعني الثقلين الذين لايفترقان في مورد اصلا ويدوران مدار الحق حيثما دار، بل الحق هو ما حققاه والباطل هو ما ابطلاه، وَأَنَّ طريق وصول القلب الى الحق ومسير نزول الحق على القلب هو العبادة والا ستغفار، كما هو المستفاد من قول مولينا الرضا (ع) لابن اسباط: اثنت المسجد في غير وقت صلاة فريضة فصل ركعتين واستغفر الله مائة مرة ثم انظر اى شئ يقع في قلبك فاعمل به^١.

لان ظاهرة كلامه ان القلب الطاهر يتطلع على الغيب وهو الخير الذي سيقع بعد ذلك وان طريق عثوره هو الصلاة وطلب الخير من الله تعالى اذ لا يوجد الخير الا من عند الله كما قال مولينا السجاد (ع) في دعاء السحر. وَأَنَّ العثور على الغيب تارة يتحصل في النوم واخرى في اليقظة، كما كان رسول الله (ص):

اذا اصبح قال لاصحابه «هل من مبشرات»؟ يعنى به الرؤيا^٢.

وَأَنَّ رؤيا غير المعصوم كيقتضته بحاجة الى الميزان، لاحتمال الخطاء في ذلك كله... وان رؤيا المعصوم (ع) كيقتضته حق وقسط مصون عن تطرق الخطاء وتمثل الشيطان، كما قال مولينا الرضا (ع) للوشاء:

رايت ابى (ع) في المنام قال (ع): يا بنى اذا كنست في شدة فاكثر ان تقول يا رؤف يا رحيم، والذي نراه في المنام كما نراه في اليقظة^٣.

١- مسند الامام الرضا (ع) ٣١٤/٢ و ١٨٠، عن التهذيب ٣١١/٣.

٢- الكافي ٩٠/٨.

٣- مسند الامام الرضا (ع) ٦٦/٢.

وكما قال ايضا مولينا الرضا (ع) لحسن بن علي:

ان ابي كان عندى البارحة. قال قلت: ابوك؟ قال (ع): ابي. قلت
ابوك؟ قال (ع): ابي قلت: ابوك؟ قال (ع): في المنام ان جعفرًا كان يجيئ الى ابي
فيقول يا بني افعل كذا يا بني افعل كذا. قال فد خلت عليه بعد ذلك قال (ع)
يا حسن ان منا منا وبقظتنا واحدة^١.

وَأَنَّ الآخرة غيب عن الحس والطبيعة لا يشاهدها الا الذي تنزه عن الدنيا
واخرج عنها من قلبه وطهره من درنهما وقدسه عن رينها، كما وان النائل بالجنة
والواصل اليها لا يكون الا من لا يريد علوا في الارض ولا فسادا. وَأَنَّ طلب الجمع
بين الدنيا والآخرة من خداع النفس وَأَنَّ شهودها لا يتيسر الا لمن تنزودها علما
بتحصيل اليقين وعملا بتحصيل التقوى الذين هما الزادان للمعاد... وَأَنَّ
العدوان على العباد بشئ الزاد له. فلذا كان امير المؤمنين (ع) ينادى بقوله:
الا متزود لآخرة قبل ازوف رحلته^٢.

مشيراً إلى دنو القيامة وضيق وقتها، ولذا يقال لها الآزفة، كما نقره في
قوله تعالى:

ازفت الآزفة^٣.

كما ويعبر عنها بالساعة ايضا اذ من الطبيعي ان المسافر الذي ينزل
في طريقه و مسيره ليتروح لحظات لوعلم اقتراب الترحال وضيق وقته استعدادها
بكل جد... ولعله لذلك قال سبحانه:

اقى امر الله^٤.

١ - مستند الامام الرضا (ع) ١/١٥٨.

٢ - القرر والدرر للآمدى ٤/٧.

٤ - النحل / ١.

٣ - النجم / ٥٧.

حيث عبر عن القيامة بلفظة الماضي لقربها وضيق وقتها، كما افاده الراغب في مفرداته... وأنَّ شهود المعارف الالهية لا اختصاص له بالانبياء (ع) الآفيا يرجع الى التشريع. اذ لكل ممن آمن بما جاء به النبي (ص) وعمل به واتق واخلص لله ينكشف له الحقائق على قدر ايمانه وانشراح صدره. نأخذ مثالا: حارثة بن مالك، حيث قال رسول الله (ص) في حقه: «عبد نور الله قلبه». وكما ان الانسان اذامات بالموتة الطبيعية يتجلى له غير واحد من الحقائق، كذلك اذامات بالموتة الارادية وامات ذكر الدنيا عن قلبه واحيي عقله وامات نفسه و احيي قلبه بالعظة وامات هواه المرهى ونفسه المسولة بالزهادة واسمع دعوة الموت... اذن قلبه قبل ان يدعى به وكان بالنسبة الى الموت كقارب ورد وطالب وجد، وذلل نفسه بذكرى الموت... يجعل الله سبحانه له فرقانا يفرق به بين الحق والباطل، وبين الجنة والنار، وبين الولي والعدو. ويتمثل له ذلك تمثل عيان لا يقتدر على شرحه البيان وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ومثل هذا العبد الصالح المتاسى بالعترة الطاهرة في سيرته هو الحري المؤهل لأن يكون مصداقا لصالحى مواليه، على حد تعبير امامنا الرضا (ع) بقوله:

من لم يقدر على صلتنا فليصل على صالحى موالينا يكتب له ثواب صلتنا
ومن لم يقدر على زيارتنا فليزر صالحى موالينا يكتب له ثواب زيارتنا^١.

وانَّ للمعارف الالهية اسراراً محجوبة تحت حجاب الظواهر لا ينالها الا الذى ارتاض بالشريعة الغراء بلانقص ولا زيادة وحفظ ظواهرها وجعلها قنطرة اليها وممرّاً لها، فانه يصل اليها بما هو الميسور له. لان الانبياء (ع) وكذلك العترة الطاهرة (ع) يتكلمون الناس على قدر عقولهم، وليس المعنى انهم (ع) يقتصرون

١ - مستند الامام الرضا (ع) ٢/ ٢٥٤، عن كامل الزيارات ٣١٩.

في بيان تلك المعارف بقدر خاص ويزهدون في النصح بل بمعنى أنهم يبتنون جميع ما يقرب العباد الى الله وإلى الجنة ويأمرونهم بها، كما ويبتنون جميع ما يبعدهم عن الله ويقربهم الى النار وينهونهم عنها.

فالمراد كما افاده سيدنا الاستاد العلامة الطباطبائي (قده)١. هو أنّ هناك اموراً لا يبلغها فهم السامعين من الناس حيث قال (ره) ... التعبير ناظر الى الكيف دون الكم فيدل على أنّ هذه المعارف حقيقتها التي هي عليها وراء هذه العقول التي تسير في المعارف بالبرهان والجدل والخطابة ... ومن هنا يظهر أنّ نحو ادراك هذه المعارف بحقائقها غير نحو ادراك العقول وهو الادراك الفكري ... ثم نفل (ره) الاحاديث الناطقة بان حديثهم (ع) صعب مستصعب لا يحتمله الا ملك مقرب او نبي مرسل او عبد مؤمن امتحن الله قلبه بالايمان وانّ الصعب هو الذي لم يركب بعد وانّ المستصعب هو الذي يهرب منه اذا روى، وللمتتبع ان يعثر على المزيد منه سيما برجوعه الى «بصائر الدرجات» ولنأت فيما يلي بنموذج له :

روى ابوالصلت الهروي قال، قال المأمون يوماً للرضا (ع) :

يا ابا الحسن أخبرني عن جدك امير المؤمنين (ع) باي وجه هو قسم الجنة والنار وباي معنى فقد كفر فكري في ذلك؟ فقال له الرضا (ع) : يا امير المؤمنين ألم ترو عن ابيك عن آبائه عن عبد الله بن العباس انه قال سمعت رسول الله (ص) يقول: حبّ عليّ ايمان وبغضه كفر؟ فقال: بلى، فقال الرضا (ع) : فقسمة الجنة والنار اذا كانت على حبه وبغضه فهو قسم الجنة والنار. فقال المأمون: لا ابقاني الله بعدك يا ابا الحسن. اشهد انك وارث علم رسول الله (ص). فقال ابوالصلت الهروي: فلما انصرف الرضا (ع) الى منزله اتبعته فقلت له: يا بن رسول الله (ص) ما احسن ما احببت به امير المؤمنين. فقال

الرضا (ع): يا ابا الصلت انما كلمته من حيث هو ولقد سمعت ابي يحدث عن آباءه عن علي (ع) انه قال رسول الله (ص): يا علي انت قسم الجنة يوم القيامة تقول للنار هذا لي وهذا لك^١.

لظهوره في ان الكلام الواحد وهو كلمة الرسول الاعظم (ص) لعل (ع): «انت قسم الجنة والنار» يبين لكل شخص على حسب استعدادة. فالكلام واحد والافهام شتى، لان الناس معادن كمعادن الذهب والفضة. فكل من اخلد الى الارض واتبع هواه فانه محجوب عن نيل البقية، وكل من تجافى عن دار الغرور واتاب الى دار الخلود واستعد للموت قبل حلوله ورآه بعين يقينه فرآه قريباً دون ان يراه بعين امله حتى يراه بعيداً، فهو الذي يشهد الملكوت ويرى الملك النازل عليه يسدوه ويؤيده ويبشره بالأمن من الخوف ولا يكذب فؤاده مارأى ولا يزيف بصره ولا يطنى كل ذلك بما هو ميسر له. حيث ان الله سبحانه:

يرفع الدين آمنوا والذين اوتوا العلم من المؤمنين درجات.

فلا يتيسر لكل احد ان يشاهد ما يشاهده ذلك الاخر الذي هو مظهر الرفعة. كما انه ليس لاحد ان يشاهد ما يشاهده النبي (ص) فيما اوحى اليه ما اوحى، ولكن لكل من طهر قلبه من ارجاس الرذائل كما اوصى بذلك مولينا امير المؤمنين (ع) في قوله (ع):
طهروا قلوبكم من الحسد فانه مكند مضى^٢.

و:

طهروا قلوبكم من الحقد فانه داء...^٣

وخلاه عن الادناس وحلاه بالفضائل... فان له ان يشاهد الغيب ويراه شهودا مصونا عن الخطاء، رؤية طاهرة عن الختل. وكل من لم يحصل له هذا النصاب فان شهوده مشوب بالتمثل النفساني وروئيته ممتزجة بالتمثل الشيطاني والمائر هو الثقلان اللذان لا يحوم حومهما هاجس نفساني ولا وسواس شيطاني لان سمائهما ملآنة بالحرس الشديد والشهب الثاقبة، فأتى شيطان رام الاستماع والاستراق فانه يجذله شهابا رصدا. فأتى تمثيل لا يوازيها فهو مدسوس واتى شهود لا يطابقها فانه موضوع وحاشاهما ان لا يصححا شهودا هو حصيل التقوى ولا يمضيا كشافا هو وليد الهدى ولا يصوبا الهاما هو ثمر الجهاد في الله حق جهاده. لأنها هما اللذان وعدا السالكين بالشهود والسائرين بالكشف والمجاهدين بالالهام. فهما اولى بانجاز ما وعدها، واحق بتحقيق ما بشر به واحرى بتصديق ما اخبر به.

ولعل الى بعض ما مر من معنى الرؤية وان لنصوص اهل البيت (ع) كالقرآن اسراراً محجوبة عن افهام الاوساط من الناس وان جهاد النفس نعم العون على كشفها وان طلاق الدنيا مهر شهودها... اشار شيخ مشايخنا الامامية محمد بن علي بن بابويه القمي (قده) في كتابه القيم المدون في التوحيد ونفى التشبيه والجبر، باب ما جاء في الرؤية، حيث قال (ره):

«والاخبار التي رويت في هذا المعنى واخرجها مشايخنا -رضى الله عنهم- في مصنفاتهم عندي صحيحة. وانما تركت ايرادها في هذا الباب خشية ان يقرأها جاهل بمعانيها فيكذب بها فيكفر بالله عز وجل وهو لا يعلم، والاخبار التي ذكرها احمد بن محمد بن عيسى في نوادره والتي اوردها محمد بن احمد بن يحيى في جامعه في معنى الرواية صحيحة لا يردها الا مكذب بالحق اوجاهل به والفاظها الفاظ القرآن ولكل خبر منها معنى ينفي التشبيه والتعطيل ويثبت التوحيد، وقد امرنا

الائمة.. صلوات الله عليهم اجمعين- ان لانكلم الناس الا على قدر عقولهم ومعنى الرؤية الواردة في الاخبار العلم وذلك ان الدنيا دار شكوك وارتباب وخطرات فاذا كان يوم القيمة كشف للعباد من آيات الله واموره في ثوابه وعقابه ما يزول به الشكوك ويعلم حقيقة قدرة الله عزوجل وتصديق ذلك في كتاب الله عزوجل:

ولقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد!

فعنى ماروى في الحديث انه يُرى اى يعلم علما يقينا. كقوله عزوجل:
الم ترالى ربك كيف مد الظل!

وقوله تعالى:

الم ترالى الذى حاج ابراهيم فى ربه.

وقوله تعالى:

الم ترالى الذين خرجوا منهم ديارهم وهم الوف حذر الموت.

وقوله تعالى:

الم تركيف فعل ربك باصحاب الفيل.

واشبه ذلك من رؤية القلب وليست من رؤية العين واما قول الله عزوجل:
فلما نحلى ربه للجبل.

فعبناه: لما ظهر عزوجل بآية من آيات الآخرة التي يكون بها الجبال سراباً والتي ينسف بها الجبال نفساً تدكدك الجبل فصار تراباً لأنه لم يطق حمل تلك الآية. وقد قيل أنه بدا له من نور العرش^١.

والمستفاد من كلامه (قده) هو أن الرؤية في تلك النصوص المعتبرة ليست هي رؤية العين الحاسة المادية، لنزاهة المرئي من المادة ولوازيمها، كما و أنها ليست هي العلم الحصولي الذهني، لأنه مشوب بالشكوك والخطرات، حيث أنه من وراء حجاب المفهوم وغيم المعنى الذهني، بل المراد هي الرؤية القلبية المنزهة عن أي حجاب حاجب، المبرأة عن أي تشكيك، المصونة عن أي ارتياب، المعصومة عن أي خطر. ثم قال (ره): ولو أوردت الأخبار التي رويت في معنى الرؤية لطال الكتاب بذكرها وشرحها وإثبات صحتها، ومن وفقه الله - تعالى ذكره - للرشاد آمن بجميع ما يرد عن الأئمة (ع) بالأسانيد الصحيحة وسلم لهم ورد الأمر فيها اشتبه عليه اليهم أذ كان قولهم قول الله - عزوجل - وأمرهم أمره، وهم أقرب الخلق إلى الله عزوجل وأعلمهم به - صلوات الله عليهم أجمعين^٢.

وأنتم - أي القارئ الكريم - بعد التأمل فيما قدمنا من استحالة تعلق الرؤية الحسية بالله سبحانه مطلقاً ومن امتناع العلم الحقيقي به سبحانه من وراء حجاب المفهوم أو غمام الصورة الذهنية وما إلى ذلك أذ ليس شيئ من ذلك شبيهاً به تعالى ولا مثيلاً له سبحانه حتى يحكيه ويطابق عليه كما هو المعتبر في العلم الحصول ولا يمكن نيل ذاته بهذا العلم الذهني والآيلزم انقلاب الذهن

١ - التوحيد، ص ١٢٠ - ١١٩.

٢ - التوحيد، ص ١٢٢.

خارجا او الخارج ذهنا والكل ممتنع، فلا يتمكن من العلم الحقيقي به تعالى من وراء حجاب الاستدلال وسحابة القياس الحسولي... وهكذا بعد التنبه بما مر من استحالة احاطة العلم الشهودي به سبحانه مع امكان اصله بل ضرورته...

تعرف حقيقة المراد من كلام مولينا الرضا (ع) حين قال له (ع) ذو الرياستين: جعلت فداك اخبرني عما اختلف فيه الناس من الرؤية... فقال بعضهم يرى وقال بعضهم لا يرى. فقال (ع): يا ابا العباس من وصف الله بخلاف ما وصف به نفسه فقد اعظم القرية على الله. قال الله تعالى: «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير»، هذه الابصار ليست هي العين انما هي الابصار التي في القلب لا يقع عليه الاوهام ولا يدرك كيف هو^١.

اذ المراد من الرؤية المنفعية هنا هي الرؤية الحسية والوهميه دون الشهودية القلبية وان عبرني بيانه (ع) بالابصار التي في القلب.

ويؤيد ذلك ما رواه محمد بن الفضيل قال سألت ابا الحسن (ع):

هل رأى رسول الله ربه عز وجل؟ فقال: نعم. بقلبي
رآه اما سمعت الله عز وجل يقول ما كذب الفؤاد ما رأى، اي لم يره بالبصر،
ولكن رآه بالفؤاد^٢.

وهذا لا ينافي مع ما روى عنهم (ع) من تفسير رؤية الفؤاد برؤية نور العظمة تارة ورؤية الايات تارة اخرى بعد ما اسلفنا من انهم (ع) كانوا يكلمون الرواة والسائلين على قدر عقولهم (مضافا) الى ان نور العظمة انما هو نور الذات، لان

١- مستند الامام الرضا (ع) ٣٣٢/١. عن تفسير العياشي ٣٧٢/١.

٢- التوحيد، ص ١٢٢.

العظمة من شؤن القدرة التي هي عين الذات.

ومما يصحح الرؤية القلبية بالمقدار الميسور هو ما رواه ابو بصير عن ابي عبد الله (ع) قال: قلت له:

اخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟
قال: نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة. فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم الست بربكم. قالوا بلى، ثم سكوت ساعة. ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة الست تراه في وقتك هذا؟ قال ابو بصير: فقلت له: جعلت فداك فاحدث بهذا عنك؟ فقال لا، فانك اذا حدثت به فانكره منكرا جاهلا ثمعني ما نقوله ثم قدر ان ذلك تشبيه ككفر وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون^١.

وبالجملة إن القلب لتجرده عن المادة صالح لشهود الملكوت لولا ان يحوم الشيطان حومه فاذا حام حومه اعماه واصمه واخرسه، لأنه قرين سوء مأمور من القهر الالهى لان يسدى الغطاء على عين قلب كل متكبر جبار لا يؤمن بيوم الحساب، حيث ان الذى يتعمى عن شهود الايات المبصرة التى لاحجاب عليها، ويتعاشى عن رؤية البينات التى لاسترة لها، وكذا يتصنع الصم والخرس، يخرج بسوء اختياره عن الاسماء الجمالية، ويحرم منها ويدخل تحت الاسماء الجلالية الحاكمة على من اشترى الضلالة بالهدى، فيصير مقرونا بوليّه المضل له وهو الشيطان، كما قال سبحانه:

ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين^٢.

فيزيده العمى والعشا باجتراح الذنوب. اذ العصيان موجب للعمى والاصرار عليه موجب لزيادته.

وقد ذكر مولينا الرضا (ع) بعض مصاديق الذنوب الموجبة للعمى في قوله (ع) جوابا عن سؤال محمد بن الفضيل، سئله عن قول الله تعالى:

ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا، فقال (ع):
ذاك الذي يسوف الحج، يعني حجة الاسلام، يقول العام احج العام احج
حتى يجيئه الموت^١.

وقد تقدم منه (ع) تطبيق ذلك على من كان اعمى عن الحقائق الموجودة.
فالمستفاد من ذلك كله هو ان اعمى لا يرضاه الله ورسوله فهو موجب
للعشاء لانه مصداق تعاش عمدى وتعام قهرى عن ذكر الله فلا خصيصة
لتسويق الحج، بل المدار هو التعاشى عن ذكر الله الذى يندرج تحته الاعتقاد
والخلق النفسانى والعمل الجارحى. فلذا قد يطلق الذكر على الصلاة، كما في
قوله تعالى:

واذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله^٢.

اذا لصلاة بماهى عبادة خاصة مصداق لذكره تعالى وسبب لحفظه ولعله
لذا قال تعالى لموسى عند ابتداء الوحي:

إلى أنا ربك فأخضع نفسك لى ربك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك
فاستمع لما يوحى، اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدونى واقم الصلاة لذكرى^٣.

وقال تعالى:

فدا افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى^٤.

١- مستند الامام (ع)، عن تفسير العياشى ٣٠٥/٢.

٢- الجمعة/٩.

٣- الأعلى/١٥.

٤- طه/١٤-١٢.

وحيث أنهم (ع) كانوا يكلمون الناس على مبلغ عقولهم وقلوبهم التي هي الاوعية للمعلوم والمعارف وخيرها اوعاها، نراهم (ع) (تارة) يتكلمون بإمكان رؤية الله سبحانه قليلا (واخرى) يصارحون بأن الرؤية إنما هي تتعلق بالشواب، ليس الا... كما وان الحجاب ايضا قد يفسر بالنسبة الى الشواب. لذلك فقد قال مولينا الرضا (ع) في قوله تعالى:

وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة^١ : يعني مشرقة تنظر ثواب ربها^٢.

وقال (ع) في قوله تعالى:

كلانا من ربهم يومئذ لمحجوبون^٣ ان الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان يحل فيه فيحجب عنه فيه عبادته ولكنه يعني انهم عن ثواب ربهم لمحجوبون^٤.

وقد مرمسبقا منهم (ع) انه لا حجاب اصلا بين الله سبحانه وبين خلقه الا الخلق نفسه وليس وزان شهود الله بالقلب المنزه عن غيره هو وزان المجيء والذهاب وما الى ذلك مما يتصل بالانتقال او الانفعال. فلذا قال مولينا الرضا (ع): في تفسير قوله تعالى:

وجاء ربك والملك صفا صفا: ان الله تعالى لا يوصف بالمجئ والذهاب تعالى عن الانتقال، انما يعني بذلك: وجاء امر ربك والملك صفا صفا. وقال (ع) في قوله تعالى: سخر الله منهم. وقوله تعالى: الله يستهزئ بهم. وقوله تعالى: ومكروا ومكر الله، وقوله تعالى: يخادعون الله وهو خادعهم.. قال:- ان الله تعالى لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع، ولكنه تعالى يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا^٥.

١- القيامة/ ٢٣- ٢٢.

٢- عيون الأخبار/ ١/ ١١٥.

٣- الوحيد ص ١٦٢.

٤- عيون الاخبار/ ١/ ١٢٦.

فأى وصف يلزم التنقل اويصاحبه الانفعال فلا بد وان ينتزع من فعل الحق سبحانه، لفارق في ذلك بين الانفعال المادى، كما في الحادث الزمانى وبين الانفعال الذاتى، كما في الحادث الذاتى المستوعب لجميع ماسواه تعالى، وذلك لان الانفعال انما يتحصل في مورد الفقر الذاتى، اذ الغنى المحض لا يتأثر عن الغير اصلا، فلانفعال، فلاشيئ من الغنى الصرف بمنفعل، فلاشيئ -أذا- من المنفعل بغنى، وعليه فلا بد وان يكون فقيرا ليكون له حاجة الى غيره ويتفعل عن ذلك الغير-بطبيعته-....

الفهرس

الفصل الأول:

روضة: في العلوم التي تحوم حول القرآن نفسه ٧

الفصل الثاني

الجنة الأولى:

في بيان ما هو طريق معرفة القرآن ٤٦

الجنة الثانية:

في بيان المائز بين التدبر في القرآن وبين استنطاقه ٨١

الجنة الثالثة:

في تحضيض القرآن الى التحقيق وطرده لآمنية ٩٤

الجنة الرابعة:

في ترغيب القرآن الى البرهان العقلي والشهود القلبي وترهييه

عن القياس الوهمي والتمثيل الشيطاني ١١٠

إيضاح ١٤٧

بيروت - بئر العبد - الصنوبرة - مقابل سنتر داغر - بناية دياب مهدي

Tel: 823518 - 822167 - 601002

Fax: 009611601019

P.o. Box: 36/24

ت: ٨٢٣٥١٨ - ٨٢٢١٦٧ - ٦٠١٠٠٢

فاكس: ٠٠٩٦١١٦٠١٠١٩

ص.ب: ٢٤ / ٦٣



دار الصنوعة

To: www.al-mostafa.com